A.U.B. LIBRARY

عباس محمود العقاد

892.709
A13mA
c.1

مجدّدون ومجترّون

68536

دار العلم للملايين

بيروت

نوار ١٩٤٨

للمؤلف

وجوه وحكايات
زوبعة الدهور
الرؤوس
زوابع (شعر)
على المحك

أقزام جبابرة (تحت الطبع)
دمقس وأرجوان (تحت الطبع)

كمقدمة

القديم والجديد نضال الابد بل صراع الحياة . في عش العصفور الدوري كما في عرين الاسد ، بين الآباء والابنـــاء ، والاخوة والاخوات ، والكنّة وحماتها ، وهنا التنور المسجور والفرن الحـــامي ...

تكون الحماة ارجح عقلاً واوفر علماً وتراها الكنّة اختـــاً للغوريلا وانثى الكهوف . أما الحمـــاة فتقف بالمرصاد كعدّاد التكسي .. إن مشت الكنّة رأت خطواتها أوسع من المعتـاد ، وأشارت بتعديلها لتكون على التمام ، كما رسمها السلف الصالح .. وإذا تبسّمت صفقت على فخذيها وصاحت بابنها : قل لبنت عمك لا تفتح بوزها على مصراعيه ثاني مرة ، هذا عيب ! وإذا حكت فهي ثرثارة ، لسانها أطول من اذنيها ، وإن سكتت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة تأكل عشاءها ، وإن رفعت صوتها كانت وحشة مقطوعـــة من الحرج ، وإن خفت صوتها فهي حية رقطاء تحكي في عبها . وإن قصّرت ثوبها فهي من سلالة حاتم في الفتنة والاغراء ، وما هكذا تعمل بنت الأوادم ، وإن عملت بوصايا الله والكنيسة فكل قماش

بيروت لا يكفينا ، والله يساعدك يا ابني !! وإن كبّرت لقمتها فهي غولة ، لعنة الله على من ربّوها ، وان بيّنت سنها فالبنت عينها شاردة ..

وتروز الكنّة حماتها فتراها أقل من خرقة بالية اولى لها ان تلقى في المطبخ ، لا ان تتقدم عليها في المحضر ، وتسوّد وجه البيت. فلتنقبر ! اين عزرائيل كنّاس البيوت ؟ ألا يرى هذا الوجه المتكرش كأنه آخر البندورة ؟ ...

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرب إذا تخلت هي عنه لهذه البنت الطائشة ، وإذا زارتها جارتها تسر النجوى قائلة : غضب من ربنا يا جارة ، حلّ علينا . يا قلة الحظّ !! ثم تقرصها في جنبها قرصات لاذعة لها الف معنى ومعنى ، بينما الكنة المسكينة تقرأ أو تطرز ، أو تترنم كذباب عنترة .. وتختم الحماة رسالتها هذه بصريف الاسنان مقروناً بأحرّ العواطف : يخرب بيتها ، لا يهمها شيء سواء عندها خرب البيت أم عمر ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت أحسن يا جارة ، ما في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الادب ، الادب يريد ان يمشي ، والحماة قرم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق إلا إذا مشينا على جثتها . فلنمشِ !

كان من الازياء الادبية ، منذ نصف قرن خلا ، ان يقدم المكاتب لاسمه بسجعة فيقول : الفه الفقير الى عفو ربه الوزاق فارس بن يوسف الشدياق ، او صنفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني . وقد ادركتُ ، تلميذاً ، آخر هذه

السوق ، فكتبت على دفتر لي مدرسي سيبقى بعدي وقف ذرية : المحتاج إلى عفو ربه المعبود، مارون حنا الخوري عبود. و كان هنالك زي آخر اعظم خطراً وهو ان يصدّر المؤلف كتابه ببيتين من الشعر، كما فعل المعلم بطرس البستاني ، فكتب على قاموسه الشهير:

قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمسي هذا الحديث قديما

فتعظيم القديم من طبيعة الناس ولذلك عبدوا جدودهم ... فكل رجل ، ولو خاملا ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيما ، تنهال عليه الرحمات ويرون انه كان من المفارد ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان لا يهش ولا ينش ، ولكنه دخل الابواب الدهرية فصار ملك المجد ...

وقبالة جيل القديم يرتفع توأم آخر يساميه ويطاوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمان لا يلتقيان . فزعيم الشعر العربي واحد لا غير هو الذي ضيع ملك أبيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يساوي بيتاً من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء رأس دارة جلجل ... ونودي بامريء القيس ملكا على الادب العربي ، وثبت عرشه مدة ستة عشر قرناً، لا يثور عليه إلا عصابات تذوب جهودها في الخنادق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابنا آداب الامم فأغرتهم بالخلق فتجهّم لهم المحاربون القدماء . يريدون أن تظل الجبهة في البيداء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

ان الشعر معمل تصنع فيه التعابير ، ولهذا يحق لنا أن نقول

للشاعر : كن كيف شئت ، إلا اثنتين فلا تقربها أبداً: النحو واللغة .

فتنت العرب التعابير الراقصة فصرخوا بصاحبها : أنت أشعر العرب . وأدركوا ان الشعر موسيقى أولا فقدموا البحتري وأخروا ابن الرومي . واهتز ابن الاثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على أفكاره » عند أبي عبادة ، كما نعجب نحن « بضيوف الله » عند شوقي ، لا بقريع الشهباء وكبش النطاح ...

يصلح الشباب أوتارهم فنشوّشها لهم ، وبدلاً من أن ننثر الزهر على الموكب العابر نرجمه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسّله إلى الفن بلغة « رسمية » لا يجيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خيرٌ ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتنة الطرية الناعمة المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفّى فنغضب تلك الغضبة المضرية ليظل اكثر شعرنا نثراً . وكما كانوا يحتكمون في البصرة والكوفة الى وافد من البادية نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن ... ان باب القياس اوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ولا تكونوا من ذوات المعدتين .

فلندع المجترين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعاماً جديداً . ان في الادب ازياء تتجدد . ان البساتين تحتاج ، دائماً ، الى التطعيم ، والاداب بساتين الشعوب ، فلنطعم ادبنا فقد اصبح برّياً . قد حان لهذه الوثنية الأدبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف الا إلهاً واحداً هو الجمال . ان افلح الشباب ففلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم ، وسيظل في يدهم حتى تعقده

العبقرية لجيل آخر ، ان الذرية محبوبة الا في الأدب، ففلان وفلان لا يريدون ان يتواروا. ان الحماة لا تدع ثوثرتها حتى يغلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي ...

ملّ العرب القديم في كل عصر ففضل الاصمعي ابن بُرد على مروان ابن ابي حفصة ،وابن الاثير نادى ان باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

منذ دهور واعيننا في ظهورنا ، واكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقاً ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر - كالأب بريمون اليوم - شعراً موسيقياً خفّ معناه ، على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفة معانيه . فلنسر على هذه الطريق 'نفلح' . اما المتوغلون في الوثنية الأدبية فلهم اقول : اذا كان يستطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، أفلا يستطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلا من ذبال امرىء القيس المفتل ؟ !

نيسان ١٩٤٨

مارون عبود

خطب الرئيس

•

وقع في يدي منذ ايام ، كتاب « خطب الرئيس » . عفواً ، انا اوقعته في يدي ، فالاقرب الى الصدق ان أقول هبشت منذ ايام كتاب خطب الرئيس. وما عليّ ان استعملت لفظة لا يؤدي غيرها معناي كاملا ، غير منقوص . انها لفظة عربية منسوبة العم والخال لا يتنكر لها لسان العرب ولا تاج العروس .

ولما صارت تلك الخطب في حوزتي وقفت عند عنوانها وقفة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة . قلت في قلبي : لقد أحسن من انتقى لها هذا العنوان ، وحذف كل ما تواضع عليه الناس من القاب جرارة تمشي في موكب الاسم راقصة خلفه وقدامه ، أثقال لا معنى لها الا انها أثقال . فقولنا الشيخ الرئيس يذكرنا بذاك الفيلسوف العظيم ابن سينا طبيب الروح والجسد ، والشيخ الرئيس ، اليوم ، هو طبيب كذاك ، طبيب ارواح واجساد جمهوريته .

ان من لم يحوط اسم الشيخ الرئيس بالفخامة والرئاسة احسنَ الى الادب ، فأجاز لنا درس خطب رجل الساعة والغد كاديب او خطيب مفوه . وكما يضرع رئيسنا المفدى في اكثر خطبه الى ربه

ليصون لبنان ، فانني انا بدوري أحمد الله ، ولو مرة ، لانه اسمعنا صوتاً غير اعجم طمطم . اسمعنا صوت رئيس لا يلوك لسانه ، بل يقول فيعرب ، فلا نغالي اذا سميناه أديب الرؤساء ورئيس الادباء.

الرئيس الشيخ حفيد فقيه زمانه الشيخ بشاره الخوري ، وابن خليل بك الخوري رئيس القلم العربي الذي صحت معه لغة الديوان في عهد المتصرفية . وخطبه التي نتحدث عنها الآن ليست اول أثر عربي للشيخ الرئيس ، فلابسو الروب ، وهم كثر في لبنان ، وابني منهم والحمد لله ، يرجعون الى تآليفه الاشتراعيـــة الناصعة اللغة ، البليغة العبارة . فالشيخ يضرب في كل مقام عربي بسهم ، بل قل بسهم مراش ولا تخف ، ولا يرمي الا صائباً . ناهيك ان بلاغته في لسان القوم لا تقلّ عنها في لساننا العربي المبين. فاذا رأيته في هذه الخطب يغرف من بحر وينحت من صخر ، فاعلم انه ، أيده الله ، عميق الثقافة ، واسع المعرفة ، حفظ أفصح الشعر ، وابلغ النثر ، فأطاعه الكلام . وهو اختصاصي في تاريخنا ، تلقن تاريخ لبنان في المهد صبياً ، تعلمه في المحادثة حول الموقد شتاء ، وفي الهواء الطلق صيفاً ، حين كان يصغي الى أبيـــه وسماره ، وكلهم شيوخ اكابر عركوا السياسة اللبنانية وعجنوها وخبزوها .

ان هذه الخطب تنم عن حنكة ، وصبر ، وحكمة ، ودهاء . وهي مع هذا واضحة صريحة ، لا فخاخ فيها ولا مطامير ، قوامها الايمان ، والرجاء ، والمحبة . فهو المؤمن بحق بلاده ، المترجي فلاحها ونجاحها ، والمحب حتى خصومه فيها. فكل ما يبوح به لسان الشيخ الرئيس منبعه قلبه المشرق الاعماق. ليس في خطبه ذرة من المطاط

السياسي ،فما هنالك غير الماس يتلألأ ،يفتنك بريقه ،ويغريك لمعانه . ليس شيخنا بشاره الخوري طلسما سياسياً ولا ابا هول . اسمع هذه الصراحة وهي من خطبته في طرابلس ، قال أيده الله : منذ عامين رفعنا هذا الشعب بدافع حزبي او شخصي ، او بنزعة استقلالية الى الارائك النيابية . الى ان يقول ، عطفاً على هذا فيما بعد : واذا كنت انا وليد الحزبية في الانتخابات ، فقد انتخبني المجلس رئيساً للجمهورية باجماع الاصوات . وهب انه بالاكثرية فان رئيس الجمهورية يترفع عن الحزبية ، ويكون للجميع على السواء . ثم يلجأ الى ربه قائلا : فأطلب منه تعالى ان يغل نفسي وعقلي ويدي عن النعرات . ويختم هذه الخطبة بقوله : عاش لبنان مستقلا حراً ديموقراطياً عربياً .

ان الآداب العربية تأمرنا برد التحية على الاقل ، فلنقل اذن : عاش بطل الاستقلال الحكيم ، والربان العليم .

ومن خطب الرئيس تشع انوار المحبة الصادقة لمن يوجه اليهم الكلام ،فتنير أمامه أشد الطرق ظلاماً . انه لحب مخلص لا تغره الفخفخة . رئيس ديموقراطي ، تشعر إذ تقابله انك حر طليق من كل ما تخيلته من قيود (رسميات) . فلا تكاد تطل عليه حتى يجلّك وجهه الطلق من اغلالك وتنبري ابتسامته الرصينة لفك انشوطة البروتوكولات والتشريفات فتنحل جملةً ويستقيم الخيط المعقد أمام عينيك .

بهذا الخلق السامي استطاع الربان ان يبلغ بالسفينة الشاطيء الامين ، وان يدرك لبنان على يده ما لم يدركه من استقلال في

جميع اطواره .

استوحى فخامة الرئيس هذه الخطب الرائعة من وقفاته المشرفة في مراحل الجهاد والاستقلال . وهذا المجلد لا يضم خطب الرئيس جميعها ، ولكنه افتتح بخطبة « عهد الرئيس للامة » ، وختم بخطبة « الجلاء » ، المعركة الفاصلة في تاريخ النضال . قال الرئيس في خطبة العهد : « فأسأل الله ان يعيننا على خدمة هذا الوطن اللبنـــاني المستقل ، المتمتع بسيادته كاملة غير منقوصة ، مهما تكن التضحية في سبيل هذه الخدمة الكبيرة ، هذا الوطن اللبناني الذي نضع حبه فوق كل شيء ، والذي يجب ان يظل للبلدان العربيـة المحيطة به جاراً امينـاً ، واخاً صادقاً ، تربطه بها روابط تعاون يسوده الود والاخلاص » .

التضحية الكبرى هي اول ما تمثل للرئيس منـــذ انبلاج فجر عهده ، فكان له ما تخيل . راز ، حفظه الله ، أثقال اعباء الرئاسة فأعرب فوراً عن اقتبالها . فما مر خمسون يوماً حتى ظهرت أشباح التضحية وكان الاعتقـال ، فضج الشرق والغرب ، وعاد الرئيس جانباً ثمار النصر من شجرة التضحية الكبرى ، وها هو يسمع شعبه صوته ذاكراً حاصبيا التي شهرها اعتقاله كما تشهر الوقائع الكبرى قطعة من الارض ، فيلقي خطبة عنوانها « الاعتقال ثبّت ايماننـــا في الاستقلال » ، فيقول : اذا عدنا بالذكرى يمكن ان يساورنا بعض الالم ، أما اذا نظرنا الى النتـــائج ، فلا يمكن إلا أن يفعم نفسنا الفخر والغبطة لأن هذا الاعتقال ثبت قدمنا في الاستقلال ، وحرر دستور البلاد ، وعزز سيادتها الوطنية . وكما أن حبة الحنطة لا تثمر

إلا اذا دفنت في الارض ، كذلك الاستقلال فهو لم يثمر إلا بعد أن دفن في راشيا » .

لقد حارب الرئيس على جبهتين، وكأني اتصوره يقول اذ كان يجابه مشاكل الجمهورية خارجية وداخلية : ودخلت في ليلين فرعك والدجى ... ولكن الليل لم يتطـــاول ، وآب راعي النجوم ... فكان مساء وكان صباح ...

فاذا قرأت هذه الخطب، على تنوع اغراضهـــا ، ترى الشيخ الرئيس لا يفارق عمود اسلوبه الرفيع، تتمتع افكاره العميقة بصفاء البحر ساعة هدوئه . انك ترى قاعه الجميل ولكنك تخطىء جداً في تقدير المسافة التي تفصلك عن الاعمـاق . فالشيخ الرئيس يضم إلى أناقة التعبير عمق التفكير فلا نقع في خطبه على فكرة مُعـــادة مكرورة ، مع تشابه المواقف . فبينا أنت تسمعه في خطبة العهد يرسم خطوط وجه لبنان الجديد ، اذا به يحدثك في خطبة اخرى عن « الاقتصاد » كاحد علمائه ، والخطبة بارعة كاختها تلك ، ثم يتحدث عن الغرسة الصغيرة في تراب لبنان فيناجيها باسلوب شعري يفيض حباً وحناناً : « لبنان والشجرة رفيقا صبا وشريكا جهاد . الشجرة جمال خالد، وثروة فياضة ، ورمز مفدى ، ما برحت الشجرة كذلك في لبنان الذي يحرص على تقاليده ويتمسك بماضيه ، ويثق بحاضره ويؤمن بغده ايمانه بالله ، وبالعدالة والحق والحرية » .

ثم يدع الاسلوب الشعري لينطلق في اسلوبه التقريري الرائع حتى اذا بلغ ما يروم لجأ الى الاسلوب الخطابي الصارخ : ايهـــا اللبنانيون واللبنانيات الاعزاء . ازرعوا الاشجار واعتنوا بها ،

فالشجرة رفيقة لبنان في صباه ، وشريكته في جهاده . عاشت اشجارنا ، وعاش لبنان !

وهكذا ينتقل الشيخ الرئيس في ابراج البلاغة ، ينتقل من جو الحقوق ليتغلغل في اجواء الصلات الدولية ، فينبري الشيخ السياسي العارف تاريخ بلاده منذ عصر الصوّان والظرّان الى عصر الرادیو والذرة .

وكما يتحدث ليلة « الميلاد » تظلله روعة الايمان كذلك يتحدث ليلة « المولد » بيقين عميق ، وهو في المقامين مخلص صادق . فهو ، وان دان بدينه تديّن ممارس ، يرى ان غاية الاديان كلها تأييد الحق والخير ، وانها على اختلافها كوى يطل منها الانسان ليرى وجه ربه .

واذا تعمقت في خطب الرئيس دلتك على ان صاحبها رجل لايحمل الحقد ، ويصح فيه قول الشاعر :

قد كنت خفتك ثم أمّنني من ان اخافك خوفك الله

وقبل ان افلت خيط هذه الفكرة يطيب لي القول : انه ليحق لهذا المفكر الكبير ان يقول مع المتصوف الاعظم : واصبح قلبي قابلا كل صورة ...

*

والان فلنعد الى عملنا ، الى مجهرنا — ميكروسكوبنا — فنقول إن العنصر الأدبي يسود هذه الخطب جميعها يرصّعها الشيخ احياناً بالشعر النفيس ، فتدلك على ان قائلها هو من الادب العالي في صميم قلبه ، وحسبك ان تقرأ خطبته في

بعبدا لتعلم ان الشيخ الرئيس يترك اذا شاء الموسيقى النحاسية المهيجة لتأخذ الناي الحنون فيشجيك حين يشاء ويهيجك متى شاء. فحديثه عن ذكريات صباه في بعبدا قطعة ادبية رائعة يتجلى فيها الشيخ الاديب الاصيل.

اما النبع الذي يمد شيخنا في هذه المواقف فهو ما تدخره ذاكرته من روائع الشعر. اشهد انني اعييت في مساجلته في بتدين حتى قلت لفخامته: ما كفاك ما صرت حتى تطمع بالرئاستين وتقطع لقمتنا؟ فقال: هذا حق الغداء.

وبعد، فان «خطب الرئيس» تربطها وحدة جهاده الذي ربط لبنان باخوته الاقطار العربية، فهي تستحق بحق ان تسمى كتاب الجهاد اللبناني. وهو كتاب ذو وحدة، يفتتح بعهد الرئاسة، ويختم بخطبة الجلاء. وفي كل موقف نشعر ان الشيخ الاب يتحدث الى ابنائه واخوانه، يبتعد عن الانانية ويعزو الى لبنان، حكومة وشعبا، كل ما كان وحصل، تارة يخاطب العقول، وطورا يناجي القلوب، ولم يحرم احدا حتى الاطفال من احاديثه العذبة لعلمه انهم مشتل الرجال.

وفي خطبة الجلاء وقف الشيخ الرئيس، فكان اقل منه كلاما في كل مقام. ولا عجب فذاك موقف تنعطل فيه لغة الكلام، ويمتزج الدمع بالابتسام. هناك في المعبر الذي مر به جميع الفاتحين وقف الشيخ العظيم، وقف يمهر صك الاستقلال في المضيق الذي كنت اسميه سجل التشريفات كلما مررت به. وشاء الجهاد ان يكون ختام هذا السجل الدهري موقعا بلغة الضاد: باسم الشيخ بشاره

خليل الخوري .

كان الله في عونك ياشيخنا الخالد ، وحسب سلسلة النهضة الادبية اللبنانية منك انك اوجدت حلقة الادب السياسي المفقودة . والادب السياسي خلق وتكوين ، وتجديد قيم انسانية سامية .

المجترون

•

لما ظهر كتاب « الالفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني قال رجل - لا أذكر اسمه ولا كلمته بعينها : لو غدا حكمه إليّ لقطعت يده .

يا ليته قطع تلك اليد ، واحرق ذلك الكتاب ! فكتاب (الفاظ) عبدالرحمن و (صبح) القلقشندي ، و (نجدة) الشرتوني ، و «نجعة» اليازجي، مراع لسوائم التقليد ، وزرائب لشوهات النقل ومستودعات لغاديات اللغة، لا مثل لها الا تلك المخازن التي تكترى منها الثياب للسهرات والطقوس المحدد لها طراز خاص من أزياء تواضع عليها الناس . فما قتل أدبنا وأفقده الحس والشعور غير هذه الروامس (الكليشيهات) التي نجترها ونحشرها بين كلمات مرصوفة ونشكها شك الخرز في فساطين النوريات ، ثم نتباهى بها كالقرعاء ...

الادب كغيره من الفنون الرفيعة صورة من صور مشاهد الحياة التقتطها العين، ورسمها القلم على الورق صورة حية، فلابست العقول ووعتها الاذان . كانت رائعة يوم ابتكرت، فهي لم تنشأ لبلوكها

ضيفن الادب وينقيأها على القرطاس دهوراً وعصوراً ، ولاتؤدى لها ضروب العبادة والتقديس وتمسي ترجمان كل من حمل قلما يستوحيها دون تفكير بما تحتها ولا نظر الى ما فوقها ، كأنها فرضت على الانشاء فرضاً فلا يجمل ان يتزيا إلا بها ، ومن لم يحسن التأدية بها فذاك غير فصيح ، فهبّ بعض المتمشرقين يصمون أدبنا بكثرة رواسمه ، ومستحاثاته ، ومومياءاته ...

إن هذه العناصر من التعبير تفسد البناية الشخصية الادبية ، ونحن أفقر أهل الارض في أدبنا إلى كل ما هو شخصي . خذ قطعة أو قصيدة وضعْ ديباجتها تحت المكبّرة ، كما يفعل الحائكون ، فتبدو لك فيها هذه التعابير كرقعة نابية لوناً وديباجة ، وهكذا يظهر منظومنا ومنثورنا كالمسرح المزين بما يدنيه من المكان المقصود ، وان شئت كلمة أوضح فقل انها كالقديد في مأدبة طعامها طازج .

لو رصدنا الكون لرأينا حركة راعبة تدهش المتأمل وقلنا مع القرآن الكريم «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب» . فلا جامد جمدة الموت الا عقول البشر ، فالذين يفكرون بعقولهم هم اندر من الراديوم . هناك فئة قليلة جداً تفكر اتفاقاً ، والذين يفكرون بعقول جيرانهم لا تحصيهم الارقام ، أما أكثر الناس فلا يفكرون . عقول صغار في جثث ضخام . مثلما يأكلون ويشربون وينامون ، هكذا يقرأون ويتكلمون ويكتبون . ومثلما يمشون ولا يعنون أين يضعون أقدامهم هكذا تقذف أفواههم تعابير رأوها نائمة في بطون الكتب فأيقظوها ليستخدموها في الافصاح عن خلجات نفوسهم وبدواتها ، والتنفيس عن عواطف مكبوتة ، كأنما

التعبير علك يُمضغ .

مسكين الانسان!! ما أشبهه بحصان العربة يتبع الطريق وسوط العرف ينهره ويلذع قفـــاه ، فلا يتعوج ولا يتعرج الا ليستريح ربما يستأنف السير ... ما أكثر الذين يقومون بعملهم الانساني ولا يفكرون انهم ناس..! وما أبعدنا عن تمحيص ما نقرأ وما نكتب وما نسمع وما نعتقد فكأننا أبواق تنفخ العادة فينا ما شاءت من اصوات قد تكون هي أنكر الاصوات لا غيرها .. فنضم ما ألفناه وتعودناه إلى مجموعة الميراث الاقدس . فكم من الفاظ طنانة وتعابير غامضة حائرة تطربنا وما ندري لماذا ، وتهيمن وتسيطر علينا كأنها نواميس طبيعية لا بد من تفاعلها ، ثم لا نفكر لماذا .

قد يعتب عليك أحدهم إذا لم تقل – إن شاء الله – كما فعل أبو نصر بالمتنبي ليلة غدرته في طلب منيته . وهذا اللائم يتلفظ بها ولا يدري لماذا ، ان لم يقلها ويجهل انه قالها . ومثل هؤلاء إذا ناقشتهم اخفى الامور والقضايا عن الادراك وجدت عندهم لكل سؤال جوابا مما لقنوهم إياه وأملوه عليهم ، كأنما نفسيتهم احـــد كتب الرسائل القديمة : المكتوب وجوابه قبالته ، او كالذي الفناه في التخاطب فنقول : مشتاقون لمن نكره محضره ، وداعٍ لك لمن نتمنى قصف عمره ...

كم من كاتب يحدثك عن الملأ الاعلى ، وهو ينكت مزابل المادة كالشقبان في ليالي كانون المظلمة ، ليزدرد ديدانها ويلتهم حشراتها!

ان المفكرين الحقيقيين قليل في هـذا الورى ، والمشككين الحقيقيين أقل منهم . أما المطمئنون إلى كل شيء فملء الارض ،

اكثر من الذباب والبرغش حول المستنقعات ، وهل من مستنقعات أنتن من رواكد العقل البشري ؟ ما أشبه هؤلاء بصبيان يحسبون منتهى الدنيا وراء الجبل القاعدة في حضنه قريتهم ، وكم كانت دهشتنا عظيمة حين تسلقنا الجبل ورأينا وراءه أشياء أخرى ...

وأفتك أوبئة الانسانية ذلك الاطمئنان الداخلي ، مرض الدهماء الذين يعومون دائماً في زبد أنفسهم ولا يغوصون في لجتها ، تلهيهم ثرثرة الساقية عن صمت النهر الهادىء حيث الحيتان الضخمة التي تبتلع حوت يونان ... ان هؤلاء يخافون المعرفة فيتجنبونها ويؤثرون الجهل عليها ، وهذه الحياة المخدرة التي يلذ بها كل رجل مشترك العقل تدفعهم إلى تقديس القديم ، فيرون في الثورة عليه خروجاً على المجتمع ومروقاً من عرفه وتقاليده ، فيسمون فاعله في الدين زنديقاً ، وفي الادب شعوبياً ، وفي العادات والتقاليد معتوهاً أبله .

وهذا الذي يسمونه «الرأي العام» يحفظ لنا انماطاً من الحقائق الماثلة ، كالسردين في علبه ، فنحترم ونقدس كل ما تواطأ السلف على احترامه وتقديسه بلا نظر ولا تأمل ، ويتبع بعضنا بعضاً كقطيع غنم قائلين : قالوا .. فعلوا .. حكموا .. فلنحكم !

الرأي العام غوغاء يتراكضون خلف عدو أقلت منهم يستطيع ان يحولهم معتوه واحد عن وجهتهم — وهم مئات — فيمضون حيث أشار ولا يسألون ولا يفكرون . والعرف الذي يقدسه الناس أشبه بالكظيمة (الترموس) التي تحفظ لي القهوة فاترة حتى الضحى ، أو كالخزانة المثلوجة تصون الطعام حيناً فلا يفسد ولا يدوّد ، فنأكله ولا نبالي بما بقي فيه من غذاء .

لقد عممنا فلنخصص ، فانا لا يعنيني الآن الا الادب ، ولكن ما الحيلة والادب جذر كل عدد من مسألة الكون العظمى ، أو كالمنارة التي يراها المسافر في عرض البحر فيحل على ضوئها شيئاً من لغز ظلمته ...

التعبير جسد الفكرة وقليلاً ما يمثل هذا الجسد الكلامي محاسن الروح كلها . واحياناً تكون تلك الروح – الفكرة – دميمة والالفاظ حسنة كبلهاء جميلة الوجه والجسد . تراها فتزدري لجمال بلا عقل ، يعجبك ولا يستهويك . اما نحن فغرضنا الفكرة الجيدة او الصورة الرائعة التي لا يدل الكلام عليها الا كما تدل الصيغ الرمزية على الاجسام الكيماوية ، فهذه لا يفهمها الا من مارس الكيمياء وعرف مصطلحاتها ، وتلك لا يدركها الا من فهم نفس قائلها . واحيا الزمان الذي قيلت فيه ، وأعدّ لها المكان كما يهيء المخرج الحاذق ما يقتضي مسرحه من آلة .

أما التعابير التي تستعمل بلا كيل ولا ميزان ، ولا تشكيل ولا تغيير ، فما هي إلا مقاييس تخمينية لافكارنا لا تقوّمها تماماً . انها كتلك القوارير الجاهزة Specialité تعالج بها كل الادواء ، ولا تشفي من داء . فهيهات ان تؤدي الجمل كل ما يحسه الشاعر – لا نعني الوزانين – وهذا سبب الغموض في بيان عباقرة الشعراء ، عرباً وعجماً ، حتى عدوا اللغات عاجزة لانها لم تلن لاغراضهم . ولولا هذا الضيق لم يكن التشبيه والاستعارة والكناية .

وكثيراً ما يتعدى كلامنا الطفاف فنقول عن شيء : تافه . غريب . مدهش ! ولو فكرنا لرأينا اننا اكرم من روكفلر حين

يهتز للاحسان فيهب الملايين . وهذا الاسراف والتبذير في التعابير والالفاظ برهان على اننا نفكر بعقول جيراننا ولا نعتقد ما نقول. فكم من مرة نكرر صلاة تعلمناها ، وفكرنا هائم ، فتموج الالفاظ على شفاهنا ولا تلج قرارة أنفسنا . فاذا شئنا خلق ادب جديد فلنخلعن انفسنا التي البستنا اياها الاجيال ، ونفكر بعقل جديد وتعبير حديث .

ان في ذاتنا حقائق مخفية عنا ولا نحاول كشف غطائها ، ولو فعلنا لكانت هي وحدها الادب المنشود . فمعظم تقاويمنا ومقاييسنا الحاضرة ستنزل عن منصبها وتبدو لنا انها من خداع النظر . ولا خوف على الامم من الذين يفكرون تفكيراً شخصياً ، بل الخوف كله من الطرش المتعصبين لكل قديم الذين يتبعهم جمهور من العميان المجاذيب ، ولا يقولون ولا يفكرون الى اين ...

ان المتمسكين بالقديم على علاّته ، هم كاولئك الشيوخ الذين يتناسون عيوب زمانهم ورذائل جيلهم ، ويتأسفون على اخلاقه الفاضلة ذامين الزمن الحاضر . ألم تتأملهم — تأملهم اذا شئت — كيف ينقرون الارض بعصيّهم متأوهين قائلين : دنيا زائلة ... رويداً رويداً يا عم ، انت الزائل وحدك . لماذا لم تقرر هذا قبلما ابتليت بهذا الرعشان ؟!

ان الجحود ، والايمان ، والتمرد على القديم النخر من خواص القلب المخلص والروح النقية . والتجديد في كل شيء لا يرتجى الا من هذه الفئة النادرة . ولولا « المنفعة » التي تهاجم الفنون تحت راية الرأي العام لسار الادب وكل فن بخطى واسعة الى القمة ،

ولكن حب الاشتهار بين (الجماهير) – شهرة تسبق صاحبها الى القبر – يحمل الكاتب ، والشاعر ، والمصور ، وكل فنان الى محاباة الناس والتملق لهم.. وهكذا يظل المجدد مدثراً باكفان المتقدمين، وان غسلها وكواها ليخفي ما علق بها من قبح وصديد .

الناس بلاء الناس ، يقلد بعضهم كالقرود وتعجبهم حركاتهم « السعدانية » فلا يملون تكرارها . خذ الفكر العربي منذ ترعرع ونشأ حتى اليوم ، وأرني عناصر التجديد فيه ، ثم قل لي ماذا قال « العلماء » في كل جديد عند ظهوره ؟ ألم يسموا الشعراء العباسيين مولدين ومحدثين ، ولم يحتجوا بكلامهم ؟ واخيراً اذكرك بما فعله بشّار بابن عمه سيبويه.. وابن الرومي بالأخفش ..

ياحبذا هؤلاء المولدون، باليتهم نموا وكثروا وملأوا الارض، كما قال رب التوراة لمخلوق اليوم السادس.. حقاً انهم مولدون غير معقّمين ، ولو فكر كل عربي بعدهم واعمل رأيه مثلهم لابتدع واستنبط تعابير ومعاني ، الا ان اكثرنا لا يعقلون . نرى وكأننا لا نرى ، يسيطر علينا عقلنا الباطن ثم لا نتذكر شيئاً لا من احلام اليقظة ولا من احلام الليل ، فندونه للعالمين .

ماذا يقول ادباؤنا في شعراء الاندلس ؟ ألا يرون فيهم شعراء طراز خاص ؟ بل ماذا يقولون في موشح لسان الدين بن الخطيب ؟ ألم يقيموه نموذجاً للشعر الاندلسي؟ هلمّ نناقش ،على عجل ،مطلع هذا القصيد الرائع الذي يرويه كل من ألم ولو قليلاً بالأدب العربي وشعره:

جادك الغيث اذا الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس

ماذا ترى ؟ افكر لسان الدين بعقل ومحيط اندلسيين ؟ لماذا

يتمنى الغيث ؟ انه لو افتكر لم يقل هكذا ، لقد شغل عقله تصوّر شاعر الصحراء المتقدة احشاؤه ، فانساه توالي المطر وغزارته في الاندلس ، فنظم كأنه ببثرب او منى ، وقد التصق لسانه بحنكه ، ولا يقع على نقطة ماء يبل بها طرف لسانه .

اتبعني يا أخي ولا تقف ، فسأعرض عليك شريطاً ادبياً تراه كل يوم في سياحتك العقلية ، واعذرني ، اذا قلت لك ، انك قلما فكرت به تفكيراً عميقاً . انني ادعـــوك الى التفكير العميق ، فخفف سيرك ، المفرق خطر ، خطر الموت !

٢

وبعد فلا بد لهذا الانسان العاقل المجنون من أوهام يرتع بها . ان خلص من وهم تعلق بآخر ، كالحرباء في الشجرة الغضة الاشبة ، فالانسان يبني دائماً دنيا جديدة يعيش فيها ، وكلما ظن انه أفلت من وهم ارتمى في حضن آخر ، كمن يضل في مفازة يهماء تكذب فيها العين والاذن ، فكيفما اتجه يستقبل أفقاً جـــديداً ، مدّ العين والبصر .

خذ مثلا من يسمون انفسهم أحرار التفكير Libres penseurs احقاً ما يدعون ؟ لا ، وحياتك يا اخي ، قـــد لا يفكرون مرة واحدة ، بحرية مطلقة ، في حياتهم كلها . انهم يتابعون من استنبط هذا الاسم بلا تفكير . وكما في الدين كذلك في الادب ، فالذين يعدون أنفسهم مجددين يقلدون ولا يدرون . وتلك مصيبة ...

من يخلُ بنفسه ساعة ليناقش الادب العربي كيف صرف عشرة

أجيال تدهشه دعوى شعرائنا الصارخة وتبجحهم الاجش في كل حقبة حتى الساعة ، ويستفظع تختر العقول وجمودها كالجليد . اذا فتح أذنه جيداً سمع قعقعة سلاسل التقليد التي يسحبها شعراؤنا وكتابنا على بلاط الكهوف المظلمة كالحصان المقيد ، ولا يستحي ان يقول: هل كان هؤلاء بلا عقول ، ما خلا نفراً منهم ؟ وهذا النفر انحاول التجديد ساعة في شبابه وابدع بعض صور وخواطر — لا أقول اوحتها اليه ربة الشعر، فهذا تعبير مضغه العالم عشرات الاجيال وقد حان ان يلفظه بعد يقظة وجدانه — عاد في شيخوخته الى سيرة المتقدمين ، كأنما انحطاط قواه أعدّ لبذور التقليد تلك التربة الفاترة فطرّت والتفّت ، واخذت الوراثة تعمل عملها .

فالتقليد داء أدبنا الوبيل ، هو تصلب شرايين قلب الادب العربي . والعتيق هيهات ان يلين بعد ما يبس . فلنفتش اذن عن القلوب الفتية . اننا لهؤلاء نكتب هذه الحمية ، نكتبها للشباب قبل أن تدركهم السن ، فالحمية رأس كل دواء .

ألا ترى كيف نُدعى إلى حفلات الرثاء فنبكي على الموتى بعد الف عام ؟ما أرق قلوبنا وأسخى عيوننا ! لقد صار الشعراء في هذه الايام كالنادبين والنادبات، وكثيراً ما يمزجونهم في مأتم واحد. والغريب العجيب أن تسمع هؤلاء الشعراء يسألون الشمس ألاّ تطلع حزناً على الفقيد الغالي ...

اتفق ان كسفت الشمس يوم موت ابن محمد الرسول العظيم ، فأراد أحدهم أن يعدها أعجوبة ،فقال النبي الكريم : ما كان للشمس أن تنكسف لموت أحد ! فهلا قرأ هذا شعراؤنا وكفوا عن تشييع

الشمس وتكفينها وتحنيطها ... وهي الأم المحبية ، وهلا اثنوا عن تشبيه أحبابهم بها ! فمن يستطيع أن ينظر الى محبوبة كالشمس أو يقربها ، أفلا يحتاج الى نظارتين سوداوين ؟ ثم من يحب وجهاً بضخامة القمر لا يضارعه الا وجه جدنا الفرزدق رحمه الله ؟ هذا تشبيه حلا طريثاً ، أما اليوم فصرنا نقرأه ولا نحس .

قلنا في مقالنا السابق ان اكثر الناس يفكرون بعقول جيرانهم ، والآن نقرر ان معظم شعراء العرب فكروا بعقول نفر قليل ممن تقدموهم ، وبأذهان من قلدوهم من العرب والعجم . فمن لم يفكر بعقل عمر والمتنبي والبهاء فكر بعقل موسه وبودلر ومالرمه وبيرون وغوت وغيرهم .

قال الشاعر العربي :وسقى ضريحك صيّب القطر .

والله ما أدري لماذا هذه السقيا ؟ أليفرخ وينبت ويصير دمنة ترعاها الابل والشاء ؟ أم لترتوي كبده الباردة ؟ أما نحن فأعدنا كلامهم بلا تفكير ، ورددنا ما قالوه أجيالا ، ولم نتساءل لماذا ؟

وقال الناثر : سقى الله قبره ، وبرد ضريحه ، وطيب ثراه .

تلك صورة انتزعها الجاهلي من معتقده ومحيطه ،فهو وليد أرض ملتهبة وربيب خرافات ، فأشفق على من يهوى من الحر والعطش حتى قال طرفة بن العبد :

فدعني أروّي هامتي قبل موتها ستعلم ان متناغداً أينا الصدي ؟

أما نحن فما يجعلنا نقول مثلهم ؟ أدينا : وعندنا الجنة وفيها كل بكر نضير ؟ أبلادنا : وهي غزيرة المياه لا يزورها الحر الا لماماً ، واذا مرت ربيع الخمسين صرنا بحاجة الى الدفء .

ألسنا نقول هذا لأننا نفكر بعقول غيرنا ؟

وقف امرؤ القيس على الاطلال وبكى واستبكى ، فأعجب العرب بهذه الصورة الجديدة، وفتنهم تعبيره الطريف «قيد الاوابد» ثم أخرج صوراً جديدة لم يسبق اليها فخلع عليه الادباء من ثنائهم حللاً ومطارف لم يلبس سليمان يوم عرسه أجمل منها ، فاقتفى أثره الشعراء ووقفوا جميعاً حيث وقف ، حتى أدرك المتنبي ذلك بعد أجيال فقال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم!

أما الناس فلم يقفوا مطيهم على هؤلاء الواقفين على الطلول بعد امرىء القيس، ولا جبروا خاطرهم بكلمة. بيد ان ذلك الازدراء لم يردعهم فظلوا يقفون ويبكون ويملأون الليالي نواحاً وعويلا ، ولا يزالون يلوكون هذه التعابير ويمطونها كما يفعل الصبي بعلكته .

فيا عجباً لمن يفكر بالوقوف على الطلول ، وعنده فنادق الاصطياف التي يجري فيها ما لم يحلم به امرؤ القيس وعمر ... فأين أصحابنا يقفون أمامها، وهي العامرة اليوم بحسن العرب والعجم ، والخالية بعد شهرين من ذلك الجمال الفاتن العابث بالاحلام التي تزن الجبال رزانة ...

وكان الاسلام ،فانفرد الاخطل بوصف الخمرة وفاق من تقدموه وعاصروه ومدح الملوك مدحاً يهزهم ،لانه نجيّهم وجليسهم وحليفهم، فما بالنا نسمع حتى اليوم من هم كيوحنا لا يشربون خمراً ولا مسكراً يحدثوننا بلسان الاخطل وأبي نواس وغيرهما ممن لم يصحوا ساعة في حياتهم حتى قالوا: وما العيش إلا سكرة اثر سكرة... ثم لا

يخجلون أن يمدحوا أو يرثوا من لم يروا لهم صورة وجه ...

وفكر عمر ابن أبي ربيعة بذاته فوصفها وصفاً واقعياً دقيقاً فأعجب الناس بقوله، وشاقهم تعبيره: حيّر الدمع، وماء الشباب، فقلده من أتوا بعده ولا يزالون. ولو درى المقلد إنه دون المقلد مهما سما خياله، واتسع فكره، وطاوعه الكلام، لعدل عن التقليد، ولم يصبه ما أصاب بسمرك داهية الالمان بعد خطاب إنكليزي القاه في لندن، فاستحق ثناء مفكري الانكليز إلا واحداً منهم فانه هزّ يد المستشار قائلاً له: صُنع في جرمانيا، فعرق بسمرك، وضحك السامعون متألمين ...

وأعجب العجب أن يقول شاعر قصيدة مطلعها: بانت سعاد، فيلبس أشرف جبة، ثم يأتي بعده زهاء مائة شاعر يقولون قصائد أولها «بانت سعاد» ولا يلبسون قميصاً، حتى يقوم في آخر الزمان شاعر طريد - احمد فارس الشدياق - ويقول قصيدة استهلها ببانت سعاد فيحمل على بارجة ويكرم أيما إكرام، ولا أدري بل لا أضمن أننا انتهينا من بانت سعاد ...

قال امرؤ القيس: ألا أيها الليل الطويل ألا انجل، فرددوا قوله اجيالا، حتى أدرك ذلك بشار الاعمى فقال:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم

إن في هذا البيت حقيقة لا يعلمها إلا المغرمون، فهم، وحدهم، يعرفون ماذا يفعل الطيف إذا طرق، وعرض بين الاهداب والاحداق... وكأن هذه الفكرة لم ترق لابن الفارض بعد أجيال فأخذ يتأوه ويتململ على فراشه هاتفاً:

يا ليـــل مالك أولٌ يرجى ولا للشوق آخرْ

وقال الاخطل : ما زال في ماردين الزيت يعتصر ، فتابعـــه الكتاب والشعراء وقالوا : ما غرّد القمريّ ، وما كرّ الجديدان ، وما اختلف الملوان ، وما ذر شارق ولاح بارق حتى وما بلّ بحر صوفة ... وهكذا دواليك ، وان طلبت التتمة وجدتها عند الهمذاني صاحب كتاب الالفاظ .

وانتشر القرصان في بحور الشعر ، وكثر صعاليك الادب كثرة راعبة فغزا المتأخرون المتقدمين حتى تناولوا الفكرة الواحـــدة وصبوها بألف قالب وقالب ، كأن الغزو سنة عربية لا محيد عنها حتى في الادب . وهذا دليل على ان الاحفاد لا يفكرون فقـالوا الشعر في غرض واحد ، ولم يختلفوا في التعبير إلا قليلا . ان هذه القوالب لا تزال مصفوفـة في دواوينهم كالتي يصنعها الفاخوري لجراره وأباريقه وأكوازه وصحونه ، فاذا لم يقم من يحطمها ويبتدع أنماطاً جديدة تأخذها العين فالادب العربي لا يتجه اتجاهاً مستقيماً الى التجديد .

- ٣ -

وصم متمشرق العرب بضؤولة خيالهم فنحا نحوه كل متمشرق ومستعرب ، ولم يفكروا ان العربي البدوي رحالة لا يقر له قرار ، فهو لا يثبت في مكان ليطيل التـــأمل ، أنعامه سائرة وهو سائر وراءها ، لا يستسلم لعقلة الباطن لتتجلى له الرؤى فهو حسي واقعي واذا استمرأ المرعى واستقر بمكان الى حـين ، فهو كأخيه الذئب

ينام باحدى مقلتيه ويتقي باخرى المنايا ...

ويعيبون عليه ضحل مباحثه كانهم يجهلون ان الراعي لا يحلق الارض حلقاً ، ولا يقتلع الانبتة من جذورها ، فشأن العربي في بيانه شأنه مع قطعانه ، وهو كالنحلة تلثم الزهرة ولا تعضها .

ذاك شأن القدماء ، أما الجدد فترسموا خطى الاولين قائلين : انّا وجدنا اباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون . لم يخرجوا عن دائرة رسمها لهم الغابرون لاعتدادهم بانفسهم وتقديسهم السلف . أراحهم الاسلام من تأليه اللات والعزى ، ولم يرحهم من تقديس شعرائهم وتنزيههم حتى العصمة .

قال بول كلوديل في معرض كلامه عن هيغو : لا شيء يميت الامم كالاستنقاع في بؤرة التعفن والفساد ، وكالاطمئنان الى الراحة والارتضاء بالدون ، وكترك الواجب والتردد في التضحية . وهذا ما أصاب العرب في الادب فقصروا في مضاميره .

أما هؤلاء المتمشرقون ، فلا اراهم يفهمون لباب الادب العربي فهماً صحيحاً ، بل يفهمون تاريخه . وتفهّم تاريخ الادب غير تمحيص نصوصه . فترجموا الشعر العربي الى لغتهم كما فهموه ، ونظروا الى ما قال الشاعر لا الى كيف قال ، ففاتهم جمال التعبير ولم يأبهوا للموسيقى ، كأنما الشعر يقوّم بمعناه دون مبناه ، فجاءت تراجمهم متشابهة الصور متماثلة لانهم فهموها فهماً سطحياً .

لا يذكرني بهؤلاء المتمشرقين غير اخواتهم المرسلين الاجانب الذين يعظون في كنائسنا بروطانة تضحك الثكلى فوق النعش ، وتفقد الهيكل مهابته والشعب خشوعه ، يظنون ان

الوعظ ما يفعلون فتجيء عظتهم ملهاة ومسلاة ...

فما قولك في الذين يزعمون ان الشعر الرفيع يقوّم بالترجمة ، ويجاريهم في زعمهم فريق منا ... ؟ فالريحاني أدلّ بهذا المذهب في كتيبه « انتم الشعراء » وتمثل الامثال .

لا أرى الشعر يقاس بالترجمة – نعني الشعر لا النظم – وكل قطعة فنية في كل ادب تذهب بروعتها ترجمتها . خذ الشعر الجاهلي وترجم منه ما شئت ثم قل لي ماذا أبقت منه الترجمة ؟ وهذه النوراة ألم تفقدها الترجمة شيئاً بل أشياء من روعتها الشعرية ؟..

فلأتولّ عنك الامر . هاك ، مثلا ، ترجمة كليمان هيار لشعر عنترة ، فهو يقول ان عنترة هو القائل « اننا ندور كما تدور الرحى على قطبها ، بينما سيوفنا تنفتت على رؤوس محاربينا » .

أعرفت أي بيت ترجم من شعر عنترة ؟ وهل بقي شيء يقال له شعر ؟

خذ مثلاً آخر ، ترجمه نجيب الحداد لقطعة هيغو (واترلو) . راجعها في منتخباته ، وقل لي أين الشعر فيها ؟

قال شلي : كل شعر سام لا يجد ، قد نزيح ستاراً اثر ستار ولا نصل إلى جماله الحقيقي ، فماذا يبقى من الجمال الذي يعنيه الشاعر إذا ترجم هذا الشعر ؟ وقال أيضاً : الشعر في رائحة الوردة ولونها لا في نسيج العناصر التي تتألف منها . فلغة الشعراء تظهر دائماً بلون خاص ، وموسيقى لها صداها ، وبدونهما لا تكون شعراً ، فترجمة الشعر ضرب من العبث ، ومن يحاول ترجمة شاعر إلى غير لغته كان كمن يلقي بنفسجة في بوتقة ليكشف اسرار

لونها ورائحتها » .

قال فالري : الناثر يمشي مشياً ، والشاعر يرقص رقصاً ، وهل يكون الرقص بلا وزن ؟ وأين الايقاع الذي ينفق الشاعر ساعات وشهوراً لاحداثه إذا ترجمتَ شعره إلى غير لغته ؟

يذكرني هذا القول بـ «ولز» عندما كتب كتاباً يعارض فيه سفر ايوب ، فقال بلسان بطل روايته — وهو أب مات ولده ، فعزاه الناس بخلود روحه في السماء — فاجابهم : أنا أحببت روحه لا جسمه ...

فاذا كان الشعر يقاس بالترجمة فما هو الذي نسميه فناً ؟ الفكرة التي يرمي اليها التمثال هي الفن ، أم ما في التمثال من حياة ؟ ان تكن الفكرة فلنقم نصباً كما كان يفعل العرب ونسميه هبل والعزّى ، أو فلنحفر فكرتنا في حجر وندعو الناس إلى الاعجاب بها كفنّ . وإذا كان هذا فأي فرق بين تمثال يحفره رودين ، وبين ما يركمه الصبيان من الثلج في شباط ليخلقوا منه تمثالاً ..؟

وقياساً على هذا تغني زجاجة من الورد عن جنينة ضاحكة ، وألفيّة من ماء الزهر خير من مشهد بستان منور في صيداء ، فلا تعود تشتاق ايار نفوس الورى ... ولكن هكذا قال بعض المتمشرقين فلنقل مثلهم ، فلنجترّ ما قالوا ... هكذا حكموا . فلنحكم !

قلنا ان المعنى روح والتعبير جسد ، وهذه الكلمة قالها العتابي منذ الف عام وازيد ، ولكن الهمذاني وغيره من مصنّفي كتب الالفاظ يريدون أن تكون الاجساد كلها متماثلة ، ولو كان ذلك لملّ الناس بعضهم وذهب ما نسميه « جمالاً » ، فما قولك ، أراحك

الله بمن يفكرون بعقول جيرانهم ، بوجوه متشابهة تروح وتجيء في مكان واحد ؟؟

ان هذا ما أصاب أدبنا المسكين فكثرت الجرّة فيه وصار كزاً . تعابير ككسر يابسة في جراب متكرش ، وانشاء متورم كلحم نفخه الجزار ، وتقليد طويل العمر فلم يستنبط بعد المتقدمين تعبيراً جديداً الا شعراء قليلون جداً وأقل منهم استنباطهم . ما أشبههم بالنحاة الذين يصنفون كتب النحو ولا يزالون يمثلون بـ « عندي رطل زيتاً » ، والزيت ملء الارض في هذه الديار ...

فلو قرأت احمد شوقي ، مثلا ، رأيت عنده تعابير جديدة ولكن أكثرها منبوش من أضرحة القدماء . فهو كالذي يعثر عليه الأثريون في مدافن جبيل والأقصر ، وما أحدث شوقي بضعة تعابير حتى تناقلها عنه شعراء اليوم مثل : رفرف الخلد ، وجارة الوادي الخ .

الشعر موسيقى قبل أي شيء آخر ، ولهذه الموسيقى معنى ، واذا فقدته فهي ألحان مشوشة لا تطرب ولا تهز . وكما تتجدد الموسيقى وتتنوع هكذا يجب ان يتطور الشعر ، ولن يدرك هذا الا بخلق تعابير جديدة لها رنة وصدى ووقع طيب في النفس ، فقد مللنا تعابير الاقدمين كما مللنا وتمل كل لحن يكرر ويعاد كل يوم . فالالتجاء الى هذه التعابير الهرمة يقتل المعاني في أدبنا ويلهينا عن التفكير .

فالشاعر كيماوي الفاظه الاجسام يؤلف منها مخلوقات جديدة ، وهو كالنباتي الذي يخرج من نباتين نباتاً ثالثاً له خواصها ولكنه غيرهما .

وكما يطعّم النباتي شجرة برية فتصير بستانية ، هكذا يفعل الشاعر في الالفاظ حين يركبها تركيباً فنياً . اريد أن لا يُفهم من هذا اننا ندعو الى نبذ القديم وتركه بجملته . اننا ندعو الى ترك تعابير عمت حتى خمت. ندعو الى أدب جديد ليس كما تخرجه لنا الطباعة من رسوم رافائيل وميكالنج ، وليس كالخطوط التي يرسمها الصبيان على الحيطان، فمثل هذا الادب يجب أن يموت لانه لايكون من مواليد الحياة والسعادة . اننا ندعو الى أدب له جمال الروح والجسد ، فالمعاني هي الخطوط أما التعابير فهي الالوان .

لم ينبذ القدماء ابن الرومي الا لجهومة الفاظه وابتذال تركيبه وتعبيره. وهذا خير معبر لنا عن ذوقهم الفني ، أما بعض أدباء اليوم فلم يكرموا ابن الرومي هذا التكريم الضخم الا لابتلائهم ببدائه .

ولم تكن الجرة في التعابير فقط بل اجتر العرب المعاني فما زالت الحكمة تتناقل من أبي العتاهية الى الزهاوي، وما زالت الاغراض هي هي ، والتعبير هو هو . فلو تصفحت ما قيل في حفلة (الفردوسي) وحفلة (المتنبي) وما قيل في (وديع عقل) يوم موته ، وقابلته بما قاله هيغو في تيوفيل غوتيه ، ظهر لك أن تصيدنا تعابير الاقدمين ومعانيهم يقتل شعرنا الحديث .

وأقوى مشجع على هذا الشعر المخيض كيلُ الصحف الثناء لهؤلاء المجترين . فكل حفلة عند الصحف شائقة ، وكل قصيدة عصماء رنانة أو قطعة من الخلود ، وكل خطبة حجاجية طارقية . لا أكتم أنني سررت جداً بما قرأت من فصول نقد لحفلة المتنبي . وأعجبتني مقابلة الصحافة كلاً بما يستاهل، فليت الكتاب الذين يعنيهم هذا

الامر يدققون اكثر ، ولا يرحمون هؤلاء الذين يركبون المنابر ليسمعوا الناس مبتذل القول .

وما زال الشاعر العربي يفكر بالتعبير الذي تقضى شبابه وذهب وقته فيهات أن يبدع . وما زال يتخيل اننا نقيسه بالمتقدمين لا يخرج من أقبيتهم السوداء ...

قال الدكتور غرمانيوس المتمشرق المجري : ان الشعر العربي في ادواره كافة يتجه اتجاهاً واحداً نحو الافراط في العناية بالالفاظ اذ يتعمد الشاعر الغوص في محيط اللغة حتى يختار الالفاظ المختارة . وفي سبيل هذه العناية تضيع من بين يديه الغايات العاطفية والفكرية التي من أجلها نظم القصيدة ، فكأن الشاعر يرى ان القصيدة ليست سوى طاقة من الالفاظ البارزة الجميلة » .

لا يا دكتور ، اننا نشكو قلة الابداع والتفتيش في محيط اللغة ، اننا نشتكي ادبنا من تعابير بعينها يجترها الشعراء . فلو قرأت شعرنا قراءة متأنٍ لرأيت أن شعراءنا لا يغوصون في محيط اللغة كما توهمت ، بل يغوص المتأخر في بحر المتقدم حتى جاءت التعابير والالفاظ هي هي . وهذا الذي جعل الشعر العربي كريماً مقيتاً . ما أشبه شعراءنا وكتابنا بولد يأخذ عن أبيه تعابيره ونبراته ومعانيه فلا ترى الانسانية في هذا المخلوق إنساناً جديداً . ان تزمت نقاد العرب حصر الادباء في نطاق ضيق من التعبير فصار الأدب إلى ما صار اليه .

والجمهور أو الرأي العام أضخم حجر عثرة في سبيل تقدم الفنون كلها ، فهو الذي يخلق الجمود في كل شيء وخصوصاً في الأدب

والدين . فاللغويون يقفلون الباب بوجه اللسان ، واللاهوتيون يسدونه بوجه العقل ، ويحرمون التفكير ويتهجمون على أصحابه ، كما فعل احد الآباء في رده علينا بالبشير . ولا بأس عليهم ان لا يفتروا مدافعين عن الله كأنه الله من حزبهم ، كما قال غوبلز ، أما الرأي العام فهو عبد الفريقين .

قال جورج سورل : قد كان غضب باغي Péguy شديداً عندما ظهر كتاب روستان Rostand وتناولته الصحافة بالاطراء وقامت الضجة حوله ، وتغاضت عن كتاب باغي « جان درك » الذي ظهر في تلك الفترة عينها . اعتقد باغي انه مضام مظلوم ، فأفهمته أن الفن الحقيقي لا يمكن ان يدركه الناس كما يدركون الانتاج العادي ، وانه يجب ان تنقضي عدة سنين على الفنان ليعرف قدره ، فدقة الفن الفنانة لا تفهم فوراً ، وكل غرابة تدهش وتنبذ بادىء بدء .

ثم يعقب سورل على هذا الكلام قائلاً : أما باغي فلم يجب ، والسكوت دليل الامتعاض . ويقول سورل ان « جان درك » باغي طرفة فنية الخ ...

فاذا كان التجديد يسبب لصاحبه غضباً وسخطاً في أمة كادت تبلغ الاوج الفني الادبي ، افلا نعذر العربي اذا خشي التجديد ولم يجرؤ عليه ، وارضى الجمهور كروستان ؟!

وهل اكثر خصوم المتنبي غير جنوحه الى التجديد ، فشقه طريقاً جديداً اكثر من المعجبين به — اللهم من الذين لا يقدسون القديم ، وما اقلهم — ولا يرون في الشعر الجاهلي ما نراه نحن في قداسة

سيدنا البابا من عصمة وتنزيه ..

*

والآن قد حان ان نمر مرة عجلى بما يضغه الكتاب والشعراء من تعابير ، وما يجترونه من جمل ، وما تتلقفه اقلامهم من الفاظ كأنها كرة وضعت لصوالجة ...

يقولون: بعد الثريا عن الثرى . قالها عربي مولع بالجناس فحلّت يوم مولدها . ويقولون: مزجر الكلب ، قالوها يوم لم تكن الكلاب تجلس على مقاعد الرجال وفي احضان السيدات وتنام بين اذرعهن ... وقالوا : لله دره ، ولفظ كالدر ، وقصيدة عصماء ، ونفثة مصدور ، وكأن على رؤوسهم الطير ، وكمن افواه القرب ، وكلفني عرق القربة ، وشاعر فحل ، وافتض ابكار المعاني ، وتقليم الاظافر ، وذر قرن الغزالة ، وارخت حبالها الذهبية الخ ..

اهكذا يكون البحث في محيط اللغة يا دكتور غرمانيوس ! لا والله ، فلو كانوا يبحثون لما حلت اللفظة الواحدة عندهم محل عشرين ، ولو كان التنقيب الذي زعمت لما كانت هذه الرخاوة في منثورنا ومنظومنا . ان الفاظ العربي اليوم كعباءته ، فهي لا تصلح لواحد ، وتصلح لكل منا على وجه الارض ، هي ثوب يشمله وان لم تفصل لتلبسه .

فلنسأل الدكتور المتمشرق — ان هذه الالقاب الضخمة ترعب — ما يقول في تقليم الاظافر ، وقد صار موضة يدين بها حتى بعض الكهنة العصريين ... وعندنا ، بعد ، من يستعمل هذا التعبير كأننا في قلب الصحراء ، زمن تأبط شراً ، والشنفرى ، وكل

وما رأيه بعرق القربة ، والمياه توزع على البيوت وتكاد تخر في كل غرفة ..؟! بل ما رأي جنابه بافتضاض ابكار المعاني، البست من ملائمات الشاعر الفحل ... كم واحداً يفكر بما يكتب عند ما يخطها على الورق ؟..

بل ما رأي القراء بالزمخشري القائل : فلان فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل ، انني اعجب كيف لم يهتـــد اليها الكتاب ليستعملوها في وصف الشعراء والفحول الذين يفتضون ابكار المعاني.

ولله دره ، أي در نعني ساعة نقولها متعجبين ولا نباق عندنا !؟

وما تقول بنفثة مصدور ، وكثيراً ما يستعملونهـــا ؟ اترتاح النفس كثيراً الى رؤية البصاق مصوراً على الورق ؟ اشهد ان نفسي كادت تجيش عندما قرأت مثل هـذه العبارة لولي الدين يكن : « عينان كأنهما بصقتان » وأسفت ان يستعمل اديب متأنق مثـل هذا التعبير .

وافواه القرب ما يذكرنا بها وعندنا المبازيب والشلالات ؟!

وطلوع الشمس أنظل نعبر عنـه بذر قرن الغزالة ، وارخت حبالها الذهبية ؟.. فاين الذهب لنذكره بعد ، اما غرق مع ذكاء الشاعر فياض ؟..

وما رأيك بشاعر كالبارودي يصرخ :

هل من فتى ينشد قلبي معي بين خدور العين فالاجرع

وعنده مدينة تضيع فيها الجمـــال المحملة هشيم برسيم وأرز ، ومدنية تستغوي الحبيس . وما تقول بماء وجرة يذكره ابن عاصي

حماه – الفارض – القاعد على ضفاف النيل ؟ ...

حقاً يا كلوديل ان التعفن آفة الفكر البشري ، وما اكثر المجترين ...

– ٤ –

اما الصور التي اجتروها في قبلولة الفكر العربي، وقبلولة الفكر اجيال واعقاب ، فنظرة الى أي ديوان شئت تريكها متكئة على الارائك والصفف ... شبه بدويّ النظرة بالسهم ، والحاجب بالقوس ، فاجتر تشبيهه كل من قال شعراً من المتبدين والمتحضرين . لقد شبه ذاك البدوي بما لديه من آلة خَبَرَ آلام وقعها ونزعها ، فما للحضري يرددها حتى اليوم ولا قوس عنده ولا سهم !!

وشبه آخر القد بالغصن ، والاصابع بالعناب ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد الخ .. فصارت قدود الحسان جنات تجري من تحتها الانهار ... وشبه أحدهم صدغ الحبيب بالعقرب فصرنا لا نرى الا عقارب بصورها المتأخرون والمتقدمون تارة شائلة أذنابها وطوراً مرتخية ...

ان زعم المتقدمين « من سرق واسترق فقد استحق » مهد لهذه الجرة ووطأ لها فقل التفكير وابتذل التعبير . واذا شئت ان ترى فاستعرض كتب الادب كالمثل السائر والصناعتين والوساطة وغيرها . لسنا ننكر على بشار اجادته حين قال :

وكنا اذا الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

فقد برّ الفرزدق بصورة فيها كل الفن واللباقة والتنوق ،

ولكننا نلوم ابا نواس في تضمينه بيت بشار وافساده إياه. قال بشار:

يا رحمة الله حلي في مساكننا حسبي برائحة الفردوس من فيك

وقال ابو نواس:

يا رحمة الله حلي في مساكننا وجاورينا، فدتك النفس من جار

ماذا قال ابو نواس؟ الا ترى انه لم يفكر، بل خطر على باله مثل النجاة: يا جارتا ما انت جارة، وعنت له التفدية، وما اشيع هذه الكذبة عند العرب، فقال: فدتك النفس من جار، وكمل بيته. وابو نواس شاعر إمام، قال الجاحظ في شعره: هذا شعر لو نقر لطن. ارأيت عمل الرواسم في الادب العربي؟!

قال النقاد: ان بشاراً شاعر لا صبر له ولا جلد. ما صدقوا فيما زعموا فبشار جليد في الشعر الخالد، ولكنه كان مهزالا ماجناً فترك كل شيء في شعره على علاتـــه، اللهم في الشعر الذي نسميه شعر الساعة، يقوله الشاعر ارضاء لمن يُبرمونه، اما فيما عدا هذا فلبشار شخصية أبرز من الشمس وانمّ من الريح ولا تجدهـــا في شعر شاعر عربي.

قال طرفة الجاهلي: فدعني أروي هامتي الخ، فقام شاعر بعد اجيال يقول:

فيارب ان اهلك ولم ترو هامتي بليلى امت لا قبر اعطش من قبري

كأنما فتنت هذه الصورة شاعرنا فنسي دينه الحنيف مهدم خرافات وعقائد الجاهلية.

وقال ديك الجن الحمصي يجتر في احدى قيلولاته:

وعقدتُ بين قضيب بان اهيف وكثيب رمل عقدة الزنار

فصرنا نرى في قدود الاحباب اغصاناً ، وفي الاكفال كثبانا . شكل غريب مدهش تصوره ديك الجن فمثل لنا حبيبه كالنملة او الزنبور ... ان كثيب هذا الشاعر المأفون يغلي ثمنه اليوم الاستعمار الصهيوني ، ولا يحي مواته الا خبير بزراعة الليمون والموز ...

وبعد فما اصرح الاخطل القائل : نحن معاشر الشعراء اسرق من الصاغة . لقد صدق التغلبي ، وان يسرق فقد سرق اخ له من قبل ، هو الاعشى ، كلاهما سرق صورة النابغة ، ولكن الاخطل اخذها بشحمها ولحمها فقال : وما الفرات اذا جاشت حوالبه الخ .

ان هذا التقليد عاق الفكر العربي عن اتجاهه ، فلم يتجه شعراؤنا في تفكيرهم الى سمت معين ، ولم ينشدوا مثلاً اعلى ولا افتتحوا آفاقاً جديدة في تفكيرهم وتعبيرهم . تقرأ شعر متأخرهم فلا يصح لك منه شيء يقال له شعر لم يقل مثله ، وترى التضاد في شعرهم جميعاً . واليك مثلاً أكبرهم شيخ المعرة ، فبينا هو يقررنا على قضية اذا هو يضادها حين تراءت له اخرى احب ان يتبناها ، فكأنما هو ينظم ارجوزة في النحو والصرف كابن مالك ، ولذلك تظهر شخصية شعرائنا كتنين رؤيا يوحنا بسبعة رؤوس ، ولا يفهم من هذا ان المعري إمّعة بل انه كالراديو تتغلب طفيليات احياناً على ما يذيع على الملأ .

خذ مثلا بشاراً وعمر وابا نواس والمتنبي وابن الرومي وغيرهم فانك تراهم مجددين ومقلدين في وقت واحد . اذكر لك منهم ابن الرومي ، اما انت فتقص من شئت ، فابن الرومي مجدد ومقلد في قصيدة واحدة ، وما تلك إلا قصيدة «وحيد» المغنية التي يعجب بها

ادباء عصرنا ، ففيها يشبه الرومي قدّ وحيد بالغصن وجيدها ومقلتها بالظبي ، وخدها بالنار ، وريقها بالبرد ، ثم يراها ظبية وقمرية ، وينعت الحاظها بالضعف ولا ينسى عقد السحر التي خبرنا عمر في « داليته » ان هنداً التي لا تنجز ما تعد نفثتها له ، وهلم جرا . اما حين وصفها فأرانا «وحيد» راقصة نكاد نصفق لها اليوم ، ونعطيها نصف ملكنا كهيرودوس .

واذكر لك شاعراً آخر من منافسي المتنبي وهو البيغاء — والبيغاء والسريّ الرفاء لو لم يظهرا مع المتنبي لكاناه — فالبيغاء يصف الربيع ويذكر نرجس العيون ، وشمس العقار ، كما فعل المتقدمون ويفعل المتأخرون والمعاصرون .

ومن كتابنا الاحياء خذ مثلا العقاد فانه يكتب كتاباً ضخماً في ابن الرومي سبقه الى موضوعه المازني ، ولم يزد العقاد عليه إلا دراسة عصر ابن الرومي ، وهي بالتاريخ اشبه منها بالدراسة الادبية الفنية ، دراسة واسعة غير عميقة ، كادب طه حسين الذي عرفه العقاد في هلال يوليو ١٩٣٥ .

ثم حاول العقاد ان يجدد في الشعر فنظم ما سماه غزلا فلسفياً — ما أقل عقل الحبيب المتفلسف — وكرّ كرة اخرى فنظم لنا قصيدة ختنى ، لا هي فكاهة ولا هي جد ، بل هي نظم قنفذي ككل شعر عقادنا الجليل ، واليك مطلعها :

البيلا البيلا البيلا ما أحلى (سلب) البيلا

وان شئتها كلها فارجع الى هدية الكروان (ص١٣٩) . نشدتك الله ان تقرأ هذه الرائعة ، فالبيلا هي البيرة ، وسلب هي شُرب .

وتغرّب العقـاد فنظم في الشيطان الذي لم يبق شاعر غربي ، قديم او جديد الا قلد شاعر عوص – ايوب – وقال فيه شعراً ، – تلقيت مجموعة شعرية موضوعها لوسيفورس – فجاءت قصيـدة العقاد التي سماها طه حسين ملحمة ، من الشعر العقادي البارد الذي يقول خيراً منه طالب موهوب متمرن ، شعر لا يرنّ ولا يطنّ ، اخرس يتوكأ على عصوين ويتهادى بين اثنين – عبد الرحمن صدقي وطه حسين – فانى له يرقص رقصاً كما يريد الشعر بول فاليري ، وصاحب هـــذا النظم ، « الفقير » الى ربة الشعر ، كما يوقع المتواضعون من رجال الدين يحدثك دائماً عن الفن ويتغنى بجماله ، رحم الله مجنون ليلى فقد مات ولما يبلغ وطرا .

فلو تكون الاعمال بالنيات في الشعر ايضاً لوقع أجر هـــذا الفاضل علينا وجعلناه فوق سدرة المنتهى حيث وضع بشاره الخوري احمد شوقي ، ولكن الفن لا رحمة ولا هوادة فيه . الفن غير الدين.

ويدهشني ان من ينظم مثل هذه السخافة التي يسميها طه شعراً يقول بمعرض كلامه عن الادب العالمي (صوت الاحرار ٩ ك ١ ، ١٩٣٣): « ربما كان لنا الآن أدب صالح للذيوع في لغات العالم لو تيسرت له وسائل الذيوع » . طبعاً لا يعني العقاد غير شعره ، لان شوقياً في نظر العقاد كالعقاد في نظرنا او اقل .

فأي وسائل ذيوع يرتجي العقـاد غير الترجمة ؟ اما قال صالح جودت في مجلة الامام (١ دسمبر ١٩٣٤) (رحنا نعرض شعره – أي العقاد – للترجمـــة الى الافرنسية والانجليزية ، وندفع بعض الادباء لترجمته الى اليونانية » .

حاشية : اخال او أزعم ، كما يقول طه ، ان بغية العقاد من ترجمة شعره الى اليونانية ايضاً أن تتيسر للناس المقابلة بين شعره وشعر هوميروس ... اذكر جيداً انني قرأت للعقاد كلمة في الالياذة حين ترجمت ، فرأى حضرته شعر هوميروس يكاد يكون هراء في هذا العصر . قد يصح هذا الكلام بشعر هوميروس اذا قارناه بشعر العقاد ...

ثم ماذا صار يا صالح ؟ الم يصر شعر العقاد عالمياً ؟ حقاً ان قصيدة البيلا والغزل الفلسفي وقصيدة الشيطان التي زعم لنا طه انه قرأها وقرأها وقرأها ... لمن روائع الادب العالمي ، ومثلها كل ما نظمه العقاد ببراعته وكتبه بذبوته .

وهذا ايليا ابي ماضي يحاول التجديد ، ومومياءات الاقدمين تغويه بمظاهر لا تعد ، كأنها الشياطين في اسطورة القديس انطونيوس (راجع رواية فلوبير) فيرصفها بين عذاراه الطريئة ، فتبدو كحصيات فسيفساء في جدار جل ما فيه حديث . خذ مثلا قصيدته التي يختم كل مقطع منها بـ «لم أجد أحداً» ، ابحث لتعلم من أي شاعر قديم استعار هذه « اللازمة » .

ثم خذ قصيدة اخرى سينية عنونت بهذا الشطر «وبلادنا متروكة للناس» فتراه فيها يشبه كامريء القيس (بمسابح الرهبان في الاغلاس) كأنه نسي ان زماناً كانت فيه للرهبان مسابيح تضاء في الاغلاس قد انقضى عهده .. ثم لا يحجم ايليا ان ينفحنا بالكذبذب ، ويأخذ تعبير الشاعر الاموي عينه « حز مواسي » ليسد به ثلمة قافية في القرن العشرين .

ويستعمل هذا المثل ، محشوراً ، فيقول : وضربت اخماسي الى اسداسي . ومحصول كلامه دق الكف بالكف للتحسر ، وليس هذا مفاد المثل العربي : ضربت اخماساً الى اسداس ، الا اذا كانت بد من يقوله سداسية .

وفي قصيدته « الفراشة » يخاطبها قائلاً :

وكلما نورت في السفح زنبقة حثثت للسفح من شوق مطاياك

ذكرني تعبير ابي ماضي هذا بقول المنفلوطي لفرح انطون ، حين عاد من اميركا الى مصر او حين ذهب الى اميركا - لا اذكر جيداً :

ان كنت لا تبغي لنفسك راحة فأرح مطيك والدنى وبنيها

فعقّب فرح المجدد على بيت المنفلوطي هذا بقوله : اننا ركبنا الباخرة فلانة فلا خيل ولا نباق .

فنصيحتي الادبية الى الشاعر ابي ماضي ان ينقي شعره من هذا الزؤان ، من هذه التعابير البائخة ، ويبدع تعابير جديدة تليق بشعره العصري ، فالشعر موسيقى اولا ، والنغم المبتذل لا يهز النفوس .

ثم ماقولك بالزهاوي - اراحه الله في ضريحه من منكر ونكير - القائل في فردوسيته التي يأتي ذكرها مع الفردوسيات والفردوسيين :

ولقد سرني كما سر غيري ما بها من نزاهة الاحكام

زرت بالامس الروض امتع عيني واذا الورد فيه ذو أكمام

أي فرق بين هذا الكلام وبين محليات الصحف ؟ فهل تقول بعد هذا : من قال السماء فوقنا ، والارض تحتنا ماذا قال ؟ ... ولكن كل كلام يستقيم وزنه هو الشعر عند الزهاوي والعقاد فيها

بيضتا دجاجة واحدة في النظم ، وان رجح الزهاوي وشال العقاد في الميزان . فسبحان مقسم الارزاق وواهب القرائح !

- ٥ -

وهذا اخونا بشاره الخوري يقول قصيدة وطنية ، مطلعها : عش عزيزاً او مت بها مستقلاً . فيذكرنا بالمتنبي القائل : عش عزيزاً او مت وانت كريم . ثم افتتح قصيدة اخرى بقوله :

جعلت رسولي نسيم الصباح اليك وطرسي خدود الملاح

مليح وأي مليح هذا الطرس يقده صاحبنا من خدود الملاح ليصح فيه قول المثل : من يقص من جلد غيره يوسع . اما رسوله نسيم الصباح فيذكرنا بقول « الميجانا » : يا ريح ودّي للحبيب سلامنا . وقد يكون شاعر الميجانا أروع وأرق .

وفي هذه القصيدة التي بناها شاعرنا على الحاء لا لشيء إلا لأن المنظومة له اسمه صلاح ، يأخذ بشارة قول بشار :

اذا ايقظتك صروف العدى فنبّه لها عمراً ثم نم

فيقول :

اذا شاقك الشعر حر النجار فنبّه له العربي القحاح

قابل ايها القاريء العزيز ، بين القولين ، تجدهما متقاربين كالسميّين ، أي بشاره وبشار ، ثم قس انت على ما قيل ما لم يقل ، ولا تكلفني ، وحدي ، الاستقراء .

ونظمَ الشاعر الذي لا يجحد فضله علىّ الشعر العربي ، فقد اجرى في عروقه دماً جديداً . وهذا الشاعر هو خليل مطران ، قال شعراً ستصغي اليه الاجيال مهما عتق ، ولكنه حين شاء ان

يرثي حافظ ابراهيم قال :

عظّم الله فيك أجر الضاد وبنيهـــا من حاضر او باد

وشكر الله سعيك يا خليل، قف حدّ الحيط حتى نعزيك بالفقيد العزيز . اليس هذا من الاجترار يا صاحبي . ان في قصيدتك الطويلة ابياتاً من الشعر ، ولكنك اردت ان تطولها فقعدت تجترّ كالعنز في القيلولة .

والآن انفض يدي من المجترين ، ولا اقسو على مطران لانه كريم لا يرد طالباً ، فهو على دين بشار في هذا ، يرضيهم كما ارضى المرعّث ربابة ربة البيت ليأكل البيض طازجاً ...ثم ان عملاً آخر يدعوني ، ولهذا اترك الطريق مفتوحاً لمن يجيء بعـدي فينقب عن المجترين . فهذا الاتكال على القدماء وهذا الغزو الادبي ، وهـــذا الاجترار ، بل هذا الاستنقاع كالبوشرية قبل ان شُجّرت ، وهذه الضفادع التي تنق فيها هي التي جعلت هذا الجمود في ادبنا العربي . وقد ادرك ذلك احدهم فقال في احدهم : لو قيل لكل كلمـــة ارجعي الى صاحبك لما بقي له واحدة .

وآفة رواسم الاقدمين تنتشر اليوم في شعراء الجيل الطالع – الذين يسمون رمزيين – قال جبران : اشباح الليل ، لانه كان يسهر الليل وينام النهار ، فسمعنا كثيرين يقولونها مع انهم كرسل المسيح لم يسهروا معه ليلة واحدة ... وخلق الشاعر سعيد عقـــل صوراً وتعابير فاغار عليهـــا الذين استحلوها حتى عجّ بهـــا شعر الناشئين والبالغين فأفسدوا الطريقة وجنوا عليها وعلى صاحبها. ونبش طه حسين تعابير من خزائن العرب مثل : انا زعيم، وغيرها،

وألح علينا في استعمالها الحاح الذباب على قاضي الجاحظ ، ثم كرر وقال : مليح ومليح ومليح فقاموا ينحون نحوه .

فلندع للرجل تعابيره يا بشر ، فكروا وانبشوا مثله فالميراث واسع ... رحم الله الاجداد كم أحيوا ، وما أكسل الأحفاد الذين لا يرجعون الى دفاتر جدودهم العتيقة ...

ان قلة التفكير تولد الاتباع الاعمى . قال طه حسين ، كما قال الشدياق منذ قرن: ان تكلف السجع صناعة ممقوتة فتابعه الكثيرون بلا تبصر حتى أصبحوا يرون كل سجع شنيعاً ، وكل «بديع» رديئاً ، ولم يقم من يفكر تفكيراً معاكساً غير زكي مبارك فكتب كتابه القيم : النثر الفني » يعارض المتمشرقين وطه حسين الذي تابعهم ويتابعهم دائماً .

وغير بدع ان تجد الاجترار في احدى صور الاقدمين ، او في معنى من معانيهم يعالجه العشرات منهم ، ويرددونه في كير نظمهم ، ولكن الغريب العجيب أن يجتر شاعر معنى واحداً من معانيه فيقوله مراراً كما فعل شوقي في بيته : وانما الامم الاخلاق الخ ، حتى يقول الرافعي في نقد صديقه شوقي بعد مونه : ومن عيوبه التكرار ، ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية ...

وقصارى الكلام ان الطريق التي نسلكها لا تؤدي بنا إلى ما نرجو من أدب رفيع ، فاذا ظللنا نجتر ونعلك منبطحين عافطين كالعنز فنحن على ما نحن . انه لن يكون لنا أدب عالمي ما لم نفكر مثل العالم . فلندع ما مات من كلام السلف ولنفتش عما يخلفه في ديوان العرب .

بشارة الخوري وامين نخلة

في رثاء احمد شوقي

•

باسم « البيان والجمال » اللذين لا نهاية لهما نفتتح « معرضنا » هذا . فالادب بضاعة تعرض ، واسواقها القراء ، فمنها المستنبط البديع ومنها المزجى والزيف . وكذلك الادباء فمنهم من يؤتى قوة الاستنباط والاختراع فتدهش السوق سلعه ، ومنهم المقلد الذي يتحامل على نفسه ، ويجر قوائمه جراً ليخوض المعمعة فيقصر عن بلوغ المحج .

والادب محصول ، فان سميته قمحاً ففيه حب مكتنز وفيه كعابير ، وان سميته ثمراً ففيه الجميل والدميم ، والزكي والكز ، وان سميته زهراً ففيه الفاتنة الضحوك التي تتطاول لتتكيء على صدرك ، وفيه التي تقبل نعلك فتدوسها غير مذموم ولا ملوم .

وان تسميه حيواناً ففيه الفاره والتنبل ، والحديد والبليد ، فقل سبحان من خلق عباقرة في كل الكائنات ، في عالم الناس والوحش والطير والنبات والجماد ولكن عطاياه السنية نادرة وسخاءه قلة ..

اما ان شبهته – أي الادب – بالأوادم فيشتد الالتباس عليك ويصعب تمييز هذا من ذاك ، فالبشر يتصنعون ويتشبهون ليخفوا دمامتهم ، وهم كالنمل يسيرون على الدرب المؤدي الى القرية ، ولكن الزمان يغربلهم وينخلهم ..

فما اقل حظ المقلدين ، ويا خيبة من لا يزيد على العقد خرزة ، ويا تعس الغزاة الذين لا يعودون بالسبايا البارعات. يقول الشاعر : مساكين اهل العشق الخ ، امـــا انا فاقول : مساكين دراويش الادب ، فهـــم لا يبنون غـــير قهقور ، ويحسبون انهم يشيدون اهراماً تتزحلق عليها العوادي وتمضي لسبيلها .

يخلق ملايين كل عام ليس بينهم بارع الجمال ، وتمر القرون ولا ترى امةٌ مفرداً يحطم المقاييس الناخرة ويخلق فناً جديداً . ان الاشكال المبتذلة لا تفتن ولا تغري ، وليس من ينقل التصاوير الرائعة عن معجم لاروس كمن يخلقها ، وان احكم النقل . ان الفن يكره الضرائر ولا يصغي الى ثرثرتهن ، والابداع ، وحده ، يكتب الاسماء في سفر الخلود . فاكثر فينا ايها الفن من ابنائك ، واقص عن هيكل جبروتك من لا يفوزون بجزء من لاهوتك.

يقول « المجترون » ان لغتنا العربية لا تعـــبر عن افكارنا ، والتعبير بها مما يظل مقصراً عما نريد . هذا صدق إن سمعته من مقلدي الاقدمين الذين يعبرون عن طلوع شمس لبنان : بذرّ قرن الغزالة ، ويقولون ، اثقل من رضوى ، وضنين قبالة عيونهم . ان من يؤمن بالوحي والالهام ولا ينـام ، والكتاب على صدره ، لا يأكل من قلمه خبز البقاء . ليس معنى هذا ان نكلف الكتب مـا

ليس عليها ، فالكتب لا تحيي الموتى ، ولا تحول الاحمق عاقلا ولا البليد ذكياً ، ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيها ادنى قبـــول فالكتب تشحذ وتفتق . فليتدبر العقلاء كلمة قالها عربي منذ الف ومئتي سنة .

اللغة بغلة شموس حرون فلنحتل لركوبها والا ليطتنا ، فليتأنّ المستعجلون . والكلمة لا تحيا ولا تنطق الا اذا قعدت لزق جارتها فان اقعدتها فانت ذاك النابغة ، والا فدع الالفاظ في زرائبها ، ولا تجلب الدب الى كرمك .

لم يخلُ قرن من الوف النظامين والمنشئين ، والقناطير المقنطرة من دفاترهم المخربشة ، تملأ الخزائن والرفوف . اما الكتاب والشعراء الذين ما برحوا في فم الاجيال فتعدهم على اصابعـك العشر . ألا فليتعظ الاحياء بالاموات ، وكم في التاريخ من عبر للنـــاس لو يتفكرون ..

لم نقل ما قلنا لنقطع رجاء عشاق الادب فهم يعلمون مثلنا ان أداة الادب الخالد قريحة يمدها الذوق والتفكير ، ويجلوها الاطلاع ، وملاكها الابداع ، ومن يتكل على الالهة مات كموسى في الصحراء ولن يدخل أرض الميعاد . كن مبدعاً ، وسواء عندي اكنت شعلة من السماء ام شرارة من جهنم . ابهرني بنورك او أحرقني بنارك ، فأنا على الحالين صابر . انني لا أحب الطعـام الفاتر فكن إما بارداً واما سخناً يحرق شفتي ولساني وسقف حنكي ، فما أبشع وجوه الفرود ، وكم نرثي لهم اذ يقفون مسوخاً بين الجبابرة .

يقولون : لا يعجبه العجب . يا ويلي ! كيف لا يعجبني شيء

وانا اطير به فرحاً وأصفق له فرحاً مني وجدته ؟! أما ان اكذب على نفسي وعلى الناس ، اما ان أقول للخصيّ ما أفحلك ! وللقزم ما أطولك! وللمكرفح : يا غصن البان يا عمري! فلساني لا يطاوعني وضحى لمتي يضيء لي سبيل الاخلاص للذرية .

فكما يتمنى الاب ان يكون ابنه بارع الجمال وان كان هو بشعاً ، وكما يتمناه نابغة وان كان هو بهلولا ، وكما يتمنى مع كل هذا ، وقبل كل ذاك ، ان يكون فيه شيء من ملاحه للاطمئنان ، هكذا نتمنى نحن لأدبنا العربي .

اظنني في غنى عن يمين الاخلاص ، ولكنني أحلفها لقليلي الايمان: « انا مارون عبود أقسمت وأقسم بحياة مارون عبود أعز الناس عندي الا اكتب في باب النقد الا ما أعتقده حقاً ، وان اخطأت فأنا غير مسؤول .. » .

فمن شاء فليصدقني ، ومن شاء فليتهمني ، وليعذرني اخواني فمن يحمل رطلا لا يحمّل قنطاراً .

شوقية بشارة

نشرت جريدة المكشوف الغراء في عددهـــا الثامن قصيدتي الشاعرين بشارة الخوري وامين نخلة في رثاء الشاعر احمـد شوقي ، ومن كلامها الذي قدمت به القصيدتين لقرائها : « ولسنا نقصد من نشر الاثنتين معاً الا خدمة الادب والتاريخ ، تاركين للقراء ان يخرجوا من هذه المقابلة التي هيأتها لهم جريدتهم بالرأي الذي يوحيه اليهم ذوقهم الفني » .

قيل كان ابو نواس يصلي مع الجماعة فقال الامام : « قل يا ايها الكافرون ». فأجاب شاعرنا المتعتع : اللهم لبيك. فأي بأس علينا لو لبينا صديقنا الحبيشي ، ونحن من قراء مكشوفه ، مبتدئين باخطلنا الصغير :

لا بد للشاعر من جو او محيط – سمّه ما شئت – يسرح فيه حين يعمل قصيدة . اما محيط أخينا بشارة في قصيدته هذه ، فكان في السماوات العلى بل في السماء السابعة ، التي زارها ماربولس وعاد يخبر المؤمنين عنها. وقد يكون فاته بشارة اذ بلغ « سدرة المنتهى » فاسمعه يعيّط وينادي :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره
فسدرة المنتهى أدنى منابره

لقد فصّل بشارة من جلد غيره فوسع ، جعل سدرة المنتهى ، وهي عن يمين العرش ، أدنى منابر الشاعر ، أما منبره الاعلى فهو « كتلك الساعة التي لايعلمها أحد الا الاب » كما قال المسيح لتلاميذه عن الموت ، فكونوا متيقظين .

لم يحسب بشارة أقل حساب لقوله تعالى : إذ يغشى السدرة ما يغشى . فحشر احمد شوقي ولم يبال ...

لست انكر انهم يشبهون الشعراء بالطيور ، وسدرة المنتهى شجرة نبق كما يقول المفسرون ، فالتشبيه غير غريب. ولكن هذا الجو عال جداً يخشى فيه على الطيور من الاختناق . فلو جعله ، مثلا ، مع الرجال الذين يسبحون لله بالغدو والآصال لهان الامر ، ولكن انكون كرّمنا الشاعر أو مدحناه اذا لم نطيره فوق

الكاروبيم والسارافيم ؟

وبعد ان قال بشارة بيته الاول في ذلك الأفق انقضّ فجأة كالعقاب على رفّ حمام ، وخر الى ذقنه يقول :

وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت
أشعة الوحي شعراً من منائره

ومع ان « شعراً » ليست من الدخيل على الموضوع فقد جاءت نابية وصدمت موسيقى البيت صدمة غير هينة. ويرفع الشاعر رأسه بعد هذه الحُرة فيرى :

آلهة الشعر قامت عن يامنه وربة النثر قامت عن مياسره

وبكلمة خلق بشارة ربة جديدة للنثر حفظاً للتوازن ، وهكذا رأى احمد شوقي كما رأى (يوحنا) الحمل المذبوح . واهتزت الحور لهذه الرؤيا وقصت شذوراً من غدائرها لتكون ستائر لعرش شوقي السماوي ... ثم ماذا رأى ابن الانسان ؟ رأى أتراب مريم لاهيات لاعبات « باللاقوط » في خمائله ، ورهط جبريل يحبو في مقاصره ، كالعصافير التي تنتف جناحها وتترك لعبة للاولاد . وتكميلاً للحساب يأتي الملهمون بنو هومير ايضاً ، ولا يتركون سجعاً لطائره . (كذا) .

ويضطرب الملكوت فتتساءل الملائك من هذا ؟ فيقال لهم كما أجاب الفرزدق بالنيابة عن زين العابدين : «هذا الذي» أربع مرات ، فيوفق الشاعر حين لا يحاول عمل المعجزات والعجائب فيقول بيتين من أجود الشعر ، كأنها صورة ناطقة لشوقي ، واليكها :

هذا الذي لمس الآلام فابتسمت جراحها ثم ذابت في محاجره

كم في ثغور العذارى من بوارقه وفي جفون اليتامى من مواطره

لم ينزل الشاعر بعد من فوق ، فقد استطيب المناخ ، وقال ايضاً ما يشبه « العجائب السبع الاولى » ولكن « كم ودت » خففت من وهجها الحامي وحرها الكاوي ، وقد ختمها بقوله :

والزُهْر لو كن ازراراً مفضضة على الذيول الضوافي من مآزره

ان هذه الابيات الاربعة عشر التي قالها شاعر العرب الاكبر.. في السماء السابعة تذكرني كلمة قالها احمد فارس الشدياق في شعراء الفرح والترح ، منذ تسعين سنة :

« ومن كان قد قرأ بعض الشعر ، وسمع من اهل العلم ، مثلاً ، ان الشعر منقبة سنية تصدى الى اي نظم كان ، فاذا رأى طائراً في الجو نظم فيه قصيدة ، واذا تزوج احد في بلده نظم فيه تواريخ ، واذا توفي احد قال : قد غاض بحر الكرم ، ودكت اركان المعالي ، وذوت رياض الفضائل ، وافل نجم الهدى ، وخسف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لايزال يصعد في عاجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ، ويعدد جميع ما هنالك من النجوم وينتزع منها كفنا لمرثيه » كشف المخبا ، ص ١٦٦

قلت : حقاً انها لنبوه ، ليرحم الله شدياقنا ، فماذا كان يقول لبشاره لو استيقظ على عياطه وصريخه « في ربى الخلد » ، ورآه منتصباً كالناطور فوق شماريخ جبال الجنة ، وقد تعلق كالحرباء باغصان سدرة المنتهى يهزهز اغصانها ، بل ما تراه كان يفعل بـــه — والشيخ الشدياق ، رحمة الله على ترابه ، احرص ما يكون على النساء — لو رآه يهاجم الحوريات بمجزه ليقص شعورهن المجدولة

ويعمل منها ستائر لشوقي، ثم يأخذ النجوم ليزرر بها الذيول الضوافي من مآزره ؟ فليت شعري كيف يكون شوقي في هذه القطيفة التي صارت سماء ذات ابراج ، بل كيف يختال فيها ؟ ثم ماذا كان يقول الشدياق لبشاره لو رآه رهط جبريل يحلجون في الجنة وقد هيضت اجنحتهم ، وهم يجرونها وراءهم كالمكانس .. ؟!

لا شك في انه يرثي له كشاعر عربي لبناني ، ويهدي اليه كشف المخبا والفارياق ، ويقف الى جنبه ، ويوشوشه قائلا : الأب الازلي مستريح فلا تزعجه بهياطك ومياطك .. استح يا ابني ، بأي عين تقابل شعراء الجنة ؟! اياك ثم اياك ان تنظم شعراً قبل أن تقرأ كشف المخبا والفارياق ، ثم يجبر خاطره فيهبه شيئاً من اوسمته بعد ان يعاهده على أن يقول شعراً يطيق احتماله الفهماء ..

وكأني بواحد يسألني : ما قولتك ، لماذا فاجأ بشاره مصر العزيزة بهذه الاعاجيب ؟ الجواب : لا شك ان بشاره سمع ان في مصر سحرة نازلوا موسى الكليم بحضرة فرعون فتغلب عليهم بمعونة الرب ، فتوكل بشاره على الله وجاءهم بالكبيرة فوهرهم ، والضربة لمن سبق ... ويعلم بشاره أيضاً أن الجمهور سيّد هذه المواقف ، والجمهور لا يستفزه الا الحفة والأسماء الضخمة فأكثر منها وراح يصرخ فيهم :

شوقي ... سلوا الافق هل ثارت عجاجته

لما ثوى المتنبي في حفائره

أأسب دين القافية ... فالمتنبي المسكين أكلته الذئاب قرب دير العاقول فكيف لا يرضى له بشاره بحفرة واحدة ؟ ! وصاح أيضاً

«شوقي سلوا البحر»، ثم «شوقي سلوا الليل»، ولو سأل أكثر لكان الاستحسان اعظم ،والتصفيق أوفر ،والوسام أكبر .

وتذكر بشاره ان في مصر نهرا جواداً هو النيل فوصفه ووصف نعيمه المقيم ، حتى يكبر المصيبة ويقول :

يا للمصيبة غال النهر غائله وغار في لهوات من هواجره

الله اكبر !! فهذا الصباح يعبس ، ولم يعـد المساء لعوباً في الجزائر ، وذبل الزهر ،وسكتت الطير حتى الاشجار لركود الريح ، عجائب لم نسمع بمثلها يوم صلب المسيح... نحن نعلم ان الطمي قد يكون قليلاً في مصر بعض السنين ، أما أن ينشف ماء النهر بالمرّة فهذا لم يحدث حتى على يد موسى الطل ... فوالله لئن كان الشعر سحراً كما يقولون فشاعرنا ساحر بلا شك ، كان الله في عونه ليبيّض وجهنا في كل مناحة كما يبيّض القوّال وجه ضيعته .

ويعظّم الشاعر الخطب بالشاعر فيراه أعظم من الخطب بالنهر « يجري الروح في بلد » فخطب الشاعر يذوي له كون بجملته ... حقق الله احلام الشعراء فهي لا بأس بها، ولكن يا حبذا ... ولو قوّم الناس الشعراء النادبين كما يقومون أنفسهم لكانوا صفوة الخلق وأسعدهم .

أتريد ان اخبرك عن كل المفاجاءات في هذه القصيدة ، انها لكثيرة وشاعرنا خفيف نشيط ، فها هو ينتقل الى لبنان بسرعة النور ويقول للناس :

ما للملاعب في لبنان مقفرة وللمناهل عطلاً من حرائره

نعلم ان أهل لبنان متى « حدّوا » لا يدقون الكبّة فتعطّل

الاجران ، أما ان يبطلوا الشرب فبدعة مـــا سمعنا بها إلا من بشاره ... وينتقل إلى طرابلس فيسأل : مـــا للمآذن في الفيحاء كاسفة الخ ..

وللاصائل والاسحار أنخنـها عات من الريح ارهاقاً بحافره

وهنا جعل للريح فرد حافر اكراماً لسواد عيني القافية ، ثم من يدري فقد يكون الريح في الحيوان مثل وحيد القرن... وهل لنا ان نطالب ابن بطوطة الشعراء بهذه الصغائر ، فقد يكون في حالة « اللاوعي » التي تقول بها مدرسة سعيد عقل ...

وبعد ان قال ما قال في لبنان وطرابلس رجع الى مصر فجعل الحسن والاحسان غريبين يضربان في الارض كشريد « لا منّه »، حتى اعتصما بضفتي النيل . لقد صدق ، فمصر بلد طيب يخرج نباته باذن ربه ، واهلها اجاويد. ولذّله ان يذكّر احمد شوقي بشيء كما تفعل الندّابات في المآتم ليعلو الشهيق والتنهد فذكره ، ولكن بخبر اسود ... فقال :

شوقي ، اتذكر اذ عاليه موعدنا نمنا وما نام دهر عن مقادره

واذ طلعت علينا اصفراً وجلا كالنجم خلف رقيق من ستائره

ونحن حولك عكاف على صنم في الجاهلية ماضي البطش قاهره

أرأيت هذه القوافي المكعومة ، الا ترى هذا الضمير يركض كأعرج يريد اللحاق برفاقـــه ؟ ثم الا تقول مثلي من اين جاءت اصنام الجاهلية في القرن العشرين ؟ والاغرب ان يتم بشارة البيت الاخير بقوله : ماضي البطش قاهره . فكأنه يجدّ ولا يزل ، او كأنه ينظم قبل الشاعر الجاهلي القائل:

أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب !

وبيت الاصنام هذا ، اليس لسيدنا الفرزدق الذي كان يقطع طريق الادب ويشلح الشعراء ؟ اليس هو القائل في « جفات » المرحوم جده « دارم » الذي الحقه به احد الخلفاء وحرمه الجائزة:

ترى حولهن المعتفين كأنهم على صنم في الجاهلية عكف

اما بشاره فأخذ البيت ولم يحسن الاخذ بل بشّعه بـ « ماضي البطش قاهره » التي زادها عليه فجاءت كذنب الطيّارة الثقيل .. وتوسع لغة فقال « عكاف » والوجه ما قاله الفرزدق . وما وقع بشاره في هذه الوحلة الا لانه يريد ان يقول لشوقي :

سألتنيه رثاء .. خذه من كبدي لايؤخذ الشيء الا من مصادره

واذا كان البيت السابق مأخوذاً من الفرزدق فهذا ايضاً مأخوذ من شوقي نفسه ، اذ يقول في رثاء مصطفى كامل باشا :

وجعلت تسألني الرثاء فهاكه من ادمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبة الشجون لخاطري لنظمت فيك يتيمة الازمان
وانا الذي ارثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها الى الدوران

اما بشاره فاختصر وقال : خذه من كبدي ، وتواضع ولم يزد على قوله: لايؤخذ الشيء الا من مصادره...

وبعد كل هذه الروحات والجيئات يتذكر بشاره اخيراً انه لم يذكر فرعون ، رحمه الله ، فقال في قصائد شوقي : لو عاد فرعون كانت من ذخائره ...

لكن ربك لم يؤثر بها احدا سوى فؤاد عماد الملك ناصره
ارث لفاروق صان الله مهجته وطائر كم حكى عن سعد طائره

أرأيت ما أغنى هذين البيتين بالتوريات والاعلام ، والالقاب العتيقة ، والادعيـــة الحامية الوطيس ؟ فهكذا يقول الشعر من يطلب التصفيق ويرضى بالساعة التي هو فيها . فتعلمّ ، ان كنت تطمع بلقب شاعر العرب ووسام الاستحقاق ..

ونزل بشاره عن المنبر واهتزت الاسلاك البرقية تبشر لبنـان بالمعركة الفاصلة ، وحامت الانصار على (الدباس) فكانت الجائزة استحقاق بشاره شكر لبنان . ويروي المؤرخون انه جاء لبنان مليون مصطاف تلك السنة ..

اما امين نخله فقال قصيدته ارضاء لنفسه ، بل : « ليقال فيه غداً وفى ابن الخيّر ». وسنقابل بين الثنتين بعد النظر بقصيدة امين، فلا تظن اننا وقفنا هنا . فسر معي على خيرة الشيطان — شيطان الشعراء — فلقد تعبنا من الصعود والهبوط في قصيدة بشاره التي كان فيها مكرّا مفرا ، مقبلا مدبراً معا ..

شوقية أمين

نطلّ على أمين نخله الشاعر فنشرف على مدينة جديدة لها في النحيت اسلوب خاص ، سوف ندرسه مطوّلاً . أما الآن فنعلق على مدخلها هـــذا الانذار : المفرق خطر خطر الموت ، ومن لا يتعظ يكن عبرة ...

ان شوقيّة أمين على الراء أيضاً كقصيدة بشاره ، ولكنها لا تتعثر بالضمير الذي يتعلق بها تعلق الصبي بأذيال امه فيمنعها أن تميس وتمشي مشية صاحبة الأعشى، ولهذا جاءت قصيدة أمين هدّارة

كالبحر المعرورف تذكرنا «فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر» ولكنها لا تسمعنا جعجعة الرحى التي تطحن قروناً ... افتتحها أمين على الأرض لا في السماء فقال :

كنا نميل على الربيع الأخضر وعلى العشية والتفاف السمر

ورأى أمين ما رأى في «التفاف السمر» فشاء فكانت «مواسم عبقر» فتمّ له ما أراد دون أن يستصرخ الله وجنوده، وما عنده من حُور وولدان ... المقعد بسيط رحراح :

للحاضرين بساطه وظلاله وحديث ناديه لمن لم يحضر

تصوّر الشاعر قعدة لبنانية لا أكثر ولا أقلّ، وحسبها أن تحتوي على خير ما أبدعته يد المهندس الأعظم، لتكون فردوساً أرضياً ترتع فيه قريحة الشاعر. ومجلس كهذا لا يستغني عن ساق فكان «سريا» يسقي الندامى بابريق النبوغ مسلسلا، وصفه أمين بلغة لبنان التي يعشقها ويحرص على تعابيرها ويلوّن بها شعره، وأمين عربي هاشمي – كما نبأنا حديثاً الصديق الاستاذ الرياشي في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «نفسيّة الرسول» – فاسمع إذن ما يقول أمين في ذلك الساقي :

ساق تقبل في الندامى كفّه ويقال حين يخف يا ساقي اؤمر

قد تقول يا أخي، هل سكر أمين من قدح ليقبّل كفّ الساقي : ويلي عليك وويلي منك إن كنت لا تقرأ ما بين السطور، ولا تفهم الرموز فالخمرة فارضية، والساقي ربّاني عارف بالله ... وكيفما توجهت ترَ عند أمين إسناداً جديداً أو إضافة طريفة أو فكراً عفّافاً مقرطقاً فيقول لك مثلاً :

عرك الدنان على اسم كل بليلة في الكرم غبّ الموسم المتفجّر

فكأنّ الشاعر ابن المعصرة ، أو « ابن مدينة » الأخطل يظلّ على مسحاته يتوكل . ثم لا ينسى أمين أن يعلمك آداب الندمان ، ولكنها ليست كشروط أبي نواس الخمسة فيقول :

شرب الهوى شوقيّة اقداحه وإذا سقيت فجد بكأسك أو ذر

وبعد هذه الذكرى المؤلمة التي وصفها أمين مبتدئاً بـ « كنا يشتدّ عليه الأسى فيقول :

ذهب الربيع ولم يدم من طيبه في الأرض إلا نشقة المتذكر

انشقت معي طيب « نشقة المتذكر » لتعلم خبرة أمين بتزويج الكلام ، والتشدّد في إحكام الكتاب حتى لا يدع باباً أو منفذاً للطلاق .. وأمين يحسن « التجسيد » أيضاً - لا بأس إذا تفرنجنا - فيريك الدروب تمشي في موكب موحش ، ويغص في العطفات صوت الأنهر ، كصوتي ساعة الاختناق من الغيظ في محشر القوافي .. شفى الله الأنهر وشفاني من هذا الداء ..

وهنا يلتقي أمين وبشاره في تعظيم الخطب بموت الشاعر فيقول أمين :

موت الربيع وموت شاعر امة صنوان في فقد الهناء الأكبر

يشبّه أمين الشاعر بالربيع ولكلامه صلة بما قبله ، فهو منذ ابتدأ ينظر إلى الربيع ، والعشية ، والشفق الطري ، والغمام ، والساقي ، والابريق والدنان ، وكل ما يلزم الطرب من آلة . أما بشارة فجاء « نهره » لزقة فجرف الأخضر واليابس ... ورب قائل : ما يدرينا أن أمين نخله لم يأخذ عن بشاره هذه الصورة إن

كانت قصيدته لم تنشر ، كما أذاع المكشوف الأغر ؟ قلت : بلى نشرت ، وأمامي الآن نسخة منها أذاعتها جريدة الشعب في حينها . والا فهل أنا نبي لانبهك إلى « مواسم عبقر » و « التفاف السمر » وسأشير إلى غيرهما فأعرني انتباهك .

لم يكبّر أمين المصيبة بالشاعر مثل زميله بشاره الذي أذوى له كوناً بجملته .. ولكن جاءنا منه « الهناء الأكبر » أخو الراحة الكبرى عن شوقي عن أبي تمام . ويقول أمين في البيت الثاني عن الامـــة وشاعرها :

يا طالما فاءت إلى أحلامـه وتقلبت في قلبه المخضوضر

اني أرى « فاءت » يابسة ، وهي من الفاظ العقـاد الشعرية ، كما أكره هذا الجناس في « تقلبت في قلبه » ، وعسى أن ينظر في هذا عند الطبعة الثالثة فهو كثير العناية بتهذيب بنيه ، لا يخلّفهم ويتركهم . أما وزن افعوعل الذي استحلاه ابن الأثير وعشقـــه أمين وتيّم كثيرين فقـد عمّ حتى خمّ . ويمشي أمين مشية ليّنة في وصف شاعره ، وكرمـه الحاتمي ، ودموعه وأحلامه التي تشفي من جميع الادواء ، ولا أدري إذا كانت تشفي من الكلب أيضاً كدماء ممدوحي المتنبي ..

ولا ينقطع هذا الفلم الجميل حتى يبتدىء الثاني بقوله :

خفقت عكاظ اربعين عشية وأظنها خفقت مئات الاعصر

لا تظن يا أخي ، فحسب الشعر ان يكون له في كل قطر أخ للعقاد .. لا خوف على الشعر يا أمين ما دامت النساء تحبل وتلد ، فما شوقي إلا شاعر خلت من قبله الشعراء . ان شوقي مات ، أمـــا

النبوغ فحي لا يموت . أما القباب ورفرف النادي وصدر المنبر التي خصّت بشوقي حياً فألفاظ مرحة لولا « المتبّع » التي جاءت كركبة البعير ، تترحّم على ابن الأثير .

وهنا تأتي نوبة الوصف الصريح لشوقي فيشبّه رقتـه وصبابته بدمع الياقوتة المتقطر ، فيذكرنا بقصر ابن المعتز . وسرعان مـا ينتقل في البيت الثاني إلى مطبخ ابن الرومي فيقول :

يتفقأ الرمان من لفظاته فهي النديّة في الغليل الأحمر

كانت (ألفاظه) في الطبعة الاولى فبدّلها فتحركت . أمـا « النديّة في الغليل الاحمر » فطريفة رائعـة تشفع بيتفقأ التي تفقأ العين . وعندي ان الفكرة مبتذلة وما هنا محلها ، وإن وصف أمين حبّ الرمان خير الوصف واصدقه .

وننتقل من تفقية الرمان إلى « الحبرة » فنعجب بنسج « منواله غزل الشعاع النيّر » ثم ننسى الحبرة ونسير مستعجلين في موكب الاشعة اذ نرى :

ديباجة كالصحو تلمـع زرقة وبهـا مشابه من سحاب ممطر

الاذن في تلك القـوافي ترتمي والعين تسبح فوق تلك الابحر

أرأيت كيف يوصف الديباج البراقشي - شانجان؟!.. ويصف لنا امين حدة ذهن شوقي فيأتي بصورة تنبض الحياة في كل عرق منها إذ يقول :

شوقي وأية حـدة في ذهنه أبداً تلمـلم شيمة المتحذر

كالعين تأخذها المشاهد بغتة فترد اخذتهـا بدورة محجر

ان الشاعر يحتاج أولا الى عينين بصيرتين، سلمت عيناك ياامين !

وينتقل الى وصف سرعة الخاطر فيقول بيتين جيدين لولا العجز الاخير في قوله :

خفت بعارضة الضياء قريحة عن نقلة الخطفات لم تتأخر

ان بيتك هذا متأخر عن اخوانه ، ناهيك بما في الفاظه من جفاء ، متفرقة ومجتمعة ، فابحث عن السبب فهو في الحنجرة .

ويقول بيتاً ثالثاً يصور به تزاحم الخواطر عند الشاعر الملهم :

فكأن لفظته تقول لاختها في زحمة الخطرات يا أخت اعذري

انه لتجسيد تام وتصوير نابض لا عيب فيه الا زحمة الخاءات . ولو قال اصبري لكانت لبنانية اكثر ، وأخاله آثر اعذري لانها ترادف (معليش) المصرية . تذكرني فكرة امين الجميلة بما كنت أقرأه مكتوباً فوق رأس مسار أفرام السرياني (كلي موران موهبتخ) ترجمتها : رد يا رب عني نعمتك . وكذلك الشعراء الملهمون في ساعة الرضا والتوفيق ، ولا يصف الشاعر إلا الشاعر .

وينادي أمين في وصف صاحبه فيصف رقة حسه ويرينا ان أكف الوهم تصدع حسه . وهنا نبلغ بيتاً حذفه امين من طبعة المكشوف ، اذكره لأثبت لك أيضاً ان قصيدة امين طبعت في حينها ، وانه لم ينظم بعد غيره ، واخيراً ، وهو الأهم ، لأدلك على ان شاعرنا ينظم للفن ، وهو جزار لا يشفق على نعاجه ، فما حمله على حذف :

شوقي الشعاع فكيفما قلبته وأدرت عينك مبهر في مبهر

الا قافيته الملعونة التي تسود وجه الفن ؟.. ثم ينتقل الى وصف شوقي جسدياً فيعرفنا به ويقول في جسمه الصغير :

ملأ الفضاء كحبة من عنبر ... ثم يذكر قلة حديثه ويرسم لنا صورة شوقي المفكر الفهيم ببيت هو اخو البيتين اللذين اطريتهما كثيراً ، وهما في العين ايضاً كهذا :

او ليس حسب العين من لحظاته في الفهم رأرأة كجهد معبر

فهلا تتأمل المعبر مرة ، وتخبرني عما ترى ؟ لاتبعدك رأرأة عن هذا البيت فلا يسد مسدها غيرها . ويمعن امين في الوصف فيقول في عين شوقي ومشيته :

رقيت الى عينيه زهوة نفسه فهما بها في حيرة المتحير
يمشي فيخطف خطوتين كسالك في العاج او متعثر في المرمر
جلت وداعته وجل وقاره عن ان يهم بخطوة المتبختر
لكنما الاعصاب وهي كليلة من فرط مس الوحي في متعذر

ولو أراح امين بيته من (رقيت) لسرح وكان صداه أبعد. قد رسم خليل مطران ناحية الزهو في شوقي فقال :

فلكل لفظ رونق متجدد ولكل قافية جديد رواء
يجلى الجمال بها كأبدع ما انجلت صور حسان في حسان مرائي
ولربما راع الحقيقة رسمها فيه فما اعتصمت من الخيلاء

ارأيت كيف يصور الشعراء المفكرون ؟ لا تبال باضطراب عجز البيت الثاني ، فكثيراً ما يعجز الشاعر عن اخضاع الكلام اذا تمرد . واذا رأيت المطران يخرفش في هذه الايام فلا تنس انه حصّاد شهير ترك المنجل ، وهذه سنة شرقية ...

ويختم امين قصيدته بتجديد العهود والمواثيق فيقول :

تلك الابوة في البيان اصونها ليقال فيك غداً وفى ابن الخير

لي منك فخر الدرب اذ يممتها ومشيت الهث في غبار مغبر

اما أنا فاخاف جداً من الغبار خصوصاً اذا كان مغبراً ... واتمنى ان يظل امين سائراً في دربه وكل من سار على الدرب وصل ... ويذكر امين صلته بشوقي وكيف انقضت ، صبر الله قلبه ، وعمّره كنسر حيقار ..

وبعد ، فقصيدة امين نخله لشوقي بعينه ، ولا تصلح الا له . اما قصيدة بشاره فلشوقي منها الاسم ، وهي تصلح ايضاً لحافظ واسمعيل صبري والبارودي ولحليم دموس بعد عمر طويل ..

محيط امين في قصيدته محيط شعري بسيط جداً ، تسمع وصفه ولا يطرّ عقلك ، ومحيط بشاره اشبه بمحيط الف ليلة وليلة وكأن في يد صاحبه عصا موسى او خاتم لبيك .

قصيدة بشاره مفككة تمشي على غير هدى ، وقصيدة امين كالسلسلة المحبوكة ، لا قفز ولا نط ، ولا انتقال ، ولا مفاجآت ، ولا غرائب ولا عجائب ، لا رعود ولا بروق ولا عواصف كساعة تجلي المسيح على طور طابور .

قصيدة امين ذات لون محلي تدل على شاعر بعينه ، وقصيدة بشاره لا تدل على شيء من هذا ، ولو خلطناها بعشرين قصيدة من شعراء العرب الاولين والاخرين منهم لما عرفنا ان قائلها من ابناء القرن العشرين .

نظم بشارة مفكراً بالنظارة وهمه التصفيق لا الفن ، ونظم امين وعينه في الفنانين ، وما عناه غير ذلك .

قافية بشارة متعتعة كالسيدات المترهلات اللابسات الفساطين

المذنبة ، وهذا الضمير الذي علقه بها يجبر القارىء على الطحير ، وقافية امين خفيفة رشيقة كالسيدات المتروضات ...

كأني بامين قد قرأ كلمة ابن الاثير القائل: من شاء ان يخلق عالماً من الكلام فليأت به على صور الاناسي والانام ، ففعل . اما بشاره ، فجعل مرسحه الجنة ، فهز العرش وفزع سكان السماء . نعم ان فيكتور هيغو حرك الهة الفن ووصف فرحها باستقبال صديقه تيوفيل غوتيه ، ولكنه قال ما لا يقال الا في غوتيه صاحب بدعة « الفن للفن » وهو في كل حال لم يجعل الفرحة غير معقولة ، كما فعل بشاره .

قصيدة امين كباطية النبيذ جيدها في وسطها وهي « كلّ » ، اما قصيدة بشارة فخطرات افكار مبتذلة وتعابير الفناها ، بخلاف قصيدة امين ذات الصور الجديدة ، والتعابير التي تدل على جهد وعناء ، وتعب كثير في تأليف الكلام وتزويجه .

حاشية — لا يظنن الكتاب ان كلمة « التزويج » في البيان افرنجية ، فقد فطن الى ذلك ابن الاثير ، وفي ظني ان امين نخله قرأ ابن الاثير مرات ، وما احوجنا الى من يقرأه .

قابل اذا شئت فالقصيدتان امامك ، انظر ماذا قال امين وكيف يقول بشاره : هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظره ، يعني : يا نور عيني . وقس على هذا ان شئت تعلم ان للفن اللفظي عند امين شأناً عظيماً ، حتى يميز بين « الفاظه » و« لفظاته » ويستغني عن « مبهر في مبهر » ، و« شوقي الشعاع » ، وهذا ما نطلبه من بشاره الحوري الذي لا ننكر شاعريته ، ولكننا نسأله ان يتغرب ، ففي الاسفار أكثر من خمس

فوائد ...

قلت سابقاً ان قصيدة امين « كلّ » تصعب تجزئته، اما قصيدة بشاره فاليك لائحة بها :

٠٠٦ ابيات في وصف شوقي بالجنة
٠٠٥ ابيات سؤال الملائكة عنه وتعريفهم به
٠٠٢ للقاري، عن تمنيات جنة الخلد
٠٠٤ ابيات صريخ وعياط
٠١٢ بيتاً عن النهر الذي اكله الغول
٠٠٦ ابيات عن حزن لبنان وطرابلس
٠٠٥ ابيات عن غرام مصر والخواجه لبنان
٠٠٦ ابيات عن اصطدام سيارة شوقي
٠٠٤ ابيات عن فرعون والملك فؤاد وفاروق

٥٠ اليكون خمسون بيتاً فقط لا غير، عدا السهو والغلط.

اما قصيدة امين فعدتها ٤٤ بيتاً، موضوعها شوقي وما يتصل به وبفنه، فلا اهرام ولا فرعون ولا عشق ولا غرام بين الاقطار.

لا يجرد بشاره اذا فضلنا امين نخله عليه، فقد تقابل بينهما في وقعة اخرى – بالفرح ان شاء الله – فتكون له الغلبة ان شد حيله وقابلنا بغير هذا الوجه الشعري، فما هذا وجه من يعيش.

واخيراً اتمنى ان اكون مخطئاً ويظل بشاره على كرسي مجده تعطيه الطوبى جميع الاجيال كسلنا مريم رزقنا الله شفاعتها ورضى اخينا بشاره العزيز الغالي.

يوسف غصوب

في قفصه وعوسجته

•

غفا الأدب العربي بعد بديع الزمان إغفاءة خرساء لم يتخللها حلم ، ولولا فارياق الشدياق لم يكن لنا أثر عربي في تلك القطعة من الزمان . ثم كان عصر المقالة والرواية فبرز كتاب طواهم الدهر مع آثارهم فأفاق أدبنا المريض من غيبوبته . ولاح جبران فكان فجراً بهياً لنهار جميل في قصصه ومقالاته . وكان للأدب العربي عهد جديد .

كان للنهضة الحديثة رواد قبل جبران ، أولهم ذلك الاعمى المفتح القلب فرنسيس فتح الله مرّاش . ثم تنفس في القاهرة أحمد شوقي فقال : خدعوها بقولهم حسناء . فدارت على السنتنا في ذلك الزمان حتى ضجت جدران مدرسة الحكمة من عقيرة الشيخ رشيد تقي الدين الذي كان يرددها بصوته العريض . وارتفع في لبنان صوتان : شبلي الملاط في شعره القصصي ، ونقولا فياض في خطبه التي كان يقدم لها بشيء من شعره الحديث كقوله في القلب البشري: «حير الناس فقالوا عصبي» . اضف الى هؤلاء خليل مطران الذي تأثر

بالفرنجة وعمل الشعر على طرازهم . ولكن كل هـؤلاء شوقي ومطران وفياض وشبلي امسكوا بطرفي الحبل فلم يخرجوا من صيرة القدماء إلا ليقفوا قدام الباب هنيهة ، ثم عادوا الى ما وراء السياج ، إلا الدكتور فياض فكانت له مؤخراً انتفاضة من باب رجوع الشيخ الى صباه ...

أما في النثر فكان الريحاني في طليعة الروّاد بكتبه وفصوله ، يجمع بين الفلسفة والشعر ، يقدم « بذوراً للمزارعين » ويسأل ربة الوادي ان تداويه وتشفيه... احدث كتابه « المحالفة الثلاثية » صدى بعيداً اكثر من لاعنيه ومريديه . ثم جاء جبران يتمرد على القديم ، والف مجمعه – الرابطة القلمية – فالتف حوله الشاعر والناثر ، فأفلحت مدرسته في النثر اكثر منها في الشعر . تفننوا في الاغراض وترفعوا عن المديح الذي كان يتلهى به الشعراء عندنا ، واقتفوا اثر الاندلسيين محررين ادبهم من قيود القافية فنيّروا شعرهم واسدوه بخلاف غيرهم وان حاكوا على النول القديم . فكان لهم اتباع ومقلدون في الشرق، فعافوا نقنقتهم وحاولوا ان يقولوا شعراً .

وكتب جبران في النثر صفحات لا قرابة بينها وبين القديم ، واذا صنفنا الشعر العربي قديمه وحديثه كان نثر جبران أول بابة ، فهو ابو المدرسة الشعرية الحديثة التي نسميها اليوم رمزية .

فالاتجاه الجديد المستقل استقلالا ناجزاً في أدبنا ابواه الريحاني وجبران. أما الريحاني فاتجه في صوب جديد. صار ابن بطوطة جديد يدرس الاقطار والاقاليم العربية ويصورها في اللغتين الانكليزية

والعربية . اما جبران فركب رأسه وطمح الى ابعد ما يطمح اليه الناس ، طمح الى الذي امسى لا شيء عند الريحاني فظل يكتب للناس أجمعين لا لفئة خاصة منهم ، فكان اثره ابعد لانه خاطب النفس . اما فيلسوفنا الريحاني فملّ التدروش في زمن المادة فالقى الكوز والكشكول والوى على العقل يسوطه بقسوة ليخلق من الشرقي رجلاً غير هلاميّ . خاطبه بلغة الحساب متنازلا لجبران عن نبرات اشعيا واهتزازات ارميا واحلام دانيال . ونبت مخائيل نعيمه على جذع جبران فكان سكرتير العميد . قال شعراً وكتب في النثر صفحات باقية — « الجندي المجهول » — حتى اذا انطوت صفحة صفيّه نشر مخائيل تفاسيره وتعاليقه في زاد المعاد على فلسفة صاحبه وانزوى اليوم في بسكنتا كتولستوي في آخر العمر ، ولكن صاحبنا نعيمه بكّر... وسيأتيك الحديث الخاص بهؤلاء فامهلني رويداً .

والذي يعنينا الآن هو نهج هذه الفصيلة وتجديدها . ان ملامح القديم ضئيلة فيها وليس لها من بضاعتهم الا الالفاظ ، وهذا يتفاوت عندهم ثلاثتهم ، ولكن لهذا الثالوث مؤمنين بلاهوته على ما بين الثلاثة من فرق في اللاهوت والناسوت ... نعى عليهم عباد القديم ضعفاً في التركيب وخروجاً على لسان العرب وهذا ما يعنينا نحن حين ننظر الى التطور في أدبنا . كانت الحرب الكبرى فاتجهت الآداب العالية بعدها اتجاهات عديدة بلغنا آخر مدها فجرفنا التيار الذي تلاشت قواه عند غيرنا ، واتسعت دائرة ثقافتنا فنهض الشباب متأثرين بالفواعل الخارجية فكانت ألوان ادب جديدة . كانت القصة

حلماً سعوا الى تحقيقه فبانت بواكير طيبة فيها اللون المحلي المرغوب فيه وان لم تنضج كل النضج . وتلون الشعر غير الالوان الاندلسية فصار لكل شاعر لون خاص اتسم به غير اللون القديم العام الذي نراه في شعر بشاره الخوري واضرابه . حاول الشباب ان يخلقوا افقاً شعرياً جديداً فدانت لشاعريتهم الفاظ موسيقية خلابة مرحة فأخرجوا الشعر العربي من الحصـــار الذي ضرب حوله قروناً ، ولكنهم وقفوا عند تخوم معلومة في هذا الفتح فعسى أن تنفتح لهم آفاق اخرى جديدة تغمر العقل العربي بالظلال والانوار .

وكانت المشادة عنيفة بين اللبنانيين دعاة التجديد والمصريـــين المفطورين على عبادة القديم ، فهبّ كبار كتاب هؤلاء يصقلون ما صدىء من لسان العرب واخرجوه فيما كتبوا كأنه الجديد بعينه ، ولما خمدت ثورتنا جنح اصحابنا الى الفرعونية ... أمـــا المدرسة الشعرية اللبنانية فتوغل اثرها في مصر والشام والأقطار كلها فبانت سماؤها في النشء الجديد وما يسلم من الايمان بها غير شعراء تجاوزوا عهد الشباب . فكانت هذه الموجة الشعرية التي تفيض بهـا صحف مصر ومجلاتها ، مشت اليهم من شاطئنا الازرق وطارت من جبالنا الى تلك السهول والغوط فأحيت مـا هناك من ارض موات ، ومن أحيا ارضاً مواتاً فهي له كما قالت جارية الرشيد لضرتها ... وهـذا يبشر بمستقبل باهر للشعر ان اعتصم ذووه بالابداع .

تجاوز الشعراء والنقاد الحد في تحديد الشعر فانحصر النـــاس بنظرياتهم . والظاهر ان الشعر ككل ما لايرى لا يجدد تحديداً يحصره تحت الكم والكيف ، بيد ان الابداع اول شروطـــه . والشعر

شعران : شعر يولده ويركبه العقل، وشعر مركب في النفس . والذي يبدو من آراء النقاد العرب ان العقل يهمهم اولا فحاموا في شعرهم حول المعاني حتى تداولوها جميعاً فاخلقت تلك الثياب ولم تجدد . يحب العرب في شعرهم الجهود العقلية فكلما أكثر شاعرهم منها كان متفوقاً ... ومن هنا يجيء تقديمهم المعري مع انه لا يبالي بشيء من الفن . اما الشاعر فهو من اتبع غريزة الجمال اكثر من العقل ليتغلغل في نفس الكون الخفية كما يقول رنان . ومن جهة ثانية نراهم يضعون الجمال بعد الحقيقة في الفن فقالوا : أعذب الشعر اكذبه . فكان للشعر عندهم كفتان : المعنى والتركيب . ان لغة العرب لغة شعرية تمكن الشاعر المطبوع من اخراج الاصوات التي يريدها اذا ادرك اسرار ابجديتها . ولئن اعار الاجانب حروفهم الصوتية أهمية في نظمهم الشعر فلكل حرف عربي مثل هذه الاهمية لو تنبه اليها شعراؤنا ولم يصبوا قوالبهم على الابحر ليملأوها بالالفاظ كيفما اتفقت .

ان جوهر الشعر العربي القديم لا يتعدى المحسوسات ، على حين ان ما يرى هو رمز، عند الشعراء، الى ما لا يرى . فالحدود التي تفصل الدنيا المادية عن الدنيا المعنوية ليست عندهم ، فأعينهم تدرك العلاقات البعيدة التي تربط الاشياء ببعضها وتولجنا في اعماق جمالها الجذاب. فالكلام يتجسد متى نفخت فيه الروح الملهمة الخالقة حياة . والتجسد الشعري هو الشعر كله . وهذا ما يحاول ان يخلقه شعراء اليوم في ادبنا العربي ، فالشاعر هو من يرى في الاشياء اشياء غيرها .

نحا شعراء اليوم نحو شعراء العالم حتى في تسمية دواوينهم مثل: القفص المهجور ، والعوسجة الملتهبة ، وارجوحة القمر ، وافاعي الفردوس ، والروافد . الخ .

نبدأ بيوسف غصوب لان نوبته جاءت ، فديوانه اهدي الينا منذ اربع سنوات . لقد طال انتظاره عند الحوض كما طالت محاولتي درسه على سراجين : « اللاوعي » عن يميني ، و « البناء » عن شمالي ولكنني لم ابصر شيئاً فاطفأتها ورجعت الى قنديلي المعهود ...

ليوسف غصوب ، كما لكل شاعر ، مقاييس لم يسعدني فهمي على ادراكها ، ولكنني فهمت ان الرجل يعلم ما يجب ان يتم في المنظوم ليكون شعراً طيباً ، وان لم تسعده قريحته على الذي يريد ، وهذا ما لا يستطيع يوسف غصوب ان يعمله ولو علمه . ان في شخصية يوسف غصوب نفس شاعر مخضلة لم تتألب حولها الظواهر الجوية لتتكون لالىء بديعة في غصون الشعر ، وقد رأيت صاحب القفص المهجور ، في كتابه « اخلاق ومشاهد » ، أشعر منه في ديوانيه ، على ما فيهما من شعر نفيس .

هذى اناشيد موقعة ... انغامها الحرّى على كبدي
لا حكمة فيها ولا عظة ... بل صورتي صورتها بيدي
حالات نفس في مسرتها ... او في كآبتها ولم ازد

بهذه الابيات قدم غصوب ديوانه الجيد ، وهي حد جامع مانع للشعر الرومنطيكي ، قال زعيمهم هيغو :

اذا حدثتك عن نفسي حدثتك عن نفسك . غير ان يوسف غصوب امهر في تصوير الناس منه في تصوير نفسه - وما اصعب على

الانسان معرفة نفسه !

اؤيد زعمي بحكاية : دعونا عام ١٩٢٦ الاستاذ يوسف السودا للخطابة في جامعتنا الوطنية فاجاد وافاد ، وقوطع بالتصفيق الحاد... وازدهى الاستاذ قبل ان حلت به نكبة لم تكن في الانتظار . خطب احد صغار التلاميذ – في ذلك الوقت – قطعة من كتاب «اخلاق ومشاهد» عنوانها « المسيو لبنان »، فجاءت الصورة كأنها الاستاذ بعينه ، فاحمر وجه السودا حتى كاد يزرق ، ثم هدأت الزوبعة وشاعت في وجهه ابتسامة عليلة ...

اما القفص المهجور فوحدة كاملة ، والناس تعجبهم الوحدة في هذه الايام . وكان هذا الديوان مهيأ « لمرفأ السلام »، القصيدة التي نعدها ترنيمة الفوز والحياة للشاعر الحائر . وما استراح شاعر القفص المهجور حتى حمي من جديد في العوسجة الملتهبة واتجه اتجاهاً جديداً حتى في التعبير ، فواكبته ربة الشعر فجنى من العوسج تيناً . رأيته يتعرض لعلم النفس ويجيد التطبيق، مصوراً الاختلاجات الخفية بلغة قليلة الرواسم ، ولكنها غير غنية بالابداع الفني لولا التشبيه الذي هو غايته القصوى، وقد برع فيه واجاد ،وان استعار للاحلام غارباً في مطلع ديوانه .

اما الجو الشعري الذي توحيه مجموعة شاعرنا فجو اغبر ، ففي قلبه صوفية تذيبه ، وشعاره كشعار اولئك المساكين : لذّاتنا في الشوق لا في الوصال . ولعل الكبت يؤدي بهم الى التسامي .

قالت مدام دي ستال : كل ما فعله الانسان مدين به لعاطفته الاليمة نحو ما قدر له وكتب . واذا كانت (الانا) هي كل شيء

في الشعر كما يزعم الكثيرون من نقاد الغرب كان غصوب شاعراً كبيراً جداً لان كل ديوانه (انا) . وهي تطفو على شعره ولكنها لا تخرج من ذات عميقة بل قريبة الغور ذات وتر واحد .

ان يوسف غصوب واقف على مفرق الطرق يتأبى الشعر المبتذل الرخيص ولا يتأتى له الطريف الا بكد وعناء ، فهو ليس من شعرائنا الرمزيين الذين يجسدون كائنات هوائية ، ولكنه يحس بروعتها ويدعها وشأنها . فالشعراء الرمزيون يسيحون في جو عجيب الاضطراب ولا يذهبون تواً الى الاشياء ، فهم لا يعاينونها ولا يلمسونها بحركاتنا ذاتها . عيون حائرة وأيد تتلمس ... فتغرق «الصيغ» التي يعبرون بها في ضباب كثيف ، اما يوسف فواضح جلي يسمي الاشياء باسمائها . انه واقعي لان في نفسه مثلاً اعلى كما يقول برغسون . ليس للارض قيمة في نظره فهو متجه صوب السماء .. ولهذا غلبت رائحة المبخرة ونافذة الشهر المريمي على شعره.

القفص المهجور

يوسف غصوب اديب موّلته المطالعة ، وشاعر أثرى من السفرات البعيدة في آداب الامم ، يكاد يكون أول شاعر الف ديواناً في غرض واحد . ان ضربه على وتر واحد لا يخلو من جمال ففيه ايقاع بطل المقامة المكفوفية . ارانا الشعراء ، في اولى قصائد ديوانه ، ارواحاً تعبر بحار النور ، ومن اعاجيب هذه البحار «ذرى بعدها ذرى» يرقاها الشاعر ترقي الصوفيين في مقاماتهم واحوالهم ، فيملأ صدره عبير الخلد «ويسمع تسبيح الملائك في العلى» «وتلثمه

الارواح في خطراتها ، تقبيل الاحباب بعد الغياب ..

ان احبابنا الشعراء مفتونون بالشيطان والملاك ، حفيدي زرواستر ، وهم يرون ، وحدهم ، هذه الارواح السوداء والبيضاء ساعة يحبون ، حتى صارت التوابع والزوابع من مكملات حياة الشعراء ، والا فلا يكون الشاعر شاعراً . ثم يمسي الشعراء في نظر الاستاذ غصوب (فاطميين) بل كوناً كاملاً فيه الطور وفيه سينا وفيه حراء :

وحلت بنا روح الاله فقلبنا كمهبط وحي فاض بالنور والهدى

واخيراً يطهر الشعراء من كل ريبة ، ولا يبقى الا ان تشق قلوبهم وتغسل وتزال منها النطفة السوداء ... ولا يعدو الشاعر شيء من الحسن في الورى فيحدثنا يوسف في « قصته » الجديدة عن هذه المواهب :

غنى دونه جاه الملوك وعرشهم وكل نفيس من ثراء ومن ثرى

وفي الثرى والثراء خيرات لا تحصى دونها كنوز فرعون وان لم تصلح منجماً للشعر ... ويجيء دور رب يوسف الذي ولاه خزائن مصر فنطق :

وقال كثير ما وهبتم وانما تذوقون من جراء نعمائه الشقا

وهذا مصداق لقول القائلين : ان الدنيا تعطي وتأخذ ، كأم سيبويه ، فهي لا تهب بلا مقابل . ويغدق يوسفنا عطاياه على الشعراء حتى يضع اخيراً الجام في عدل بنيامين :

فتجلى لهم قبل الممات غوامض يحاربها من لا يرى فوق ما يرى

كما اصاب اخاهم امية ابن ابي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه .

اقرأ حكايته في روايات الاغاني لتعلم كيف شق الطائر قلب أمية ، ثم رده في موضعه وكيف انذره الغراب بالموت ومات لساعته . ومتى عرفت هذا ادركت ان يوسف مقتصد في وصف نعم الله التي يسبغها على اخوته الشعراء .

ويرافق غصوب الشعراء الى ما بعد اللحد فيصيرهم بهائيين (ينعدمون في ذات الوحدانية) ولكنه يحولهم الى نار ، والحمد لله على انها تضيء ولا تحرق فيقول عن نفسهم :

تقرب حتى تستحيل شرارة تضيء مع الانوار في منبع السنا

وهل نسي ان في الشعراء من لا يحلو له ان يستحيل ناراً ، بل يود ان يظل آدمياً بلحمه ودمه ، ولو عاش في آخر جنة المعري مع الخطيئة ...

اولئك هم الشعراء في قصيدة غصوب التي يذكرني اصطدامي بها بالمقصورة الدريدية ، وتائية ابن الفارض ، فوقع قوافيها كقطة القلم ، واسوأ القوافي وقعاً في نفسي المقصورة منها ، وشر البحور الرجز .

اما الجو الشعري الذي حمنا فيه مع الشاعر المحلق فحسبك تحديداً له ما ذكرناه لك من عوالم ، فيها ما يرى وما لا يرى ... ان بودلير ، معشوق شعراء شبابنا اليوم ، يرشقنا باول زهرة من زهور شره – بعد المقدمة – عنوانها (بركة) فيرينا كيف خلق الشاعر برسوم خاص صدر من ديوان ذي القدرة الجبار . جدفت امه من حنقها وتطلعت الى فوق بيد متشنجة كأنها اعتادت ضرب البوكس . اسفت كيف تغذي هذا المرأة – اي الشاعر – ولعنت كأيوب ليل الملذات الزائلة الذي القى في

مستودعها هذه (الكفّارة) . وقالت وقالت غير فاهمة ما يعده لها القدر الدائم .

ويعيش ابنها هذا في رعاية ملاك – وسيان في الايمان بالملائكة الشعراء الملعـــونون كبودلير ، والشعراء الطوباويون كيوسف غصوب – فيأكل شاعر بودلير طعام الهـــة الاولمب ، كهومير ، ويشرب انكوثر الفضي ، ويلعب مع الرياح ، ويحـــدث الغمام ، وينتشي مترنماً بالحان درب الصليب .. ويبكي الملاك – حفيـــد زرواستر – الذي يتبعه اذ يراه مرحاً كعصفور الغاب .

ان شاعر بودلير متزوج ، وشاعر غصوب عزب ، فتقول زوجه اشياء من وحي دليلة ... واخـيراً يرفع الشاعر يديه نحو السماء ، كالقديس انطونيوس اذ ظهرت له الشياطـــين في اشكال شتى ، ويهتف :

تبارکت یا ربي ، يا من تعطينا الألم دواء الهياً لرجاستنـا ، و كأحسن واطهر اكسير يهيء الاقوياء لاقتبال الملذات المقدسة . انا اعلم انك تعد مكاناً للشاعر في مصف الطوباويين وبـــين الجوقات المقدسة ، وانك تدعوهم الى عيد العرش الازلي الخ . واعلم ان الالم هو السمو الوحيد الذي لا تعجم عوده الارض والجحيم وان ضفر اكليلي الالهي يقتضي استهلاك جميع الازمنة والكائنات ...

ثم يبحث شاعر بودلير عن جميع اللاليء الضائعة فيراها كلهـا لا تكفي التاج الواجب صنعه « لجلالته » من النور الصافي المقتبس من موقد الأشعة الاولى المقدس .

تتساءل عما دعاني الى هذا . انني اتوب توبة داودية فلا اعـود

الى هذا فيما بعد حين اعرض للشعراء الآخرين ، ولكن لكل شاعر حديثاً عن الشعر والشعراء فكأنه يضع لنا هذه الاقيسة في مطلع ديوانه ليسد علينا الباب ... آفة الشعراء في كل ملة وزمان انهم يرون انفسهم من طينة عليا ، مزاجها من ماء نهر الكوثر وجابلها غير افدع كما كانت حاله بعد «المجبل» الكبير الذي جبلنا منه .

لم يتفق بودلير وغصوب في وضع سفر تكوين الشاعر ولكنهما تواضعا على تأليهه وجعله من عالم غير عالمنا . اما انا فالشاعر في نظري « خالق » ولكنه بشري مثلنا وهذه آيته الكبرى التي أؤمن بها . لا وحي هناك ولا ضرائب سخنة ، ولكنه محرك (موتور) يستطيع التحليق في اجواء بعيدة ، والشعر كلام فلا وحي ولا الهام . ولكن الكلمة في الشعر الغالي تحمل فوق طاقتها ، كما رأينا في قصيدة بودلير . اما شعار الشعر الرخيص فهو : ما كلف الله نفساً الا وسعها . في الشعر الغالي لا تدخر الكلمة شيئاً من جهدها لتدخل ملكوت الفن ، وهي الآلة الكاشفة لاسرار المياه والمعادن المحتجبة في بطن الارض .. وساعة يوقفنا الشاعر عند فتح نقدره نحن ونقدر نتائجه يكون شاعراً فقط لا عبقريا . فالشعر خلق لا صلاة . ومن يعتقد غير هذا فليصلّ ... ولكنه في لاهوتي من الهالكين ودعوته لا تستجاب .. فلنخلق .

«القفص المهجور» هو النشيد الثاني من ديوان القفص المهجور . اننا نحب حتى الحزن هذا الغناء اليوسفي الذي نجى صاحبه من الجب ليسير مع القافلة في صحراء التيه . ان قصيدة القفص المهجور موحشة ، وقد يكون عنوانها سبب هذه الوحشة ، ويزيد الطين بلة

ورود الموت والقبر في مطلعها . اما «وحشة القلب» على ما اولت لفظة «حنظلت» مطلعها من مرارة وخشونة ، ففيها شعر طلق :

لا تقل باسم فربّ ابتسام كسراج يضيء في كوخ بؤس
طفح القلب بالهوى وهواه ضائع كالشموع في نور شمس
او كعين تفجر الماء منها فوق جدباء لم تحل بغرس

ان هذه الارض الجلحاء تفقأ حصرماً في عين الهواء القالع فليمر فيها بترتيب أو بغير ترتيب .

برأ الله انفس الناس أزواجاً تداعى فكل نفس لنفس

المعنى متداول ، ولكن ما الحيلة والشاعر يريد أن يقول هذا ويفتش عن شقيقة نفسه، فليته يصون شعره في قابل عن هذه الاذيال كقوله: «تداعى» ، ثم : «فكل نفس لنفس» . قد بلغنا الغاية عند «ازواجا» فماضره لو كفانا القتال ونحن مؤمنون بشاعريته؟!... واذا تنطسنا قليلاً قلنا ليته قال : برأ الله انفس الخلق ، فالناس أضيق من ان تسع الجنسين، والشاعر يترجم هنا قول التوراة ذكراً وانثى خلقهما ...

ويدخل الشاعر قصر الحب ، ويتكيء في قاعة «الانتظار» حتى يطول عليه ويؤلمه فيقول شعراً طريفاً :

قربت ساعة اللقاء وغاضت في دجى الليل كبرياء النهار
ارقب الحب خاشعاً كنبيّ يرقب الوحي في ظلال الوقار

ليته استعار لهذا النبي مسوحاً بدلا من ظلال فتجد كبرياء النهار شقيقة نفسها كما وجد الشاعر بعد هذا الانتظار شقيقة نفسه . وتنبري التشابيه عند الشاعر بروعة شعرية عذبة تتجلى فيها امامي

لاول مرة شاعرية يوسف غصوب الخصبة في قفصه المهجور . لا اواخذه الا على « ساري » فمن حقها النصب ، وليس من حقه ان يقف عليها . ولو خلت هذه القصيدة من بعض هنات هينات ، لتمت كنعمى بني امية عند اخطلهم . وهي عندي مع ذلك من خير الشعر العربي . ويوسف الذي لا يصرّع قلما يأبه للمطلع ، ولكن قصيدة « الانتظار » جيدة الاستهلال رائعة الختام ، وليس اجمل من : آية اليأس في جبين النهار ...

وفي « نجوى » صورة طريفة ايضاً حيث يقول للتي ناجاها متهدداً بالاستشهاد :

هلا عطفت عليه فان في مقلتيه
تضرعاً وملامه

ان هذا التضرع والملامة الهازئة لا يفارقان عيني شاعرنا . ويقبل يوسف قبلة ، اخالها الاولى من نوعها ، فيحس انها تركت في موضعها طيباً يعطر أيام الشاعر واحلامه ، وبعدها زاداً — غير « زاد المعاد » — يشد من ضعفه ، وبينما هو في هذه الفورة ، في عز حبه إذا به يحدثنا عن الامل ويصفعنا بهذه الحكمة المريضة : واثبت ما بني الانسان قبر ... قر ... يا يوسف . استعجلت . ما لهؤلاء الشعراء لا يفكون ريقهم بما يسند قلبهم حتى يستجيروا بالقبور ، غفر الله ذنوبك يا مدام دي نواي ...

وعلى ذكر القبر اقول ان اروع ما اوحاه القبر للمتقدمين والمتأخرين قول الشاعر ابو شبكة في رثاء صديقه فليكس فارس :

تراب القبر اهنأ من فراش على جنبيه ثعبان وحوت

ارأيت ؟ ! هنا ضالتنا المنشودة، هنا حمل الكلام جبالاً وما ناء تحتها ولا اشفق منها ... وفي قصيدة الخريف الجيدة لا بد من لفت الشاعر الى بيت متداع . وقع فيه يوسف بفخ الوزن فاستغاث « بتلكما » حيث قال :

يا صاحبيّ اذاقضيت فكفنا جسدي النحيل بتلكما الورقات

فآه من صاحبي العفنة ، والف آه من تلكما ، فهي لا تقع في حوز شاعر يرتضيها مادة لشعره ، ولا خوف من انقراض نسل الكلام لنفعل كبنات لوط ...

اما « ذكرى » يوسف فما نفعتني شيئاً ، وما رأيت فيها إلا تشابيه مألوفة تدل على ان للشاعر عيناً ثاقبة تحسن النقل وقلما ترينا شيئاً « فوق ما يرى » ، وكذلك « رؤياه » فما وفقت الى تأويلها وقد يكون علمها عند ابن سيرين وفرويد ... اما « جنة الاحلام » فهي حديقة شعر وحسبك منها هذا الضياء الذي جمده يوسف في هياكل الاجسام ، كأنه وجد حجر الفلسفة المنشود . قال يعنف فؤاده الأعمى :

يا فؤادي الا ترى غانيات بارزات من مكمن الآجام

مع ان ولوج الآجام والكمون فيها يصعب على سيدات :

عاريات كأنهن ضياء جامد في هياكل الاجسام

يتثنين كالظلال خفافاً مايضرن الاعشاب بالاقدام

قلنا انها حديقة شعر ، والحدائق لا تخلو من الطفيليات ، فلا بد من تنقيتها ، فما الذي اضطر الشاعر الى القول : « كلما مرت النواسم فيه » ..؟ في مكنته ان يقول « النسيمات » فما دعاه الى هذا التعسف ؟

اللهم ان لم يكن بحاول التجديد عن طريق الجموع وبعض الصيغ كأصحابنا المصريين ، حرسهم الله .

ويرى يوسف العذارى يستحممن فيدعو قلبه الى الاقامة عندهن ، كما تمنى بطرس على سيده في طور طابور . ادهش يوسف المشهد فلم يكن فاتكاً كامرىء القيس ، ودعا قلبه فما لبّاه ، بل سار به الى مرفأ السلام .

« مرفأ السلام » خاتمة القفص المهجور . يسأل فيه يوسف الحبيبة التي وجدها ، بعد ان يعترف لله الاب الضابط الكل ، ولها بجميع خطاياه لتحله منها ، وتطهره .. فيصور لنا ما قطع من الاودية حتى تحسبه تأبط شراً . القصيدة صورة حاله إذ كان كالابن الشاطر . ولو فصل فيها ما أطعم الاصدقاء وما سقاهم ، لقلت انها اخت قصيدة الواساني التي وصف فيها ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في قرية « حمرايا » من اعمال دمشق . قال ذاك في اصحابه الذين خربوا بيته ولعنوا اباه :

رحلوا من بيوتهم ليلة المرفع ... من اجل أكلة بجّان
قصدت هذه الطوائف حمرايا ... لمنكي وذلتي وامتحاني
قلت ما شأنكم ، فقالوا اغثنا ... ما طعمنا الطعام منذ ثماني
افقروني وغادروني بلا دار ... ولا ضيعة ولا بستان

ومما اكلوا :

اكلوا لي من الجداء ثلاثين ... قريصاً بالخل والزعفران
اكلوا لي كشكية فرحت قابي ... وهاجت لفقدها اشجاني
اكلوا لي سبعين حوتاً من النهر ... طرياً من اعظم الحيتان

ومن البيض والمخلل ما تعجز عن جمعه قرى حوران
فتنوا لي من السفرجل والتفاح والرازقيّ والرمان
والرياحين ما رهنت عليه جبتي عند احمد الفاكهاني
ذبحوا لي بالرغم يا معشر الناس ثمانين من معيز وضان
اكلوا اكلوا ..
ثم قالوا هلم شيئاً فناديت غلامي قم ويك فاخبأ حصاني

القصيدة فكهة جداً، وهي مؤلفة من ١٩٦ بيتاً تجدها في اليتيمة الاولى ص ١٦٦ طبعة دمشق .

ثم لاذ يوسف بظل هذه الصديقة فغفرت له جميع ذنوبه وخطاياه، ونضحته بالزوفى فابيض اكثر من الثلج – حسب قوله :

وبات قلبي انقى من مائه في الصفاء

يريد ماء هذا المرفأ العظيم الذي القى فيه مرساته وربط مركبه:

تضيء عيناك فيه كالانجم الزهراء
فطهريه بحب صاف وصدق وفاء

ويهتف ختاماً

يا ملجإي يا ملاذي يا بلسمي ورجائي

قلت : ولعل اسمها مريم ، فتتضرع لأجله ، وتتشفع فيه ، وتتحنن على موتاه . آمين !

العوسجة الملتهبة

القى الشاعر غصوب انجره – باطره – في ذلك الثغر المطمئن الهادىء، الصافية مياهه كعين الديك . وتطهر صاحبنا فصار قلبه كمائه

البلوري في الصفاء . وما قلنا استراح المركب في الميناء ... حتى رفع المرساة واقلع «الفلك» العجيب .

التهبت العوسجة ونار العوسج حامية . وقديماً اشتعلت العلّيقى وكلم موسى ربه منها واختاره كليماً . أما يوسفنا فكلوم لا كليم . انفجرت عاطفته من جديد ، واستيقظ قلبه بعد غفوة غير كاملة ، وكذلك قلوب الشعراء والنساء لا تخمد فيها ثورة حتى تشب اخرى في احدى زواياها فيتقد البيت . لطا صاحب القفص المهجور في المرفأ عند هبوب العاصفة ثم حل المراسي ، وسار فلكه ، وباسم الحب مجراه ، وإذا به يقول لنا :

أعددت فلكاً للهوى عجبا بالطيب والانوار منتقبا
علقت في أمراسه سحباً حمراء تحسب موجها لهبا

وصفات هذا الفلك أشكال وألوان ، فهو كسفينة جبران المرقشة . ولكن قصيدة غصوب غير جوفاء كذلك ، وإن خاب ظننا في توقع نهاية أروع لهذا الفلك النوحي الجديد الذي «تجاوز الآفاق والقطباء» ، ولم يستو لا على الجودي ، ولا على أراراط ...

إن الشاعر غصوب في عوسجته الملتهبة أغزر خيالا وأرصن تعبيراً منه في القفص المهجور . فهو فيها يخوض وسط المعمعة ... رأيته يتطور تطوراً محسوساً جداً كتطور الفراشة . ففي «شبهات رؤى» شعر طيب ، وان لم يخل من الرواسم كقوله :

والزهر المنثور من حولنا رصعه بالدر طل الحياء

ولا من الركاكة كقوله : «وكل شيء اضاء» :

ونظرة باسمة في الضحى تفوق نوراً كل شيء اضاء

وفي « الجنازة الحمراء » تطل علينا أشباح بودليرية راعبة كأننا نرى « جيفته » . ويوسف يحذو حذوه في « اللازمة » فيعيد بيتاً او بيتين احياناً في هذه ، ثم في قصيدة « المساء » التي تليها .

وفي « عودة الربيع » تراجعنا ذكرى « خمصانة » المتنبي ، رحم الله أبا الطيب فقد كان ذلك الرجل من ذوي الذوق السليم . كانوا في زمانه يحبون أكتاب الرمل ، وكلما سمنت الحبيبة وغزر لحمها وتهدل ، عظم حسنها كأنما تؤخذ الى المسلخ ... اما المتنبي فتناهى في الرقة حتى قال : كل خمصانة أرق من الخمر ...

أما « النغمة العذراء » فرديئة الموسيقى ، لا آهات فيها ولا رنات . كل ما فيها تعاظل وابتذال ، اللهم في الفن الشعري . وفي « نور الفؤاد » يتجلى لنا ما يشبه رؤى سيلي بريدوم . رأى يوسف نفسه مسجى في نعش — سلامة قلبه من هذه النومة !

تضيء من حوله شموع التقى معقودة اعناقها بالحداد

اي لابسة « كرافات سوداء » ، والحجرة يغالب النور عليها السواد . وهناك دمع يبل جسده الذي امتد فيه الفساد . والخلاصة كان مأتمه حامي الوطيس عندنا ، والعرس في السبع الطباق الشداد كما يقول الشاعر العربي .

ويقول يوسف حكمة بعد الموت فيعير الناس اطماعهم ويتمنى ان لا يوقظ من هذا الحلم :

لا توقظوني ان اكن حالماً فقد اضاء الموت « نور الفؤاد »

اما نحن فنهنئه بالرجعة قائلين : « صح النوم » . ان هذه القصائد كلها جيدة الاول ، أما ختامها فخال من « الزخم » ، وهذا

ما انعاه عليه . فبدلاً من ان تلم قصيدته شملهـــا كقصائد هيغو وابي نواس اذا بها تتفلطح .

لم نذكر سيلي بريدوم عبثاً فغصوب من شعراء اليوم كسيلي بريدوم من شعراء عصره ، فهو لم يطفر طفرتهم اللفظية ، وبينه وبين الشاعر الغربي قرابة دموية في التصورات والخيال والرؤى . اما توارد الخواطر بينه وبين الفرد دي ميسه فقد سقطت عني مؤونة بحثه ، اقرأ « الباب المرصود » .

ويسمع يوسف في « نداء » صوتاً يسترعي انتباهه فيحدثنا قائلا:

كل يوم تصيخ نفسي لصوت هابط من عوالم خافيات
فهي تهفو الى المنادي وترقى كبخور اليه او كصلاة

وتخطر بباله الفلسفة فيتبعها بقوله :

أترى هذه النفوس الحيارى في اغتراب عن عدنها مبعدات
فالى عدنها تذوب اشتياقاً وحنيناً الى قديم الحيـــاة

وكما قال المسيح لبطرس : أنت رأيتني وآمنت فطوبى لمن لا يراني ويؤمن . طوبى لك يا يوسف فايمانك اكثر من حبة خردل ...

وأحب الاستاذ الفلك والسفن والمرافىء كثيراً فشبه نفسه بمركب ، حتى أرانا في قصيدة « نداء » دنيا بأسرها . فيهـا افكار مختلفة ، وفيها أوزان شتى ، وفيها أساليب متنوعة فكأن هـــذا المركب سفينة نوح التي وسعت الاجناس كلها ... وفيها شعر ايضاً ، فشاعرية يوسف في تقدم مستمر كما تشهد بذلك قصائده الطيبة التي أذاعها بعد هذا الديوان النفيس .

ويستمر الشاعر في العلو صعداً حـــتى يبلغ « سدرة المنتهى »

فيفتش تلك الآفاق فيجد العلم تيهاً والمجد لفظاً ، وفيما هو يغلي في هذه الرحلة العنيفة:

وإذ بروض ماؤه من مدام ودوحـــه مسحورة كلما
تمايلت غنت نشيد الغرام

فيدعو نفسه للاستراحة في ظل « سدرة المنتهى » فتقر زماناً ، ثم تستفيق مذعورة وقد راجعها داؤها ، والنكسة ويل وبلاء .

حنت الى عهد الليالي العذاب في صحبة الاحلام تسعى الى
اوطانها العليا وراء السحاب

يا ليت شعري، أين تكون سدرة منتهى شاعرنا التي رآها ؟ فالمعلوم أنه ليس فوقها فوق، وماوصل اليها أحد بعد، غير بشاره الخوري. وأخيراً يلقى حبل نفسه على غاربها في ذلك الربع الخالي :

فقلت عودي واسرحي والخيال في اربع مـــا خاب روادها
لذاتها في الشوق لا في الوصال

تلك حيـــاة الابرار والصديقين ، متّعنا الله بها مع يوسفنا العفيف ، ووقانا صرامة اللاهوتيين الذي يقاصون الناس بالهلاك الأبدي من أجل خطيئة الفكر ...

ها قد بلغنا « صلاة راهب » . ان تكن القصيدة صلاة فهي من أروع الشعر واطيبه، يجول فيها شاعرنا والبحتري في حلبة واحدة – شعراً وفناً وتصويراً – يصب فيها هذا الراهب النقي سخطه على حواسه الخمس واصغريه ، فيصـــير المجموع سبعة ، بينما الراهب الأصلي – جرمانوس فرحات – تشكى من أربعة فقط :

اني بليت بأربـــع لم يخلقوا إلا لشـــدة بلوتي وعنـــائي

ابليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم اعدائي

وكأني براهب غصوب هذا هو بولا أول الجساء ، فآلامه كثيرة جداً ، والدنيا كلها متألبة عليه فهو القائل :

رب رحمـــاك ما تريد فاني كدت في وحدتي اصاب بمسّ

قد عودتك الحكايات ، فحكاية القديس بولا غريبة عجيبة ، دلّ عليه القديس انطونيوس وحش كان نصفه شكل انسان ونصفه الآخر شبه فرس . وكان الغراب يأتي القديس بولا كل يوم بنصف رغيف ، ولكنه جاءه برغيف كامل حين زاره القديس انطونيوس . وعند موت بولا رأى القديس انطونيوس نفسه صاعدة إلى السماء ما بين الملائكة والانبياء... وبولا مات وظل واقفاً على قدميه ، كما خبر القديس انطونيوس الذي دفنه يعاونه على حفر قبره أسدان ، وبعـــد حفر القبر ركع الأســـدان أمام مار انطونيوس فصلى عـــلى رأسها قائـــلاً : إلهي ، يامن بدون عناية حكمته لا يسقط عصفور عـــلى الأرض ولا ورقة واحـــدة امنح هـــذين الأســـدين ما يناسبها (مروج الاخبار ص ٤٢) .

وفي « صلاة راهب » يلتقي يوسف مع دي فيني في قصيدته « موسى » ولكن راهب غصوب غير جسور كموسى دي فيني فلا يمن على الله بشيء ...

وينتقل يوسف إلى « العذارى » فكنّ حقاً مسك الختام ، ففي هذه القصيدة الرائعة يلتفت شاعرنا الواقف على « مصلبة » الطرقات صوب الشعر الجديد ، فيحلم الروض بالربيـع ، وينتشي الفجر ، وتنعس الروابي ، وترقد الوهـــاد ، وهلمّ جرّا . ويسجل يوسف

أخيراً إيمانه البريء في هذا البيت من القصيدة وهو ختام ديوانه فيقول :

تخسف الارض بالخطيئة لولا شافع الطهر في العذارى الصغار

فهو يريد أن يقول : لولا طهر العذارى الصغار لخسفت الأرض بسبب الخطيئة ، ولكن قوله جاء عكس ما يريد . ولو تم ما قال لاسترحنا من الخطايا كلها ، وغابت عن وجهنا في قلب الأرض ، واسترحنا حتى من الخطيئة الأصلية ... التي جعلت النفس تحن إلى عدن الذي خرجت منه ، كما جاء في شعر غصوب .

انتهت جولتنا في هذا الديوان الخصب الذي نعد صاحبه همزة وصل تربط القديم المتحجر بالجديد الطافر ، فهو اول شعراء الشباب الذي فكر بالاستقلال الناجز مع المحافظة على ما تجب المحافظة عليه .

يقول تين : إن الأثر الفني تعمله ثلاثة عوامل : الجنس والمحيط والزمان : وقد نسي التربية الأولى التي عملت في شعر غصوب ما نلمسه لمساً . يعجب الناس لكثرة الشعراء المجيدين في هذا الجيل لأنهم لم ينتبهوا إلى هذه العوامل . ولو أمعنوا الفكر قليلاً في الغناء اللبناني العامي الذي تنام عليه أطفالنا ، وتستيقظ عليه فتياتنا ، لأدركوا سر شاعريتنا . فكل ما في لبنان شعر .

قد فكر العرب في الوراثة فقالوا : امّ عمر بن أبي ربيعة حميرية ومن هناك أتاه الغزل (أغاني جزء ١ ص ٣٠) واللبناني وارث غير سفيه ، أنمى تلك الثروة التي ورثها ، وزاد عليها من مربح الاسفار فأصبح أدبه الذي ترى وتسمع ، وصار الشعر على كل شفة ولسان ، حتى صرنا نرى شعراء الزجل يقيمون سوق عكاظ حيث يجتمع منهم

اثنان أو ثلاثة .

إن يوسف غصوب هو ابن هذه البيئة الموسيقية يمثلها أحسن تمثيل في فكرته وتعبيره. وديوانه أول انشودة تمثل شاعراً بلحمه ودمه. والشعر كما يفهمه يوسف «بناء» وقد بنى صاحبنا مدماكاً في قصر الشعر فعلى الذرية أن تعمل ما عندها ،فأدب الامة لا يبنيه واحد وحده . وإن كان ذلك فتلك غضاضة من قدر الملة والشعب وشاهد على العقم . تعجبني لغة يوسف النقية فهو على تأثره بالعجم عربي اللسان ، وقد جمع في ديباجته السهولة والقوة ، وإن أتت قوافيه أحياناً كأنها «غلق» . والقافية في نظري زاوية لا غلق ، ولكنها بخلاف نمط البناء توضع عند نهاية المدماك ... وهي تخلق القوة في البيت كله .

إن وثبات يوسف قليلة، والوثبات هي التي تعمل الشاعر الكبير، فاذا خلا منها الشعر يحق لنا أن نقول مع بوفون : شعر مثل النثر الجميل . والشاعرية العظيمة تظل دائمة الاشعاع حيث ترى، فكأنها الحباحب في ليل الفكر . لا بدّ للشاعرية من الوميض كل حين، وهذا ما لمحته عند غصوب في العوسجة التي هي خير من القفص . كما أنني قرأت له شعراً ، بعد الديوان ، كان أعظم وقعاً في نفسي من شعره الاول .

والجمال الفني عند شاعرنا عام، ولكنه غير باهر ولا فاتن . أعني بالعام جمال الغرض والعاطفة والشعور والصيغة . ولكن ليس في شعره كله قصيدة تدور على الألسنة لتخلد صاحبها ، وإنّ طلبنا ذلك فقد نجده في بعض مقطوعات نشرها في المكشوف ، بعد طبع

الديوان . وإذا صحت نظرية جول ليمتر : ان الشعراء كباراً وصغاراً لا يقرأهم الا الشعراء الآخرون ، بطلت نظريتنا هذه ، وكان ديوان الاستاذ غصوب مقروءاً من الادباء جميعاً ، وسيقرأ دائماً لأنه جميل طريف وصاحبه يقدس نظرية الفن للفن ، كما يبدو لي من عمله العنيف في شعره . فأكثر شعره معمول «توصية» أو قل أراد الشاعر أن تكون له قصيدة فكانت .

أما فضل غصوب الذي لا ينسى فهو هذا العمل الفني الحر الذي كان خير أمثولة للشباب حفظوها عن ظهر قلب . أطلق الشعر من قيوده ولم يقل قصيدة في موضوع غير شعري يوم كان الشعر يعمل غب الطلب . فأين الشعر مثلا في قصيدة بشاره الخوري الاخيرة «عودوا الى تلك القرى» فهو لو حبّرها مقالة لكانت أروع .

واذا كان فلان شاعر كذا وفلان شاعر كذا ، فيوسف غصوب شاعر الشعر اولاً .

حياه الله كشافاً مبارکاً ، أو رائداً أعجبته خضرة الدمن .

الياس ابو شبكة

•

فرغت من قراءة كتاب « الادب المقارن » فانسدت الدنيا عليّ . كدت انام على كدر لولا كتاب الف ليلة وليلة . من اجل هذا الكتاب ، وحده ، حشرنا المؤلف في زمرة قادة الفكر الانساني والعاملين على تغيير مجاري الخيال البشري . فاحرِ بنا ان نقيم لصاحبه اثر « الاديب المجهول » .

فما قول المتحمسين للطبع على غرار الجاهلية ، في كتاب ازدروه فصار كالحجر الذي رذله البناؤون رأساً للزاوية ؟... لقد يأسنا شعرنا من كل خير طلبناه عنده . اطبقت عليه حمى التقليد دهوراً . والتقليد اذا اجتزىء على كتاب لغة واحدة وسلالة واحدة ، كما فعل السلف الصالح ، يصبح ضامراً خسيساً . اعتدّ العربي بشعره اعتداده بنفسه حتى قال ابو الادب العربي : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب . اما مع «شعراء اليوم» فقد تنازلنا عن تلك العنجهية العارمة ، وصاهرنا الاجانب ، عن غير طريق الولاء ، فكانت لنا ذرية ادبية جديدة ليست كلها على

نمط واحد كمصنوعات « الفبارك » .

قد تعددت القوالب واختلفت السحن ، وتغذى الادب بدم جديد فانتعش بعد توتر اعصابه وتصلب شرايينه . فاستلهام الاداب الاخرى كاستنشاق هواء جديد يكسب النشاط والعافية ، على شرط الا نلهمس ما على موائدهم . فجديد الادب المتشابه لا يعمر طويلا ، ولا يخلد منه الا ما كان فيه غذاء الذرية ، ولكل ذرية مجاعة ، ولكل مجاعة قوت .

بدأ طلابنا يحسون ان حاجات نفوسهم ليست — مثلا — عند البحتري في وصف القصر الذي « ذعر الحمام وقد ترنم فوقه » ... فاينما مروا اليوم ، فهناك بيوت اشمخ وارفع منه عماداً . وليست ايضاً في ذلك الغزل المكرور الذي لا يدل الا على انه شعر .

ومن اولى من شعراء اليوم بالنفوذ في هذا المضيق ، فلكل دولة رجال . وها هم يخرجون الشعر من دهاليزه ليتشمس وتعاوده نضارة الشباب فينقى دمه الماصل وتزخر فيه كريات الحياة . ان التطعيم يرقي الاجناس وينوعها ، فلنطعّم والا فجنينتنا تظل باناً واراكا وغضا وبهاراً وعرارا ، بينما البساتين الاخرى تحفل بمئات الاجناس . فلنغرس ! فلنطعم ! وليتهمنا من شاء بما شاء ان كان في هذه التهمة حياة ادبنا واخراجه من كهوفه ، اما مللنا علك المصطكى ؟..

لا يستحي الانكليزي والروسي والالماني والفرنسي ان يدلنا على العناصر الاجنبية في ادبه ، اما نحن فنعد ذلك عاراً ، كأنما الفن يهبط علينا من السماء كالمن والسلوى ، او تخرجه ارضنا كالكمأة .

اننا لا نريد من اللغة الا المواد الاولية كالالفاظ والاصول ، اما الشكول فلكل عصر زي . وهذا ما يفعله شعراء اليوم كلٌ على قدر خياله وما طبع عليه ، وقد درسنا احدهم - يوسف غصوب - الذي عددناه بحق طليعة هذه الكوكبة ، وهنا نتناول الياس ابو شبكة في ديوانه الجديد - الالحان - الذي نشرته دار المكشوف .

*

جاء في أساطير اليونان، أن احدى البنات المدعوة سيرنكس فرّت من وجه الاله «بان» الى ضفة نهر وتحوّلت الى رماح قصب ، فتتبعها ذلك الاله الغضنفر وقطع من ذلك القصب وصنع شبابة ذات سبع قصبات مضمومة ، فعزوا اليه جميع الاصوات المخيفة . ونحن اذا قرأنا شعر ابو شبكة في «القيثاره» و «أفاعي الفردوس» و «الالحان» وما ينظمه أخيراً للمناسبات التي لا بد منها، نستطيع أن نعزو الى شاعرنا جميع الالحان من مخيف ومفرح ومحزن . قد يكون أقرب شبهاً بقصبة الفارابي التي ذكرتها غير مرة . ولئن كان الياس في ألحانه ابن الاله« اورفه» فهو في أفاعيه ابن الاله «بان» ، واننا نشكر لسيرنكس - أم طفل - التي فرّت من وجه فاستفزت شاعريته ووجهته في الطريق الخالد . ان تلك الأفعى التقية الطاهرة قد دبت لنار قلبه بالحطب فصهرته شعراً عسجدياً مصفى ، ونعم الكفارة زبورك يا داود ...

نقرأ القيثارة ، باكورة الشاعر ، فنتذكر ونحن نقرأ « أفاعي الفردوس » كلمة جرير في عمر ابن أبي ربيعة . ففي أفاعيه يبلغ فنه

القمة، وشاعرنا المبدع قد استحال ثلاث مرات، وهو اليوم يحبو الى الرابعة ، فهل من « ام طفل » اخرى تنبئ الشاعر وتنقذه من ولوج الباب المفتوح ...

انه في الطور الاول ـ القيثارة ـ من الطيور القواطع يطمح الى الآفاق العليا ويقصر طرفه دونها . وفي الطور الثاني ـ طور الأفاعي ـ طائر غريب كامر يسمو لينقض من علٍ وينشب مخالبه، أما منقاده فمعقوف كالصليب المعكوس. وفي الطور الثالث ـ الانسان ـ طائر بلدي تشجبك أنغامه وتعجب كيف استحال من اكلة اللحوم الى حسون فصيح يعيش على القشر . اما الطور الرابع فأعيذك بالله منه . أعيذ شعره من هذه الدعوات فبضاعتها بنت ساعتها، وفيها يصح قول النواسي : كلام الليل يمحوه النهار . اللهم لا تمح ذنوب الياس وخطاياه لترتفع أناشيد توبته الى أعاليك ...

في احدى المناسبات قال الياس عني « وحيناً عقرب » . هذه قافية البيت ، أما ما بقي فغاب عني . واني أقول لصاحبي سأحاول أن أكون أنعم من السنجاب، ولا أقول المر ففي جلد المر حاجة الى الحك، ان لم تحكّ له أنت تحكك هو بك، كما هي حال زكي مبارك أحياناً. فلندع « القيثارة » جانباً ففي فجيع « أفاعي الفردوس »، رائعة أبي شبكة، موسيقى غريبة . فغضب الانبياء وسخطهم الناقض كالبرداء يتطاير حمماً من براكين « أفاعي الفردوس ». وكيف لا يكون هذا وشاعره من قراء التوراة المدمنين ، يراها منبعاً للالهام، وانها لكذلك، لما فيها من القصص الدسمة... فهي أخصب الدمن وأمرعها للشعراء الشباب وغيرهم . هناك دمن خضراء لا

ينقضي ربيعها، اعتدال طقس ، وحرارة ملايمة ، اخرجت هـــذه الخيرات، انها كالوطن الذي كتبت فيه تدر لبناً وعسلا ...

اخذ الشاعر منها موضوعين بعثهما من جديد ، واحياهما بما عنده من عاطفة جشعة ونفس متقدة، فلا بدع إن قلنا ان أفاعي فردوسه عريقة الحسب والنسب تستأهل انجيل سلسلة لتتصل بامنا حواء التي أورثتنا الخطيئة الاصلية... ولولا عماد السيد في الاردن من يد ابن خالته، ثم موته على الصليب لما كان لنا العلاج الشافي من دائنـــا الوبيل، ولظل أبونا آدم والابرار من نسله في ظلمة اليمبوس الى الآن ...

ألا ترى « أفاعي الفردوس » عنواناً طريفاً ؟ اننا نستهول اسمها ولكننا لا نستطيع الحياة بدونها، بل نستلذ لدغها ويطيب لنـــا جحرها . انها مائدة مأكولة مذمومة .

إذا ما أشرفت على دنيا « افاعي الفردوس » جثم عليك جوّ سادوم وعامورة بكل مـــا فيه من زفت وكبريت وبحر ميت وأعمدة ملح . يريك شاعره الحاوي الجبّـــار أفاعي بشرية فتصك وجهك وتسدّ منخريك إذا واجهتك . ورغماً عن هذا الجو الخانق فأنت تحسّ أنك تقرأ شاعراً ملهماً ، شاعراً له ذاته ، وله نفسه ، وله شخصيته ، ولشعره طابع أصيل . فيه الصور الراعبة ، على ما في خلق الصور الجديدة من صعوبة .

لا تجزع أن أقل لك هذا فالوردة تعيش جذورها حيث تعلم ، وتعطيك أقماراً ينعم بها انفك ويزدان صدرك . والتفاحة كذلك، والشعر شيء كهذا . والياس في « أفاعي الفردوس » من الشعراء

الملعونين ، وأقوى حواسه اللمس والبصر . لست أرى عليه حرجاً في هذا الجوّ السادومي ، فهو شاعر يحيي الماضي ليؤدب الحاضر . وما زال لا يختلف في المغزى عن المفسرين وعلماء اللاهوت فأي ضير عليه ؟ ! انه في أفاعيه شاعر الخطيئة لا شاعر الرذائل ، كما قال فرانس في بودلير . وأفاعيه كالحيّات كلهـا ، حسن ملمسها وفي أنيابها العطب . وبضدّ الحيّات كلها لأن سمّها ترياق الحياة ، ولا بدّ لها منه ...

والأفعى الأولى هي دليلة ، صاحبة شمشون ، وبهـا يصدّر الشاعر ديوانه . أن قصّة شمشون طريفة كأكثر قصص التوراة . بشّر به امه العاقر ملاك الرب ، ثم ظهر لها ، ولم يدعها قبل أن تركّ لها وصفة للأكل خوفاً على الجبّار في البطن . حرّم عليهـا الخمرَ والمسكر وأكل الشيء النجس لأن ابنهـا العتيد مخلّص — عفواً ، مخلّص صغير — إنه نذير لله في البطن فلا يعلو موسى رأسه وهو مخلّص إسرائيل من الفلسطينيين .

أحبّ شمشون امرأة من بنات الفلسطينيين ، وفي طريقه إليها لقيه شبل أسد فحلّ عليه روح الرب فشقّه كالجدي ، وبعودته من عند الحبيبة اشتار عسلاً من جوفه فأكل وأطعم أباه وامه ، ثم تركته تلك المرأة فغضب على قومهـا وأحرق بيادرهم وزروعهم وكروم زيتونهم . أمسك ثلاثمائة ابن آوى وجعلها ذنباً إلى ذنب ، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط ثم أضرم المشاعل ناراً . أرأيت ما أصعب العمل ؟ ولكنه شمشون الجبّار ...

وتهدّد الفلسطينيون قومه فسلّموهم شمشون مربوطاً بحبلين

جديدين فقطعهما كخيط القطن ، وهجم فقتل بفكّ حمار ألف رجل منهم . وعطش شمشون ، قاضي إسرائيل ، ففجّر له الرب ينبوعاً . ثم نزل إلى غزّة ورأى هناك امرأة زانية فدخل اليها فكمن له أعداؤه عند باب المدينة ، فقام في منتصف الليل وأخذ مصراعي باب المدينة والعارضة وصعد بها إلى رأس الجبل . وأخيراً أحبّ امرأة في وادي سورق اسمها دليلة ، فصعد اليها أقطاب الفلسطينيين بعد ما أعياهم أمره ، وقالوا لها : تملقيه وانظري بماذا تكون قوّته العظيمة فنعطيك كل واحد الفا ومئة شاقل فضّة . وعرفت دليلة أن قوّة شمشون في شعر رأسه ، فأنامته على ركبتيها ودعت رجلاً وحلقت سبع خصال من شعره ، ففارقته قوّته ، فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه . وأخيراً جاؤوا به في يوم عيد ليلعب لهم ، فقبض على عمودي البيت فسقط عليه وعليهم ، ومن هنا جاءت الكلمة المأثورة : عليّ وعلى أعدائي يارب ...

مدار قصيدة شمشون على غدر دليلة به ، فشاعرنا ابو شبكة مهتاج للجبار القديم . ولا شك ان في حياة شاعرنا دليلة غدرت به فأغضبته حتى أسمعنا هذا الشعر الخالد وسمى ديوانه أفاعي الفردوس . وما أفاعي الفردوس غيرهن ... ان كيدكن لعظيم .

يلتقي الشاعر العربي والشاعر الفرنسي دي فيني في التوراة عند دليلة ، ثم يفترقان . اجتمعا كما تجتمع الاشجار المثمرة في البستان ، فلكل منهما شاعريته وخواصه ، وان وحّدهما الغضب على دليلة فقد تكون حالتهما واحدة ومصيبتهما واحدة ... الفريد دي فيني من الشعراء الذين استوحوا التوراة كأكثر شعراء الفرنج ،

ولكن له لوناً خاصاً ، كما ان لشاعرنا ابوشبكه لونـــه الخاص ، ولكل اديب اصيل ذات قبل كل شيء ، والشاعر الشاعر يخلق عالماً من العواطف والتأثـــيرات ، والقضايا ، والمفردات ، والانشاء الشخصي ، وهذا ما نراه عند الياس في «أفاعي الفردوس» ، فهو شعره المختص به دون سواه. وان سألني فضولي: ولماذا هذا اللون الاحمر القاني ؟ أجبته : هذا لا يعنيني ، ولا يعنيك . للفنان ملء الحرية في اختيار ألوانه وتنسيقها .

الفن التصويري ، وهـو ابن عم الشعر ، يهرب اليوم من رسم التاريخ والاساطير . والياس لا يصور دليلة الامس بل دليلة اليوم – دليلته هو – وكأني به قد أخفق في إحدى معارك حبه الفاصلة ، فاشرأبت بعدها عاطفته المكبوتة تهدر وتعج كمغارة أفقا . الضغط يحدث الزخم ، وهذا ما تمتاز به قصائد أفاعي الفردوس من شعرنا المعاصر كله . فهـذا الغضب الاسود من البقع الحمراء سيكون له شأن في الغد... وكأن الافعى قد أضلته بمكرها فسلط عليها صواعقه هذه . وان حمدت الله على شيء فعلى ان مطاف صديقنا لم ينته به الى أحد ديورة كسروان حيث يقضي على عبقريته بين صلاة المساء والستار .

ان من قرأ التوراة مثلي ، من الجلد الى الجلد ، يعيش في جو « أفاعي الفردوس » ولا يشكو بأساً . ليت شاعرنا عرض لقصصها الاخرى ، وأرانا صوراً كثيرة من صور الحياة ، فالتوراة مجموعة قصص رائعة لها كل يوم ممثلون عبقريون ...

ان عنوان « أفاعي الفردوس » يذكرنا شارل بودلير في «زهور

الشر »، ولا ينقص شاعرنا الا طلبة الشيطان . اما « الجيفة » وهي أشهر قصائد بودلير فتقابلها « قاذورة » أبوشبكة وهي مجموعات جيف . في « القاذورة » يكتمل الفن لشاعرنا ، وهي على غير طراز قصيدة شمشون التي نعود اليها ، فهو يخلق لنا فيها محيطاً مخيفاً من طراز بيئات « لامّنيه » خيالا ، وتعبيراً هداراً ، ورهبة يقشعر لها الجلد . واليك مثلاً منها :

فالفيت دنيا من فواجعها الورى ... على بابها لوح من الرق أسود
قرأت عليه أحرفاً خطها اللظى ... يروعك منها اثنان «سجن مؤبد»
فطوفت في غمر من الليل واحتنا ... يعربد والارجاس ترغي وتزبد
وللحمأ الغالي نشيش ورغوة ... كأن الورى مستنقع يتنهد
وأغمدت في صلب الدجنة ناظري ... وفي كل جفن لي من الهدب مبرد
فأبصرت أطباقاً تعمدها يد ... أصابع من عظم وتصبغها يد
صباغ يفور الخزي منه ملاصقاً ... اذا علقت فيه النواظر تجمد
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى ... تمور بها الديدان سكرى تعربد
مقاذر تمشي في الحياة طروبة ... تغني وأصداء القبور تردد
هم الناس في الدنيا تهاويل حنطت ... بكيت عليهم في جحيمي وعيدوا
وما هذه الدنيا يذرى رمادها ... لريح الفنا الا جحيم مرمّد

أسمعت هذه الموسيقى الغريبة ؟ أأدركت هذا القران المبارك بين الالفاظ ؟ وهذه الصور الرهيبة ألا تمثل جهنم على الارض :

وللحمأ الغالي نشيش ورغوة ... كأن الورى مستنقع يتنهد

فالورى مستنقع يتنهد ، والديدان سكرى تعربد ، والدنيا جحيم مرمد ، لولا بقية مشبوبة في شهوة الطين — الانسان . فهذه

الصور والتعابير والكنايات التي خلقها الشاعر هي ابعد ما يطمح اليه الفنان . فلا يلائم محيطه المختار الا هـذه الالفاظ المنتقاة ، التي تملأ الفم فلا يتملص منها الا بجهد وعناء . فهي في مكانها مع اخواتها على حد قول المثل العربي : وافق شنّ طبقة . وهذا هو العمل الفني. وفق الشاعر في « اخراج » قصيدته هذه فجاءت كانها القصة ، لها ما لهاتيك من حدود ومعالم ، فهو فى « القاذورة » شاعر وفنان معا .

وما هـذه القاذورة ؟ انهـا محيط عبقري خلقه الشاعر خصيصاً ليضع فيه ثلاث طبقات من الخلق : النساء ، واشباه النساء في الكيد والمكر ، ثم الشعراء . وفي ختامهـا يغضب الشاعر لعبقر الممسوخ ويصرخ صرخة المسيح حين هزّ السوط في الهيكل ويقول مثله :

وشاهدت اشباح السماء كئيبة عليك باسواط الاراجيف تطرد
ففيم ازغت النفس عن نهج قدسها فصارت مغاراً سافلا وهي معبد

كنت ارجو لهذه القصيدة الجنيّة ختاما اروع وازخم ولكن « سافلا » ضعفته .

٢

قال الحريري : عدت الى اصحابي عود الرائد الذي لا يكذب أهله ، ولا يبرقش قوله . إذن فلنصدق ولا نبال ، فالناقد رائد ، أهله الذرية .

انا راجعون إلى أمّ الديوان قصيدة شمشون ، فهي اكبر أفاعي الفردوس وأعظمهن خطراً . أفعى طرشاء لا تسمع صوت الحاوي ، ولكننا سنعالجها ببعض ما أوتينا من رقى . اذا قابلنـا

بين شمشون ابو شبكة وشمشون دي فيني رأينـــا قصيدة دي فيني تنهج نهج القصة وسمتها ، بينما شاعرنا العربي لا يخرج في شمشونه عن نمطنا . تفيض عاطفتـه وتطغى فتجتاح سدود الفن . والشاعر حر في عمله فهو لا يكتب قصة جبار اسرائيل ، بل يتوسل ببصرعه الفذ ليصب قدر سخطه على رأس « دليلته » التي تحطمت كبرياؤه امام جحرها :

ملقيه بحسنك المأجـــور وادفعيه للانتقـام الكبير

ان في الحسن يادليلة أفعى كم سممنا فحيحها في سرير

المطلع رائع ، والقصيدة كلها بركان متقد يقذف الحمم فلا يجرؤ على الدنو منه الا المغامر . أنى اتجهت في مقاطعها تترامى امامك قوافيها كانها الصخور تقذف من منجنيق . فعاطفـــة الشاعر تفح كالافاعي في الرمضاء . وبالعاطفـــة يحيا كلام الفنان وتتحرك شخوصه ، انها لحمة الادب الحي .

لست انقل لك منها شيئاً سوى البيتين السابقـين ، فالقصيدة محكمة الحبك لا يسوغ تفكيكها . ولو قال الشاعر « راوديه » بدلا من «ملقيه» أمن العثار ولم تصطدم سفينته بصخرة القاموس ، وكذلك « الشهباء » فهي لا تصلح سداداً لهذا الموضع ...

وفي « الافعى » تتكشف لنا الاجمة عن حنش ، والعياذ بالله . أفعى دونها حية ابن عوانة ، وعلى باب جحرها تيس ذو قرنين ، كانه صاحب امريء القيس يغط غطيط البكر شد خناقه ... في هـذه القصيدة انفجارات يسمع دويها من بعيد جـداً ، ويرى الاشتعال الذي تحدثه من امبال عديدة .... في هـــذه القصيدة التواءات

وتثنيات كانسلال الافاعي، وانتقالات فجائية من نوع حمل الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، او الالتفات. ولا عجب إن طابق الاسم المسمى فهي أفعى.

اجل سيراك الليل بعدُ تضمها ويبصرك المصباح تعصرها عصراً
وسوف ترى فيك المآثم نعجة قد التصقت في بطنها حية سمرا

مدهشة هذه الحية السمرا ... وانا على تسامحي في الفن تسامحاً لو حلم ببعضه ابو نواس من عفو ربه لفاز بالجنة، كنت أوثر الا تكون هذه القصيدة في الديوان، فما فيها الا تصوير انتقام مرّ مخز. ولكنها في كل حال احدى صور الحياة الصادقة. وشاعرنا يرى في الاعتراف منجاة، فاستراح حتى من خطيئة الفكر، وهو يقول في مكان غير هذا:

فرحت أسأل نفسي الدفاع عن كفراني
فلم اجد من يحامي عني سوى بهتاني

اما في قصيدة «في هيكل الشهوات» فتهدأ ثورة الشاعر التي لم أشهد مثلها في تاريخ ادبنا، ويدهشني قوله بعد ما اقام الدنيا واقعدها:

لي مهجة كدموع الفجر صافية نقاوتي والتقى ام لها واب
فكيف اختلس الحق الذي اختلسوا
وكيف اذأب عن لؤم كما ذئبوا

سنحاول ان نصدقه ولكنها ثخينة لا تبلع. ان الاعتراف يمحو ذنوباً كثيرة وكبيرة. وما احلى قوله فيما بعد لهذه الافعى الراصدة في شق الحائط للفراريج والزغاليل البريئة:

صبي الخمورَ فهذا العصر عصر طلى اما السكارى فهم ابناؤه النجب
لاتقنطي ان رأيت الكأس فارغة يوماً ففي كل عام ينضج العنب

لست أشك أبداً ان هذا البيت الاخير من الابيات الخالدة ، ولو عاد النابغة إلى قبة عكاظ لقال لصاحبه : أنت أشعر العرب يا ابن أخي في هذا البيت ...

ليت الشاعر قطع قصيدته هنا ، بل يا ليته استغنى عن قوله :

قد أشرب الخمر لكن لا أدنسها وأقرب الاثم لكن لست أرتكب

متى وجد النص بطل التأويل والاجتهاد يا الياس ... ولعل الخمر المعنية فارضية ، فالصوفيون أصناف ، وشاعرنا من الصوفيين الخمر... اما قوله : وأقرب الاثم لكن لست أرتكب ، فيشبه قول عمر ابن أبي ربيعة لأخيه حين جزع عليه من النار التي وقودها الناس . عمّر الله شاعرنا ليخرج لنا من أفاعيه ما يبزّ حية موسى .

ان أبو شبكة من سلالة امريء القيس وعمر ، وعلى يد هؤلاء ثلاثتهم تمت عندنا فصول الرواية الدائمة . وأظن الياس لم يُبق في قرارة الكأس شيئاً ، وان لم يحطمها على شفتيه كصديقه بشارة الخوري ... ليس لالياس ابتهار امريء القيس وعمر ولاقصصها ، فأفاعيه أشبه بمجمل أنباء المساء منها بوصف المعارك المفصل . ولئن كان يفوح عبير المسك وريّا القرنفل من جو الشاعرين الاولين فجو الياس تفوح منه رائحة البهار والفلفل . وصاحبنا ليس كالشاعرين القديمين في وطره عندهن ، ولكنه مغلوب يستعدي على صاحبته الدهر ليقتص له منها . وفي سبيل هذا الانتقام يضحي بالكثير من ذاته ليستعجل هرم تلك اللعينة قبل أوانه ، ويرى تلك الافعى

عجوزاً درداء أكل الدهر حديقتها السليمانية المسيجة بالسوسن ... وهذا ما يقوله في الشهوة الحمراء :

هاتي من العهر أشكالا ملونة نمر بها بعضنا بعضاً وننهدم

ألا يذكرنا هذا بأخبار النحلة التي تؤدي مهمتها وتموت ... ثم يقول :

سترجعين ولكن مثل آمالي جوفاء مشلولة في جسمك البالي

*

ذكر التي اختصرت عمري بشهوتها وخلدت عهرها الدامي لاجيال

وقبل أن نبرح هذا الهيكل الدامي نقول : ليته لم يقوّل « أم طفل » ما قولها إياه لذاك البريء ، فتحت « في كل عام ينضج العنب » ما يكفي ذلك الحزين ...

ان عند شاعرنا كثيراً من هذه الفجوات التي تحفرها صواعق الفن وتقيمها وادياً عميقاً بين الصورة والفكرة ، بين الكلمة والمعنى ليحل فيها الانفعال الشعري . والذي لا يستطيع القفز فوق هذه الاودية السحيقة لا يخلق شيئاً من الفن .

اللهم شدد ظهور شعرائنا وركبهم !

اما « سدوم » فهي اخت شمشون قوة ورعباً وفحيحا :

سكرت بك الدنيا سدوم فكلها زمر على طرق الحيـــاة متعتعه

وأثرت حنجرة الفجور فاطلقت حمماً على نغم الجحيم موقعـــه

أسدوم هذا العصر لن تنجحي فبوجه امك ما برحت مقنعـــه

قذفتك صحراء الزنى بحضارة ثكلى مشوهة الوجوه مفجعـه

بؤر مسترة الفساد بخـــدعة نكراء باطنز الشهي مرقعـــه

ثم ينثني الشاعر على نفسه ليشركها في هذا السمر الراقص فيهتف :

أسليلة الفحشاء نارك في دمي ... فتضرّمي ما شئت ان تتضرّمي
انا لست اخشى من جهنم جذوة ... ما دام جسمي يا سدوم جهنمي
طوفت بي ميتاً بأروقة اللظى ... فحملت تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبت بالشفق المجمر جبهتي ... فرفعتها في عصري المتهكم
مهلاً كلانا يا سدوم مسلح ... فلظاك في جسمي وثأري في فمي

وهذا سلاح الشاعر . واليأس من جسمه ، كأم الجاحظ منه في جهد جهيد . ومن مزايا سدوم هذا الانسجام الرائق والتسلسل المتدفق ، والتقطيع الموسيقي ، فكأنك تسمع سلماً موسيقياً يتصاعد بك رويداً رويداً حتى تبلغ القمة — القافية .

ان ديوان افاعي الفردوس وصف نفس في جميع اطوار الشباب ، ووحدته الشاملة في وصف اضطرابات تلك النفس الجائشة حيناً فحيناً . فكأنه ينفس بهذا الشعر عن تلك النار المحتدمة في صدره فلا ينشق مرجله . ومن الغبن الا ينظر الى هذا الديوان كفكرة ينثرها الألم لينظمها الشاعر . ان فيها عصارة قلب شاعر مفجوع . وعلى شاعرنا الامين ان يصرخ كابن الرومي :

أأفجع بالشباب ولا أعزى ... لقد غفل المعزّي عن مصابي!

وكانني ارى امامي على كل صفحة من صفحات ديوانه نقطة دم تغلي . ليست قصائد افاعي الفردوس ، مجموعة قصائد وانما هي قصيدة واحدة في قصائد ، تمثل شقاء الشباب في حبه المبكر . وقد اعترف شاعرنا اعترافاً كاملا عاماً وعلى مسمع من الناس . أرى الناس جميعا

ذنوبه وخطـــاياه ، واعترف كما كان يعترف المسيحيون الأولون للاخوة جميعا ، وكما اراد أن يعترف فولتير ولم يسمع اعترافه ... غفر الله ذنوبه – ان كان هناك ذنب غير الفن .

قد يرى غيري في افاعي الفردوس سماً زعافـــاً ، ولكنه اذا كان من المؤمنين حقاً فانه يشرب السم الناقع ولا يؤذيه . والسموم في احوال شتى تكون علاجاً مقويا . وهذا شاعرنا يخالجه شيء من هذا فيخاطب « الطرح » :

جئت في سحنة المسوخ فلم حطمت حلماً نما على احداقي ؟
ألأني بذلت حبي ولم اطعمك منه سوى الفتات الباقي ؟

رحم الله داود .. اذاً الشاعر مرتاب ، بشك اذا كان ما حدث عقابا لتبذيره ، ومتى كان الشك فهناك الضمير الحي الذي لا يموت .

ان في قلبيَ البغيّ خيـــالا من عفاف ما فاجرته البغايا

عمد الشاعر الى تمثيل شرور الحياة بأقبح أشكالها ، وساعده خياله الجامح فخلق ما خلق . كان شاعر الرؤى والليـــل ، شاعر الرعب ، المتأثر برؤيا يوحنا ، وأنبياء التوراة . صوّر شاعر الافاعي نزواته الظاهرة ولم يتعمق في تصوير الخلجات الباطنيـة لانه حفل بالنتيجة وترك المقدمات ، وكثيراً ما يستغني عنها الشاعر .

صوّر النفس الانسانية في مباذلها ، وقد وجهته الاقدار في هذه الى الطريق فكان ديوانه – كما قلنا – اعترافاً عاماً استحق لاجله الغفران الكامل ، لانه أتمّ العقوبة التي فرضهـــا على نفسه باخراج « الالحان » ديوانه الجديد ، تلك النغمات الشجية كاجراس الغروب ، النقية كندى الصباح .

ان شعر « أفاعي الفردوس » يظل حياً بصوره المرقشة الراعبة والوانه الغريبة وشدته الجهنمية. ان شيطان صاحبنا كبير، وكأن الشيخ لوسيفوروس وجه اليه بانشط رجاله وأنبغهم ... وان نقص هذا الشعر بعض اللمعان احيانا فهو يمتاز من غيره بلون خاص وبصبغة يتفرد بها من بين أصباغنا كلها ،وحسبه هذا.حسبه ان له فنا قائماً برأسه،لا شريك له فيه ، فيشقى كما شقي في حب « ام طفل » جزاها الله ما تمناه جرير لام عمرو ...

وبعد فليست حكايات الياس في « افاعيه » أشد خطراً من حكايات اوريامًا . واين توبة النواسي من توبة شاعرنا ؟ ان توبة ابو شبكة أشبه بتوبة ملافنة البيعة :

رباه عفوك اني كافر جاني
جوعت نفسي وأشبعت الهوى الفاني
تبعت في الناس أهواء محرمة
وقلت للناس قولاً عنه تنهاني
ولم أفق من جنون القلب في سبلي
الا وقد محت الأهواء ايماني
رباه عفوك اني كافر جاني

ما هذا شعراً ، هذه صلاة . ماذا قلت ، اني لاستغفر الشعر ، فما الشعر الحقيقي الا صلاة . ثارت نفس الشاعر على امرأة هشمته ولكن جراحه استحالت شعراً حياً. فافتدى الفن بدم قلبه الكريم ، واعتقه من عبودية الكلام ، وعبودية النفاق ، وعبودية التقليد .

وكم ولد الايمان من الكفر ، فهوذا الشاعر يهيب بابليس

صديق الشعراء :

حوّل خيالك عني ولا تخيّم عليا
فليس أهلك مني ولا اللظى من يديا
لم أغش في النفس مأثم ولم انادم رجالك
ابليس ليست جهنم داري، فحوّل خيالك

الست ترى شاعرنا لاهوتياً جديداً يعتبر النفس غير مسؤولة عن خطايا الجسد ؟ فلينعم بالا فالله غفور وهو القائل : ان كانت خطاياكم كالقرمز فأنا ابيضها كالثلج . ابشر يا الياس فما ضحيت من حمر النعم سيكون قرباناً ومحرقة تصعد في لهيبها الى السماء كالملاك الذي بشر بصاحبك شمشون ... بربك قل لي : أين انت في احمرارك من المجدلية الارجوانية ؟ ...

وبعد فهل لصاحب «أفاعي الفردوس» من فلسفة؟ أيرمي يا ترى الى تطهير الجسد بالذنوب ليضعف وتقوى النفس ؟

للاستاذ في ديوانه منهج يسير عليه، ولكن المصابيح المنصوبة في دهاليزه حمراء كلها... انه لاهوتي في الدينونة، وصوفي احمر في معظم قصائده، ونواسي في توبته، وفيلسوف في صلاته الحمراء :

فخّارة جبلت بالدمع والطين من عهد قايين او من قبل قايين
ما كان اسكندر فيها سوى شبح يحجب الشمس عن عيني ديوجين

الى ان يقول :

الناس واحسرتاه اثنان مختلفان
اعمى له مقلتان في العقل مبصرتان
ومبصر اظلمته عينان لا تريان

وفي حمارة القنوط يصرخ الشاعر بربه :

ادعوك والظلمة الحمراء تحرقني فلا تجيب وتـــلوي لا تنجيني

ويلاه كل شيء احمر ، حتى الظلمة .. ترك شاعرنا الرياء ووقف عارياً امام عين الشمس : فما وارى ولا وارب .

انه شاعر يريد ان يقول شيئاً غير الالفاظ ، فهو لا يخلق لك جواً شعريا ويتركك تتخبط فيه وحدك . انه لا يحجم عن استعمال الملعقة ... اثبت لي ديوانه ان ديواناً صغيراً يستطيع تصوير نفس كاملة فلا حاجة الى الاف البيوت ومئات القصائد ، اذا صدق الشاعر .

ان صاحب «افاعي الفردوس» اصدق شعراء اليوم على الاطلاق ، وقد يكون اصدق من اعترف ، من اغوسطينوس حتى جان جاك . واذا كان كل ما نبدي ونعيد مبنياً على الغريزة الجنسية فأبو شبكة في أفاعيه شاعرها المنشود . وليت فرويد يحيا ويتعلم العربية ، ففي صرخات شاعرنا مرعى خصيب لعلمه الذي يشغل الناس اليوم .

شغلت العلاقة الجنسية بال شاعرنا فوصف نتائجها ولم يعبأ بغير ذلك فكان في بحثه النفسي سلوكياً . هو في هذا الديوان مهاجم عنيف لا متغزل مستعطف ، يغلب عنده الذوق الحسي على الذوق المعنوي . وهو في كل حال لم ينس شيئاً ولم يخف شيئا .

لا اشايع الياس في رأيه بالمرأة ، فهذه المسكينة ذهبت ضحية الاساطير التي خلقها الذكور ، فرافقتها اللعنة طول العمر . ليس من العدل ان نشرب من البئر ونرمي فيها حجراً ...

وأخيراً نقول ان شعر «افاعي الفردوس» منخّل محكك وصاحبه مغيظ محنق ككل من ابتلي بحب حاد تواكبه الغيرة كما تواكب

المدرعات بواخر الشحن ... واني لاخرج من هذا الدرس متيقناً ان لنا مدرسة شعرية جديدة ليس لها من اللغة الا المادة الخام تفصلها على ذوقها وهواها . اما تأثرها باداب الامم والشعوب فلا شك فيه بل هذا ما يجب ان يكون لتدب الحياة في ادبنـــا ، ونخلص من معرض المومياءات التي تتقزز منها النفوس . وقصارى الكلام ان صاحب «افاعي الفردوس» شاعر رصين ، قوي الخيال ، حاد العواطف جامح الارادة ، احدث في الادب العربي اثراً جديداً سيعمر مثل متوشالح .

واخيراً ما لهذه الكلمة تتقدم وتردها ؟ ما لنا لا نمنحها الحياة ؟ فلنقلها : ان الياس ابو شبكة ليس بالشاعر المتمطي المهروق ...

امين تقي الدين

عذرت الموت لم اوسعه ذاما جلال الموت ان تدع الملاما
رسول الخلد في الدنيا يؤدي رسالته الى الدنيا لزاما
غشا لبنان يحملها فلما اطل الفجر مر بها لماما

هذا ما قاله امين تقي الدين في الموت، ونحن على دينه، وفق الله رحلته وسهّل طريقه وعسى ان « يعود » الينا احسن حالا... فقد مر ببوتقة الدهر وخلص بغتة الى عدوة الخلود. راع لبنان موت شاعره الأوفى فحامت العيون حول ذلك الفلك الصغير يخفق عليه ببرق الفن ولواء العبقرية، وما لفه ليل العدم بذيل ردائه حتى نفضوا أيديهم من ترابه وانقلبوا عنه يرددون :

فيالك نجمة لمعت فغارت فصارت في فم الدنيا ابتساما

يا صديقي الجديد !

ليت شعري، اعلمت انك استحققت شكر لبنان ؟ أشعرت ان الجبل الذي لم تتحول عن حبه قط، ولم تشرك به احداً، ولم تضرب قيثارتك الذهبية الا لتمجده، أشعرت انه وقف امس حيال نعشك يقدر اخلاصك، ويذكر فتاه الامين ؟... ضيعك حياً، ولم

يسمع صرختك المرة :

متى انت يا وطني مسعدي لقد افلتت همتي من يدي

ومتّ فجاء ليسعدك ولكن بالبكاء، وهذا حظ الاديب من دنياه.

ما كنت يوماً يا أمين ابا قلموت ، تودع الرائح ، وتستقبل الجائي . نشأت لبنانياً ، وعشت ما عشت لبنانياً ، ومت لبنانياً ، وحسبك انك القائل منذ ربع قرن :

كان في لبنان عهد طيب رحم الله الزمان الطيبا

يا بني لبنان ، لبنان اذا ما تباهينا دعوناه ابا

نسب شرّفنا بين الألى قيل عنهم يدعون النسبا

مرّ بالدهر ابونا أمردا وتشى فيه شيخاً اشيبا

نحن للشيخ بنوه والوفا ان يرى أنا بنوه الادبا

انما نحن اختلفنا بيننا حين يقضي العقل ان نعتصبا

فركبنا كل يوم مركباً وذهبنا كل يوم مذهبا

كلنا يسعى الى غايته ليس فينا من يضحي مأربا

ليس فينا رجل الشعب الذي ان دعا الواجب لبى الطلبا

وجعلنا الدين فينا فارقاً فتفرقنا به أيدي سبا

ويح لبنان اذا داع دعا فبنوه عن بنيه غُربا

ما أمر خيبتك يا امين ! لقد مت في أعصب الازمنة ، في زمن عادت فيه الطائفية جذعة ، وهي تتمخض لتلد أشأم من غلمان زهير.

أرأيت كيف يصور أمته شاعر القوم ؟ ألمست الأمى يقرض فؤاده ؟ لم يكن أمين إمّعة فيخلو من الهم ، بل كان راسخ العقيدة ، ضاحك الجبين كصنين ، ناضر الفكر ، صابراً كالارز يهزأ بالعواصف

ولا ينحني تحت الثلوج، لا تأخذ شمس آب شيئاً من ماويته فيذبل. ان صباحه وظهره ومساءه سواء.

لا تخف يا أمين، فلا شيء يستطيع ان يذوي سيفك الدائم، لا شيء يفقدك هذا الجمال الذي نعجب به، ولن يفتخر الموت بأنه رآك ذاويا في ظلاله، فالشعر الخالد يحمل اسمك وينقله من جيل إلى جيل. وما دامت القلوب تخفق والعيون ترى فهذا الشعر يحيا ويحييك معه.

لم يبقَ من أمين، بعد ما أعاده الموت أدراجه، الا الشاعر المشرق الديباجة الذي قال كثيراً من فاخر الشعر ونادر الكلام. نعم لقد مات الرجل، لقد مات المدره، لقد مات كل شيء الا الشاعر.

كان امين شاعراً مقلاً، لا يسمع الناس شعره الا اذا ابدع وأوتي شيئاً طريفاً. يسري شعره في الاسماع كما يستطير النور هادئاً رزيناً باسماً. كان امين يعمل للتجديد يوم كان الشعر يرسف في قيود التقليد، فهو لا شك من المجددين، ولكنه لم يكن ممن يدينون بالطفرة، فأسمع الناس كلاما لم ينكروه وجديدا اكبروه. واذا ارخنا التجديد في الشعر كان من الذين حلوه من اصفاده، فحمله رسالة جديدة الى الوطن والمجتمع، وارسله رائعاً تحسه، ولا تستطيع تحديده.

اشرفنا على عالم الادب فاذا اسم امين تقي الدين ملء آذاننا، وشعره في افواهنا نردده بين جدران مدرسة الحكمة التي جئناها بعده. نظم استاذنا الجليل شبلي الملاط «الجمال والكبرياء»، ذلك الموشح الرائع الجديد، في حينه، فنظم امين «الجمال والتواضع»

الموشح الآخر البديع ، فكانا حديث الناس في مطلع هذا القرن ، وبهما خطا الشعر في لبنان خطوة جديدة أعجب بها الناس ، ومشى الزمان ومشينا ، وها نحن حيث تعلمون .

كان أمين تقي الدين إذا سئل قصيدة بعد خيراً فأن وفق وفى ، وإلا فيخلف ولا يبالي، لأنه يؤثر الفن على العالم أجمع ، ولا ينشر الشعر إلا إذا رضي عنه . قال امين الشعر في أغراض مبتذلة ولكنه كان في كل مقام يخلع على مقاله حلة من بيانه . تقول في نفسك : ما عساه يقول أمين اليوم ؟ أغير كذا و كذا ؟ وإذا به ينقلك إلى عالم غير الذي ظننت ، وإذا بك تكبر ذاك الدماغ الخصيب .

خصت الطبيعة شاعرنا باذن لا تكذب ، وذوق لا يغش ولا يخدع ، فقلّ في شعره النمش والبثور ، وخلا من الدمامل والقروح . لزم في أكثره حدود الاعتدال فهو لا يبالغ ولا يغلو ولا يقول ما لا يحتمله الناس .

عرفت أمين تقي الدين في الخبر زمناً ، وعرفت شخصه منذ عامين وأشهر ، والشكر لمدرسة الحكمة التي جمعتنا خطرتين ، وكان آخر العهد منذ اسبوعين ، حيث قعدنا جنباً لجنب نتحدث ولا نحسب أن الموت يتلصص ليغتال أحدنا .

مات أمين ولكنه أدّى رسالته ، وإن قلّت كلماتها ففيها الغنى عن الكثير . كانت «زهوره» باكورة موسم التجديد في القاهرة وإن لم تعمر فذاك عمر الزهور . وها هو يلحق بها تاركا خلفه ما تتركه الحسناء المتطيبة بعد مرورها ، وان تمنينا فنتمنى ان نرى هذه الآثار مجموعة لنقول فيها كلمة صارمة غير مطاطة كهذه .

اما الذي نقوله الآن ، ولا رجوع عنه ، فهو ان امين تقي الدين شاعر شاركَ في التجديد ، وهو من مؤسسي النهضة الجديدة ، وألمع شعرائها . ولو انصرف الى الشعر انصراف احمد شوقي له ، وتهيأ له ما تهيأ لذاك لكان مثله قيدوم شعراء جيله . ولكن شاعرنا قال اكثر شعره مدفوعاً اليه ولو تركوه لعدّى عن اكثره .

لا نسأل الادباء شيئاً لأمين ، فهو غير يتيم ، وأمه مدرسة الحكمة اخت الرجال فستقيم له يوماً مشهوداً يذكرنا أيامه فيها ، ولأمين أيام مشهودة ، ولا عجب إذا جلى الأصيل .

وآخر ما سمعت من شعره العذب بضعة أبيات نظمها نشيداً ، رواها لي صديقي وصديقه الاستاذ رشيد كنعان يوم السبت الماضي فحفظت منها بيتاً لعله كما ارويه :

خبّأت يا ليل فيك همي يا ليل من خبّر الصباحا

أجل هكذا بات أمين شجياً وأصبح خلياً . ترك همّه في فراشه وانسل غدوة كالضيف الخفيف الظل . هنيئاً له فقد استراح !

وإذا كان آخر العمر موتاً فسَواءٌ طويله والقصيرُ

فليكس فارس

•

احبّ أن يقرأ كلمتي حياً فأبى الدهر إلا أن تقال فيه ميتاً . ما أقلّ عقل الأديب ، وما أسخف هذا الذي نسميه أدباً خالداً .. ماذا يظل بعد تلاشي الذات وفناء الهيولى ؟

استرح الآن يا فيلكس ، فلا بكاء ولا رثاء ، فمثلك لا يبكى ومثلي لا يبكي ، فالبقاء لله ، ولعبديه إيليا وأخنوخ ... حننت إلى هذه الكأس شاباً فشربت بها كهلاً ، أما أنا فأرى اليد الأزلية تلوّح لي بها واصدف بوجهي عنها ، لأني غير عطشان ، وسوف لا أشربها إلا غصباً عن رقبتي . فلا قرب القضاء نوبتي ، وليتني افلت من يد القدر لأعلم زهيراً كيف لايسأم المرء تكاليف الحياة .

كم تسامت يا فيلكس ، وكم تشامت ، وها أنت تبلغ ما تمنيت فقل لي كيف تجدك الآن ، أ أنت أرفه حالاً ؟ هل اخترقت عيناك الثاقبتان سجف الأبد ؟ وهل للشوق والحب من معالم في دنيا الخواء ؟

هيهات .. لا تقل لي ، ولا أقل لك ، أيها اللاشيء ، لا تحدّثني عن أشياء لا وجود لها إلا في مخيلة البشر . وهنيئاً لمن يموت على رجاء .

غداً يرحبّ بجثمانك الثغر ، وتنتصب حـــول نعشك جبابرة الجبال ، ويضمك إلى صدره السهل . غداً تستحق شكر لبنان ، ويختم تابوتك بتلك القطعة التي يسمّونها وساماً ، فأي غد تنتظر ؟

كل هذا لا يساوي ساعة متعة أخلصت فيها للحياة فوهبتك من عطاياها أثمن الكنوز ... أنها لا تهب إلا نفسها ، تهب وتستردّ وفي هذا بقاؤها ، فهل تعقم مثلنا في غد ما فتنتقم لنا من نفسها ، ولا نعود نسمع على ظهرها من يعزينا بقوله : « سبحان الباقي » .

*

متى تقدمت السن بالمرء يتغذّى بذكرياته كما يتغـــذّى الجسم بخلاياه. كان فليكس أعشى مني يوم تعارفنا فقد كنت جذعاً وكان قارحاً ، وما عساي أذكر من فليكس غير نفخات وآهات ، غير تشاؤم مرّ ، غير تلك الابتسامة الواضحة الغامضة التي كان يستقبلني بها ، أو يحملها إليّ في الغداة والعشي .

كنا نجتمع غالباً في غرفتي المعلّقة الواقعة جنوبي ما يسمّونه اليوم « تباريس » ، وكانت على صغرها مجمع الخلاّن – ادباء ذلك الزمان – وهذه واسطة عقدهم قد انفرطت اليوم . جاءني يومـــاً فرآني معلّقاً صورة نيتشه وقد كتبت تحتهـــا : فليفن الضعفاء والمخذولون ! أيتها الأم كلي ابنك . فاعجب بهذه الفلتة ... وكنا كلانا نكبر فرح انطون الذي عرف الأدب العربي بهذا الفيلسوف الغربي ، وكنا نقرأ معاً ما يترجمه فرح من زاراتوسترا مسلّمين ومميّزين ومفكّرين ، فراريج تحتكّ بديك الدهر .

كان فليكس يحبّ الفلسفة ، وهو ابن أب كان شيئا في زمانه.

كان والده حبيب محامياً مدرهاً وله كتاب « صراخ المظلوم في بوق الحرية » يحمل فيه على اليهود ، وكان عمه انطون فارس صاحب جريدة المرصاد الحرّة . أما ام فليكس فراقية مثقّفة ، في وجهها سيماء المرأة الفاضلة . عرفتها ببيتها في المريجات حيث نزلت عليهم ضيفاً أياماً ، فوقعت عيني أول مرّة على بحر البقاع الأخضر ففتنني . لا أدري كيف أصف ذلك التأثير البالغ الذي استحوذ عليّ ساعة وقفت أمام بيت حبيب فارس ورأيت الزرع يتعانق تحت أذيال النسيم .

نشأ فليكس في ذلك البيت الملهم الذي تسوسه ام مثقفة كانت لابنائها كالاخت الكبرى يشعرون انهـــا تحبهم وتحترمهم . وجاء القسيس في ذلك الزمان ، واعدت مائدة الفصح ، فجلس القسيس وام فليكس اليها ، وقعدت وفليكس عـــلى صفة قبالتها . وتلا القسيس حكاية علية صهيون وكسر الخبز وتناولا صانعين ذلـــك لذكر يسوع فاعلين كما فعل ، اما انا وفليكس فكنا بين بين ، لا بطرس ولا يوضاس . شهدنا الوليمة التي انتهت ولما نذق كسرة من خبزها لاننا لسنا من المشتركين ..

لا يعنيك ولا يعنيني ان كانت ام فليكس بروتستانية وابوه مارونياً ، ولكن الذي يهمك ان تعلمه ويهمني انا خاصة هو ان فليكس « مطعّم » فامه اجنبية لا اعرف جنسيتها بالضبط ، وخاله كما اذكر رجـــل دين ذو شأن في ملته ، وهو من رجال العلم والفكر .

لم يكن فليكس منبسطاً في نكتته ولا منقبضاً ، كان يرسلها موجزة ويترقب تأثيرها فيك . وكثيراً مـا كان حتى في عز شبابه

منقبض الصدر تأتي ابتسامته كشق حديث في ثوب من عصب ، كأن صدره ينطوي على ألم بمض يكتمه ولا يبديه ، ينظر الى الدنيا كمن يراها على ضوء القمر ، وقد عرفته في موعة الشباب ضئيل الامل يائساً ، كثير الاحتجاج على النواميس الغاشمة التي تسير البشر .

واول كتاب قرأته له — يوم كنت تلميذاً — مطبوع في اميركا ، وقد بحثت عنه في مكتبة عاليه فما وجدته ، فخفت أن اكون بعته مع ما بعت من مكتبتي الاولى والثانية قبل الحرب وفيها . ولكنني لحسن الحظ وجدته في مكتبة عين كفاع ، ولكنه بلا عنوان .

ماذا يهم العنوان ففليكس يسميه في المقدمة « مجموعة » ،وهو كذلك ، ففيه بضع قصص أظنها مترجمة وفي آخرها قصيدتان قصصيتان . ان فليكس قال الشعر كثيراً في شبابه ، وقد عارض احمد شوقي في التسمي : ذاك كان شاعر عباس خديو مصر وفليكس شاعر ناظم باشا والي الشام . ولكن يد فليكس بقيت فارغة وشوقي أثرى ثراء عظيما .

فمن مقدمة هذه المجموعة التي اهداها فليكس الى نفس فريد عوض ، وهو لا يعرفه ،نرى كثيراً من فليكس بل نرى فليكس كله . لم تكن هذه المجموعة بنت قريحة فليكس البكر والدليل على ذلك قوله لفريد :

« كتبت كثيراً يا فريد ، وها انا على منحدر قمة الصبا ارى الافق لا يزال بعيداً امامي ، ونجوم آمالي تتوجرج في سماء مدلهمة

يغطيها سحاب الجهل في امة ما زال فيها الالمعي غريباً . اتخطى الصراط الى شفير الهاوية ، بجسد نحيل يحمل ما كتبت يمناه ويشد به شماله الى حيث يسود السكون .

« انا احد اخوانك ، غصن من ذلك الروض الذي حصدت منه . انا كاتب للحق ، وشاعر لنصرة الشعائر الطبيعية السامية التي بها سر السعادة ، وقد اصبحت متلاشية امام الالفة التي يفسدها التصنع ويقتلها الطمع والاستعباد . وهذا القلم الذي يخط لك ذكرا يدوم قليلا ويتلاشى ككل شيء على الارض ، هذا القلم المتعب الذي تدبره يد انحلتها الادواء ويملي عليه فؤاد برحته المصائب لهو كقلبك من قبل ، جنح مكسور يرفرف الى العلاء ، ولكنه لم يزل معذباً على الارض .

يكفي أن اغمض اجفاني وارتقي بالفكر الى عالم (الكل) الذي الفته لاراك . »

في هذه الكلمات على بساطتها صورة مصغرة للحبيب فليكس فهو تارة من المؤمنين بـ « عالم الكل » وحينا صوفيا كبيراً يقول ولا يهاب .

وطني الدنيا ودیني شرفي واخي كل تعيس في البشر

وما رواية الاستاذ ابو شبكة – ودیني خالقي – الا كما سمعها مؤخراً من فليكس بعد أن تطور لاجل الوظيفة وقوت العائلة .. ففليكس تلفلف بالف برد سعياً وراء رزقه ، فمن معلم في عبيه ، إلى فاخوري في المربجات ، إلى صحافي ، إلى محام ، إلى وظيفته الاخيرة التي نعم بها زمناً ولاجلها قال : ودیني خالقي . والصديق

ابو شبكة وهو الشاعر الكبير المرهف الحس يعلم جيداً ان « خالقي » هنا لزقة ...

ان حملة الريحاني على فليكس لفي محلها . تعجب امين من ان ينقهقهر فليكس هذا التقهقر ، في رسالة منبره وغيرها ، بعد ان كان في طليعتنا جموحاً وحرية تفكير. ولو درى امين ان فليكس صار ربّ عائلة ولم يعد خفيف الظهر ، وان في هذا التذبذب بقاء الجراية لعذر ...

كان فليكس اول من عرفت وصادقت في فجر حياتي الأدبية. كان يحبر الفصول الطوال فأنشرها له في جريدة النصير ، سنة ١٩٠٨، وكان فليكس مندفعاً وراء مواضيع بعينها ، يؤثر البحوث الاجتماعية ويثير قضايا يشتد حولها الجدل، فهو مطبوع على المناقشة يستدرج اليها الناس . وهذه جريدة النصير المحفوظة عندي تحفظ ما وقع بينه وبين داود النقاش حول موضوع « الخائن والخائنة » وايهما افظع جريمة . كان النقّاش يدافع عن بلواه وفليكس شاب يرى في الحب كل شيء ، فيصحّح ما يزعم ، ويبرىء ساحته ...

وما ظهر ثالث عدد من النصير ، بعد ما عهد إليّ بتحريره ، حتى كان لفليكس فيه قصيدة عنوانها « ملاك ساقط » ، واليك منها بعض ما يصوّر لك رأي فليكس في الحب :

يا حب ، قالوا لي بانك ترتقي ... بالنفس نحو النعمة السموية
يا حب ، كم طالعت عنك مقالة ... رسمت لنا الدنيا باجمل صورة
والآن قد ضيعت آمال الصبا ... وغدوت شيخاً في ربيع فتوتي
فرأيت فيك شقاوة لو سطرت ... لمحوتها عفواً بآخر دمعة

يا حب، اما ان عصرك قد مضى أم أنت لم تجتز لباب الجنة
يا رب عفوك، كلنا في ذا البقا نجني ومن منا بدون خطية
يا رب الفتنا تناست «كلما» اعطيته لبني الورى بالفدية
يا رب عد للارض ثانية فما لسواك في رفع البلا من قدرة

*

ولقد بكيت على المصائب في الورى
حتى ذرفت لها بقايا دمعتي
وغدوت لا اخشى الجراح من الاسى
فالسيف لا يدمي فؤاد الميّت

ففي هذه الأبيات المنقولة، بكل امانة، تهب عليك نفحات ألم وشكوى فتى شاخ في شرخ الشباب، وروح مسيحية في دم فليكس منها خمسون بالمئة، ولا شك انه رضعها من ثدي امه البروتستانية التي ترى في الناصري كل سعادة في الدارين ...

ولا ننتقل الى العدد (٢٠٠) حتى نقع على العش المهجور، والعش المهجور قد يكون صورة حية لبيت حبيب فارس في المربجات، الذي نظرت اليه مراراً في ذهابي وايابي، فرأيته كما وصفه فليكس في هذه القصيدة التي يختمها بقوله:

وسمعت الشحرور يبكي الطيورا قرب عش منها غدا مهجورا
ليس شيء في الارض اشقى غرورا من سرور الآباء بالابناء

وفي العدد التالي خطاب له موضوعه «الصنائع والفنون» القاه في كلية القديس يوسف بمناسبة قيام الاب ميشال بمدرسة صناعية. هل نسيت كلمة «فاخوري» التي مرت عليك؟ قد أحدث حبيب

فارس معمل قلال واصص كان فليكس فارس يديره ، وقد عرج ناظم باشا مرة فرأى يـــد شاعره ملوثة بالطين فأبى عليـــه تنظيفها قبل السلام وقال له : ان يداً ملوثة بهذا الطين لهي أنظف من أيدي الوزراء والامراء .

وفي العدد الذي يليه قصيدة غزلية عنوانها «عاطفة» ، ومما قال فيها يخاطب الحبيبة :

وانت زهرة حسن لم تمر بهـــا ... عواصف الدهر حتى تدركي حزني
وانت اكليل قلبي باقة وضعت ... فوق الضريح تغطي رهبة الكفن
وكيف يدرك زهر الواد كم أسف ... وكم دموع ثوت في ذلك السكن

*

فليس شعريَ الا النفس صارخة ... كالطير يبكي غريباً خضرة الدمن
فليت نفسي لم تأت الحياة ولم ... تلق اغترابا وليت الناس لم ترني
أتيت للارض روحاً لا تريد سوى ... ما قد رأته قبيل الخلق في عدن
فصادفت من خداع الناس ما سئمت ... به البقاء ولم ترضخ لدى الاحن

واليك تعليقي عليها لتدرك عقليتنا في ذلك العهد :

«النصير» ليس من مبادئنا نشر القصائد الغزليـــة لاعتقادنا خروجها عن الدائرة التي خططناها لنفسنا وهي النفع العام، ولكن قصيدة كهذه يقف عندها فكر الشيخ، وتخشع لها الصبية ، وتدمع لها مقلة الشباب، لهي مما يتعلق باهداب الفلسفة ، فكأن هذا الشاعر قد آلى على نفسه ألا يقول شعراً – حتى في الغزل الخـــاص – لا يدوي فيه صوت الانسانية، فكأنه يفكر مع كل دماغ ويشعر مع كل قلب » .

وزاد صاحب النصير عبود بك بو راشد صفحات نصيره أربعاً ، ولم يكن ثمة جريدة بهذا الحجم ، فأعجب ذلك صديقي فيلكس ولم يرقني طبعاً لانه زاد في عملي ، ولم يزد في أجري فكتب فليكس لعدد ٢٠٣ مقالا عنوانه « كلمة عن النصير » أنقل لك فقرات منها تدل على فليكس وعلى زماننا الاسود كما ينبئك التعليق ، قال فليكس :

« النصير وهو الناظر إلى أحوال البلاد بعيون كتابها ، والمفكرين بها ، لا أراه منتشراً بيننا باعمدته الحافلة إلا لغاية واحدة وهي تنوير الاذهان باذهان البلاد ، وترقية عواطف الوطن بعواطفه ، فهل يبلغ الامنية أم لا يزيد اتساعه غير زيادة الخسارة ، خسارة نفثات الاقلام وضياع الارواح السائلة على ثلمة هذه القصبة المجاهدة بلا عزاء . »

الى أن قال :

« هنالك في البلاد الناهضة - أي في اوربا - كان أبطال السيف يعملون قبل أبطال القلم . أما هنا حيث العرش الحميدي الابدي القرار ، والعلم العثماني المظفر يرف بكل معنى السلام فلا يطلب منا شهداء لسن نظام وترقية حكم ، قانوننا عدل ، وسلطاننا رب الرحمة ، فلا ابطال عندنا غير رجال الفكر ، ولا قتلى غير قاتل نفسه في سبيل العمل المقدس . »

« مدنيتنا أسيرة يجب فكها من قيدين ثقيلين يغلان الأيدي والفكر ، القيد الاول الحاجات العمرانية والقيد الثاني النظام الاجتماعي . الاول يجعلنا عبيداً موثقي الاكتاف ، بخشب ، بحديد ،

بنسيج، بابرة، بخيط، بنحاسة صفراء توضع على أحذية الاولاد ... ذلك استعباد هائل يدمي مقلة شيوخنا ويضيع ثقة نسائنا بنا، ويحني ظهور شبابنا باليأس ويموه جبين الشبيبة المملوءة نشاطاً باصفرار القنوط .

القيد الثاني هو ذلك التقليد الذي نأخذه عن الاجانب ونريد أن نجعله نظاماً لألفتنا، مع أننا لا نلائم لحمله ولا يلائم طباعنا ولا الاستعداد الغريزي الذي يجول بدمائنا يرتضي به . يجب أن نرتقي ياقوم ، ولكن من يرقينا ؟ تقدمي أيتها الصفحات الحاملة آخر جهاد لأول انتصار، انتشري بين شعب فتح عينيه للنور بفضل من تقدم من الادباء ، لقد مضى زمان كان صوتهم يضيع مع الدوي... أما الان فقد أصبح القسم الاعظم من البلاد يفهم لغة البلاد ، وقد لاحت بعض شرارات على ذلك الرماد البارد منذ أجيال، فالى الامام ايها النصير، ناد وانفخ فما انت نافخ في رماد ولا مناد ميتاً .

لج الابواب العالية... لج الاكواخ الصغيرة... لج... ادخل... قل للكل ان مفتاح السعة مطمور في هذه الارض المحبوبة فليفتشوا عنه . ادخل . ناد... قل... اصل حرباً عوانـاً ... استنهض همم الرجال... قوّ تلك النفوس القانطة ، ادخل إلى خباء العذراء ، وإذا مررت امام بابي فلا تنس ان تلجه لأن هنا نفساً تمتزج مع كل نفس تحب الوطن، وتحن إلى إعلاء شأنه . هنا قلم مكسور يجر نفسه قسراً بيد انحلتها الادواء وبرحتها النوائب ، ولكنها لا تزال تجد بقية قوة مضمحلة لتعمل هذا الواجب المقدس ، واجب الانتصار لنصير الوطن .»

أما تعليقي على هذا المقال الذي قرأت فقرات منه فهذا نصه : «النصير» يشكر لفليكس افندي ثقته به ويسأل الله ان يأخذ بيده ليخدم الامة والوطن بظل العلم العثماني المظفر .»

في هذه الكلمات التي نقلتها ظواهر شتى، فهي تدلك كيف كنا نحتال على اخراج الكلام من صدورنا، فلا نستطيع قوله إلا ممزوجاً بالدعاء لظل الله على الارض، سلطان البرين، وخاقان البحرين، ولي نعمتنا بلا امتنان... فكلمة حرية وعبودية ووطن واضرابها كانت محرمة علينا كتفاحة آدم . كنا في ذلك العهد كالجزار نذكر الله ونذبح، وهيهات ان نسلم من المؤاخذة . فقد كتبت مرة مقالة عنوانها «اين انت» والضمير راجع إلى الحقيقة فقضت المشيئة بوقف الجريدة، وكنا نعرض كل كلمة على المراقب ولا نطبع حرفاً قبل السماح لنا . وهي تدلك ايضاً على ان الصدور كانت تجيش والنفوس تحلم، فنحن الآن في شباط سنة ١٩٠٨ فما اطلّ تموز حتى كان فليكس امير المنبر ينادي بالويل والثبور ويلعن العهد البائد عهد الاستبداد والظلم، ويدعو بطول بقاء انور ونيازي... وهي تنبئك على ان النهضة لا بد ان تتكوّن كالجنين وان تحبل بها ادمغة كثيرة في ازمنة وعهود عديدة حتى تولد جنيناً كاملا من ابناء السلامة ، وهي تدلك اخيراً على ان فيلكس كان اليف آلام وطريد وساوس وانه يشكو ألمين : ألم النفس وألم الجسد . وما برح كذلك حتى مات على رجاء ان يحب في العالم العتيد ، كقوله :

يا ملجأ الأنفس الأعلى لديك أرى
مبدا هيامي فعشق الارض يطردني

هلا رجعت إلى حضن الخلود فقد
تاقت بي النفس نحو الحب في وطني

*

كنت مستأثراً بالمقالة الافتتاحية لا أتنازل عنها لأفلاطون لو بعث ، وقلما وضعت كلمة لكاتب أو شاعر في الصفحة الأولى . وشاء فليكس غيرة منه ان يكثر اعواني وانصاري على تحرير صحيفة ضخمة فحمل إليّ « غصن ورد » لأمين الريحاني ، وكان الريحاني في ضحى شهرته ، وقد نبه ذكره ، وهبّت ريحه ، بعد اصداره كتابه الشهير « المخالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » وقد ارفق المقال باهدائي نسخة من هذا الكتاب التي استرجعتها من أحد أصدقائي الكهنة (ي . ع) بعد مرور عشرين عاماً على غيبتها عن مكتبتي .

كتب فليكس مقدمة لغصن ورد الريحاني فنشرتها بالحرف مع المقال واليك ما قدم به فيلكس :

« غصن من الورد هو عنوان لمقالة أو لشعر منثور كتبها صديقي أمين الريحاني .

قليل من الادباء من لم يسمع بهذا الاسم الذي تتألق عن جوانبه اشعة الشهرة ، وتحتاطه هالة من الافكار السامية ، فلا ازيده تعريفاً لقراء العربية خصوصاً وانني لا اكتب عن الشاعر بل اكتب عن قطعة اهداني اياها وفي يقيني انها اجمل ما خطه يراعه .

للريحاني كتابات كثيرة على هذا النسق ، وقد قرأت له ما هو اجمل تركيباً واعمق تصوراً من غصن الورد ، ولكنني لم أجد الشاعر

بكل شخصيته وعواطفه ، كما وجدته في هذه الاشعار المنثورة ، فانها وان كانت لا تتضمن كل القوى التي اوجدها التأمل بفكره فهي ، بلا ريب ، جامعة كل الحب الذي سكبته الطبيعة الشريفة بقلبه .

حكم الريحاني بان غصن الورد هو اجمل ما كتب ، هو حكم انتصر به الشاعر على الفيلسوف ، انتصر به القلب الخافق بالحب الازلي على الدماغ المتشتت والمفتش عبثاً امام نهر الفلسفة الراكد .

هذه هي الاشعار المنثورة اقدمها لقراء النصير ، وسوف اذيلها بكلمة واتبعها بقصيدة لي ترمي الى ذات المعنى ، افعل ذلك اجابة لطلب صديقي الريحاني ولأهدي الى القراء ما لا يضيعون به وقتهم عبثاً . »

هذه هي المقدمة ، اما الذيل فعلى نسقها ومما جاء فيه :

« اي حب اجل من هذا الحب الرفيع بعطفه السامي ، بجهاده وبأسه ؟ كل شيء في هذا الكون يعذب الحب لان هذا الشعاع الباهر المتلالئ على القلوب المرتقبة من شمس الازل يترجرج ضعيفاً في ظلمة الجهل وتنازع البقاء على غير هدى الخ » .

المقدمة والذيل نشرا لانهما في قبضتي ، اما القصيدة التي وعد بها فليكس قراء «النصير» فحرنت في الطريق ولم تصل إليّ لان أخي فليكس حرد ايضاً ، وكتب إليّ يلومني بشدة وعنف لانني نشرت مقال الريحاني في الصفحة الثانية ، وعتب عليّ لانه هو يؤلب الادباء المشاهير حولي وانا متعجرف انظر اليهم من عل . وكانت جفوة قصيرة جداً ، فضها ابو فليكس واصلح ذات البين بين ولديه .

ذهبت يوماً ومعي الاستاذ اميل افندي خوري – لا ادري اين هو اليوم ؟– لزيارة الصديق الريحاني فوجدنا عنده زائرة انكليزية فكان ظلنا طويلا ثقيلا عليها في ذاك الضحى . وكذلك يكون الظل فيه ، فاستطولت زيارتنا تلك السيدة فسألت الريحاني : متى يذهب هذان الظريفان ؟ فاجاب امين بما لا يلائمنا ، فغمزني اميل خوري فودعنا وانصرفنا ، وخبرني صاحبي اميل فحوى الحديث الانكليزي فما عذرت الريحاني في ذلك الوقت ، لان بقاء عشر دقائق لا يستحق هذا الوسام الرفيع .. ولكن احوالا عرضت لي تشبه تلك افهمتني بعدئذ ان الوقت يطول ويقصر بحسب الاستعداد النفسي ... وان صاحبنا وآنسته معذوران .

وخبرت فليكس بما وقع فهز كتفيه كعادته ، تلك الهزة البلهاء ،وعذر لانه كان اعرف مني، في ذلك الزمان بقيمة الرزق..

آخر عهدي بفليكس

وكتب فليكس مقالا عنوانه «خطرات أفكار» نصير ١٩٢١ جاء فيه : « شيء افتكرت به مليـاً ولم أصل لاقناع نفسي به : « الرجل الخائن زوجته يعد خائناً لها فقط ، فلا تعتبره الالفة محتقراً للالفة ،أما المرأة فأقل شطط ترتكبه يعرضها للهوان،يعرف الناس . الرجل الخائن يلهو ويلعب ، والمرأة الخائنة ترتكب جريمة هائلة ضد البشرية .

لا أقصد أن نبرر المرأة كما يبرر الرجل ، بل أريد أن يشجب هذا كما تشجب تلك ، أو يقنعني باحث بامتياز الرجل على المرأة حتى

في الشر ، فهل من كاتب يركب هذا المركب الخشن ؟ »

فركب المحامي داود بك النقاش هذه السفينة ، سفينة بلا قلاعة كالتي أركبتها المجدلية يوم أبعدت عن أورشليم المقدسة بعد موت حبيبها ونصيرها. وانقضت اسابيع بين خذوهات ، داود وفليكس يتساوران ، كلاهما يدافع عن قضية شغلت فراغاً عظيما من عقله ، وقلبه وحياته ،وقد خالطت اللحم والدم وعششت وباضت وفرخت كما قال الحجاج . وطال صراعهما حول الموضوع : قلبان ممتلئان : زوج غير مرغوب فيه ،وشاب يرى ان المرأة خلقت للحب كما قال:

« اما حق المساواة بالعمل فلست منتصراً لها به ، لانني اعتقد بان المرأة خلقت لتعزية الرجل وأراحته بالادب والجمال من شقاء العمل ،فاذا هي أصبحت عاملة تحولت من الجميل الى المفيد،وفقدت السطوة الملائكية التي تجعل الرجل خاشعاً امامها .

ان المرأة لا يمكنها ان تقتبس الرجولية دون ان تفقد صفة المرأة امام الرجل وفوق سرير الطفل »

أما خصمه داود فيرى أن المرأة اكثر مسؤولية وأشد جرماً لأن رجل الخائنة يتعهد ما لم يزرع ، ويسقي ما لم يغرس . وكاد يتسع الخرق فأقفلت الباب على دخول العلامة الاب الخوري جرجس منش الحلبي،فكانت كلمته الحكم المبرم،فقضى على صاحبي فليكس . (نصير ٢١٨)

وعدت من الحدث في القطار ومررت ، كعادتي ، على مخزن العلامة الشيخ مصطفى نجا – المفتي بعدئذ – فاستحسن عملي وأثنى على فيلكّوس – كذا كان يلفظ اسمه – وأعجبه نفسه وحرارة

إنشائه . اما اخي فليكس فغضب لانه يحب الجدل وطول المجال . فهو واسع الاطلاع مولع بأبواب النساء يحب ان تظل مفتوحة على مصراعيها ... وحرد اسبوعين فقط ، ثم راضيته فوردتني خطرات افكار اخرى منها :

« منذ اشهر قلائل لم اعرف بارون افندي عبود غير مفتكر مجتهد تنبأت له الوصول إلى المحجة ، ولكنني لم احسب قط ان سيثب وثباً ليقف بغتة بين كبار أدبائنا وأفاضل المفكرين بيننا . هو كاتب « احترموا المعابد » و « المأساة الهائلة » . هـو منشيء « بين القبور » تلك المقالة الرائعة التي تدل عـلى قوة الابداع في موضوع مبتذل يكاد الا يترك مفازاً لجديد . »

ومن الغريب ان يكتب مثلها أيضاً بعد عشرين سنة على كتابه « اعترافات فتى العصر » الذي أهداه إلي مع كتابيه « زاراتوسترا » و « رسالة المنبر » .

وكان لنا صديق كاتب مجيد هو الشيخ شاهين الخازن صاحب كنوز لبنان المرصودة ، وكان في تلك الايام يحث عـلى مناصرة الحياكة الوطنية حتى لبس في ذلك الزمـان ثوباً لايلبس الجبساء من رهبان لبنان اخشن منه ، فقال فيه فليكس ايضاً :

« الشيخ شاهـين الخازن حامل تحت ابطه مساطر مصنوعات وطنية يعرضها لكل ناظر . قطع صغيرة من حرير الزوق ، ونسيج دير القمر ، وقد لبس هو نفسه من ذلك النسيج . تلك المنسوجات الصغيرة فيها حياة لبنان ، وطالما حامت حولها اقـلام الكتاب ولكن لم يقم بيننا غير المتكلمين فقط . »

وكان فليكس اذا لم يوفق بمقال موافق لمقتضى الحال ينفحني بقصيدة . ان نثر فليكس اطيب من شعره ، وهو محلق في المعاني مسف في المباني واتفاق الامرين في شعره فلتة . ولكنه في كل ما يكتب يتبع فكرة يجبل بها قلبه وتلدها قريحته ، فهو لا يحول عنها ولا يزول . وفي قصيدته «الاحياء والاموات» التي نشرتها في نصير ٢٢٣ يقول في ختامها :

يا الهي انزلت حكمك فارفق ... بنفوس تشقى لحفظ الوداد
صير القلب كالجسوم جمادا ... او فخفف وقع السهام الحداد
عفوك الله لست ابدي اعتراضا ... حكمة الخلق نقطة في سواد
غير اني ارجو العزا لقلوب ... البستها الاقدار ثوب الحداد
اطلب الحق لا ارى من عزاء ... غير مر مضيع للرشاد
لا أرى للعزاء غير صليب ... غارق في دموع أم الفؤادي

حقق الله رجاءك يا حبيبي ... ليت لي ايمانك فلا احزن عليك كما قال بولس الرسول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي لكم ان تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم .

واذا فسح لي في مجلس الحياة واستطعت الخروج من عين كفاع فلازورن قبرك واضع عليه حزمة من اغصان ارز لبنان وسنديانه وزيتونه ، فقد كنت صلب العقيدة والمبدأ ، جبار الفكر ، مسالماً تفارق بالتي هي احسن . ان لم تترك للعربية الا تجديدك في تفكيرك العذب ورسالة منبرك ، وزاراتوسترا نيتشه ، لكفاك .

كان فليكس وفياً صادقاً ، محباً لاحبابه جداً ، غير مبغض

احداً ، وأشهد اني لم اسمعه يذم مخلوقاً او يسب انساناً ، بل كان يكتم في قلب قامته المنحنية اشجاناً قلما اطلعتُ على واحد منها .

وقد دفع الي قصيدتة « ملام » فنشرتها بعد نقاش حولها بيني وبينه وخصوصاً حول هذه الابيات :

رأيتك في روض الحيـــاة فتية
على وجهك الباهي سنا النفس يسطع

وفي لحظك الفتان صورة ما ارى ... بروحي وروحي بالجمـــال تولع
وسوف اذا شاهدت زهرك ذاويا ... يهب به نحوي شـــذاه مضيع
وسوف اذا شاهدت ظهرك ينحني ... يحن له مني فؤاد واضلـــع
وحين يخط العمر آخر لثمـــة ... على وجهك الناعي كطرس يبرقع
اذا شئت في التجعيد القي قبلة ... فلا يعتريها في المشيب التصنع
فمن كان مثلي لا يودع حبـــه ... ولو كان قرب الرمس شيخاً يودع

أما انا فما صدقت ان فليكس يقبلها مجعدة ، أمـا هو فحلف مؤكداً ما يزعم . ولم أعد أراه في هذه الايام الاخيرة لأرى رأيه فيما اختلفنا عليه ، ولكنني واثق انه كلام شعراء . قد يفعـل ذلك إذا انقطع الرزق وضاقت به الدنيا ولم ينفتح له باب فرج ...

وآخر ما نشرته لفيلكس في «النصير» قصيدة عنوانها « ضلال » وختامها يصح أن يكون شعاراً له :

أما الشريف فلا يطأطيء رأسه ... الا لمن من عنـده الانعـــام
فالمرء تكفيـــه لعيش كسرة ... والمجـد وهمٌ والحياة منـــام

وهبت عاصفة الدستور على البلاد فهللت المملكة العثمانية بعدئذ وكبّرت ثم صار كما كتب الأديب الظريف «حداد» صوت الجامعة

للغراء، بعد أن تصافح الكاهن والشيخ على المنبر المنصوب في ساحة البرج شرقي المنشية، وخطب الناس يحثون على الاخـــاء والحرية والمساواة، وصار اسم انور ونيازي حبيباً إلى كل قلب، بعد أن زحف أحرار البلاد إلى بتدين مركز متصرفية لبنان على عهد يوسف باشا، فاسقطوا رجال الدور البائد من المير قبلان إلى نصيف الريس إلى إلى ... وعدنا مبتهجين ولكن فرحتنا لم تطل، فعـــاد هؤلاء الى مراكزهم، وبعد أن كان يوسف باشا يؤمن على كل «اسقاط» طائعاً تنمر واحتل أنصاره كراسيهم التي انزلناهم عنها.

اما فليكس وصديقي الآخر داود مجاعص فاحتلا المنـابر من تموز إلى تشرين يقفان على كل خشبة تنصب فيهزان القلوب ببيانهما وشاراتهما، وقد ذكرني داود إذ كتب إلي مرة من المانيا بيوم عين المريسة – محلة في بيروت.

وهكذا صار أدب فليكس منبرياً يهلل له العوام ويرضى عنـه الخواص. كان فليكس يحلق كالنسر وتراه العين كبرج فينيسيا الماثل إذ يقف في الناس خطيباً. عاف الكتابة في ذلك الصيف ولم تظهر له كلمة واحدة في «النصير». ثم صار «اتحادياً» فأنشأ جريدتـه لسان الاتحاد، ولكن الاتحاديين لم يقدروه فظل حيث هو، وحل والده المرحوم حبيب محله فكتب بعض فصول نشرتها في «النصير»، اولها تقديس نظام لبنان وآخرها حملات على مجلس إدارة لبنان الذي له صلاحية مجلس النواب اليوم.

وفي نهاية عام ١٩٠٨ تركت النصير لأحرر جريدة الحكمة في جبيل – فاضت روحها يوم شبت الحرب الكبرى – وفي هذه الفترة

من العمر وفي ايام الحرب لم ار الصديق فليكس ، وقد رأيته بعد الحرب فكدت لا أعرفه لأنه كان قد أخذ قسماً كبيراً من شاربيه اتباعاً للزي. ثم تلاقينا مرات على غير ميعاد وظللنا على ولاء ووفاء حتى الساعة الاخيرة .

قد تهوسنا كثيراً عند سقوط السلطان عبد الحميد ، وامتلأت البلاد جرائد ومجلات . أما احلامنا فلم يصح واحد منها ، وأذكر كلمة قلتها لفؤاد باشا – الدالي فؤاد – حين استقبلناه على المرفأ استقبالا شعبياً : الاستبداد كالعليق يصعب على الفلاح استئصاله ، فضحك لها لأنه كان ظريفاً يحب النكتة ، وهو الذي قال للسلطان عبدالحميد : ابو الهدى يبلع السيف . فاستضحك وقال : لا عجب ، وزير الحربية بلع الدارعة . فأغضب السلطان هذا الجواب البديهي فضرب فؤاد باشا كفاً على رأسه ثنى طربوشه ، ثم صدرت الارادة السنية بنفيه إلى دمشق وبقي فيها إلى اعلان الدستور فجاء بيروت يلبس ذاك الطربوش المبعوج .

كان فليكس محباً ومحبوباً ، وما شبهته إلا بشفاليه مانون لاسكو . كانت حياته مأساة مؤلمة لولا ختامها الذي اراحه من عذاب القلب . لقد أكل الحصرم فضرس هو .

هذه واحدة من نكات ذلك الزمان .

كنا ثلاثتنا انا وفليكس وداود مجاعص ، اما الرابع وهو الشيخ شاهين فكان معنا كشاهد زور ، كنا في مسرح التريانو ، كان موقعه شرقي ساحة البرج محل قهوة الربيليك او تحتها بقليل ، وكانت هناك غانية مغنية راقصة كوحيد ابن الرومي . البنت

غسوية التبعة سحر جمالها بيروت فأقبل على لياليها كبار الموسرين ، فاحترنا نحن الادباء في ذلك العهد ، — والطفر يعمي البصر — كيف ننعم بجمالها ، والجيب فارغ . حضرتني حيلة لا اعدم مثلها في كل ساعة حتى بعد هذا التقهقر الجسماني او الجسداني كما يقول رجال الدين ، فأنكرت اني افهم العربية او الافرنسية ، ثم هبط الوحي وتطورت الفكرة فاذا أنا امير سرياني، فعرّفوها اليّ كذلك فهزّت المحروسة كتفيها ، واشتدّ بها الفضول إلى سماع اللغة السريانية وأوهمها فليكس اني ذو ثروة جبّارة ، وكالمرحوم ابن أبي ربيعة اتتبّع الجمال . صدّقت المسكينة انني ازجي الليرات التي تكرج على حفافيها لا التي تطير في الهواء ... فانجذبت نحوي وألحّت الحاحاً عنيفاً استفدت منه قليلاً .. ثم تركتنا على أن تعود بعد نهاية الحفلة لتتمتّع بفصاحتي السريانية ... وفي نيّتها أن تتعمّق وتغوص في جيبي حيث الكنز الذي لا يفنى ... ذاك الذي اختارت مثله المجدلية دون اختها المهتمّة بامور كثيرة ...

وكان نصف الليل فما أخلفت الآنسة الميعاد ، رأى الناس تلك الجميلة التي تتدلل وتتغنّج أمام آل بسترس وثابت وسرسق وبيهم قاعدة حدّ محرر النصير ، فاتجهت الأنظار صوبنا . وكان ترجماني داود بجاعص . تهجّى داود الأبجد سريانياً فتظاهرت انني فهمت ، وأجبت بالأبانا ، ثم تهجّى داود هوّز فأجبته بالسلام عليك يا مريم ، ثم ثم ...

وأرادت الست أن تسمع اللحن السرياني فانشدتها (ميمراً) من مار أفرام بصوتي الذي جاء ذكره في الكتاب الكريم ، ثم

آخر من مار يعقوب ، فقامت ترقص . ولم احرمها نشيد الاموات فطفرت الدموع من عينيها فخلت انها في مأتم ، والدفن قد قرب ، وسيعقبه « شيل البخور » . وأخذت تطرح عليّ أسئلة غريبة كأنها أحد علماء الاجناس ، فيوهمها ترجماني داود انه يكلمني وهو لم يزد على تهجئة حطّي و كلمن وسعفص ، وهكذا قضينا سهرة غير قصيرة لم نسقها في خلالها كأس ماء بارد...

ولا تسل كم كانت خيبتنا مرة إذ ودعتها بالافرنسية وداعاً مقروناً بعبارات اكبار للطفها ، واعجاب بجمالها الساحر ، فاصفرّت وتبسّمت قائلة : أنت وحدك غلبتنا ، كنت أخبث وأدهى منا ، سأنتقم منك في الليالي القادمة .

فأجبتها لا يا سيدتي ، لانك لا تريني . قليلا ما اجد في كيسي بدل الدخول ...

فأنستها هذه الكلمة ألمها وامتعاضها ، وقالت : تعال على حسابي ، شرط ان تفعل ما هو ألطف ، فهذه النكتة تزعج ، ولا سيما ان عرفت بها زميلاتي .

فقلت : انك تزعجين بلاداً باسرها ، فما عليك لو غلبك واحد منها وأخذ بثأرهم من دولتك ... انت ما دفعت حق جمالك . أمسيحية أنتِ ؟

فأجابت بعبارة التعليم المسيحي بالحرف : نعم بنعمة الله أنا مسيحية .

قلت والمسيح قال : مجاناً أخذتم مجّاناً أعطوا ، أنا لم آخذ من رأسمالك شيئاً .

وان كنت وثنية فمثلك تذهب الى الهيكل وانا ابن بلد ادونيس..

ورأيتها بعد ذلك مرات فكانت تقابلني بابتسامة وهز السّبابة، ولكنها لم تعلق على الدبق.

وظل فليكس طول حياته يسألني كلما التقينا: كيف السريانية في هذه الايام ... فتنقبض أسرتي وأسرته ونقبع كلانا في الزاوية كالرتيلاء في بيتها تنتظر ذبانة مارقة لتدعوها اليه ...

ديوان الشبيبي

إن كنت ، ممن تستهويهم الالقاب الداوية ، فالحديث الان عن وزير خطير صاحب معالٍ ، وعين من اعيان الدولة العراقية الجليلة . أما الذين لا يذهب بوعيهم افيون المناصب الخطيرة ، فسأحدثهم عن محمد رضا الشبيبي الشاعر فقط . هب ان كرسي الشبيبي وسع السموات والارض فهو ، لا محالة ، زائل ، أما ديوانه فباق . وهل يعنينا اليوم من الطغرائي غير لامية العجم ؟ ان لقب ذي الوزارتين وصاحب المعالي زائلان ، أما اللامية والديوان فميراث الذرية .

الشبيبي واحد ثلاثة من شعراء العراق ، وكأن الثالوث — ومهده الشرق — يتجلى عندنا دائماً حتى في الشعر . ففي الجاهلية والأموي والعصور العباسية حتى ايامنا والتقسيم مثلث ، والشعر مدرسي كله ، وهذا ما نواجهه في ديوان الشبيبي . إذا قلنا الزهاوي كأبي العتاهية ، والرصافي كالبحتري ، مثلا ، فالسيد الشبيبي كالشريف الرضي .

الشبيبي شيخ معمم . لست اعرفه معرفة عين ، ولكن البادي من رسمه الوقور انه في خلقه وسمته أشبه بشاعرنا الكبير أمين بك

ناصر الدين ، المنزوي في كفرمتى ، وفي الزوايا خبايا . فهذه الديباجة العباسية المتماسكة كالدمقس ، اللماعة كالارجوان تقرب ما بين الرجلين ، وهذه الثورة الملتفة على نفسها التفافاً لولبياً كالاعصار هي في ديواني الشاعرين .

رأيت رسم الشبيبي فخلته ينشدني : كليني لهمّ ، يا أميمة ، ناصب . وتخطيت الى الديوان فاذا فاتحته :

لم يبق لي إلا الشباب وانه ديباجة ضمن الأسى إخلاقها

وأيقنت ان الليل الذي يقاسيه بطيء الكواكب حقاً ، إذ قرأت :

كلاني اكابد في العراق بلية وليلاً بارجاء العراق بهيما

ولكنه يصرح بعد تهدار فينفّس عن آلامه المقهورة :

ألا مدرك هذي البلاد واهلها فقد لقيت من جور ساستها جهدا
تفرّغ أيدينا لنملأ جيبها وتنهكنا جوعاً لنشبعها حمدا

وتزول الشبهة متى قلنا انها من نظم سنة ١٩١٤ . ويبدو له تخاذل قومه فيقول :

وقيل تقاربنا وها نحن جيرة ولما بدا الصبح انثنى قربنا بعدا

وكأنه قد آيس من كل ما رجا فقال :

كيف اتحاد بني الدنيا وهم بشر موزع بين أشكال وأقسام
العلم علم خرافات وشعوذة والدين دين منامات وأحلام
موحدون ولكن عز انكم نمتم وقد نهضت عبّاد أصنام
وان ما بين آرائي وبينكم بعدا كما انفسحت ابعاد اجرام

والشاعر كالنبي تشغله شؤون الجماعة كأنه وصي عليها ، وهذه

احدى طبائع الشعراء الكبار ، فهم وكلاء الامة الجبريون ، والمسخرون ايضاً . ولولا ذلك ما عناه من امرها ما عناه :

لولا التفكر في مصير بلادكم تالله ما ضاقت عليّ بلاد

والسيد الشبيبي على رأي بطار كتنا القدماء الذين رأوا في شق طرق المركبات انتهاكاً لحرية الجبل، كما رأى شاعرنا في خط بغداد فقال:

مدوا الحديد وما اهتززت لمده سكك الحديد بارضنا أصفاد
طرق الحديد إذا النوت وتشابكت شرك به شرف العراق يصاد

وللشاعر في هذه القصيدة المسماة « الباكية » زفرات حرى ولا سيما حين يرى الزعامة سلمت لزعانف :

انظر الى الاعجاز كيف تصدرت وعمائم السادات كيف تساد

ثم يهيب بقومه النيام :

غفوا وعيوني للعراق طوامح وشابوا وودي للعراق صراح

ويرى سوء فهم الدين علة ما هنالك فيهتف :

ولو انصف الناس الديانة أجمعوا على انها فيهم نتيجة وجدان
ولكنهم حتى ذويها واهلهـا بعيدون عن عرفانها بعد كيوان
كأن لم يكن انجيل عيسى بن مريم ولا أوحيت توراة موسى بن عمران
انا شافعي ان لم يكن لي شافع إلى الله ، ثم الحق حبي وايماني

وفي البيت الاخير معارضة للذي قال : الحب ديني وايماني . أما هذا الانكماش فلون محلي يخلعه الاستبطان على الشعراء كما يخلعه على الطيور ، والشعراء طيور خالدة .

ولا يسكت الشاعر السيد — كالامام علي كرم الله وجهه — وفي الحلق شجى وفي العين قذى ، بل يصرخ :

يا قوم ، ما الدين عادات معطلة وانما الدين تحليل وتحريم
لا تجعلوا آلة التفريق دينكم فالدين عن وصمة التفريق معصوم

وعملاً بالقاعدة الذهبية : ابدأ بنفسك ، يعنّف النجف الاشرف بقوله :

متى أذا حث اقليمي شقاشقه عجت ترد صداهن الاقاليم
أظهرت بعض عناء لست اكتمه لكن جلّ عناء النفس مكتوم

اللهم فرجاً . وكأنه يئس من تقويم الحطب فعاد إلى الغصون فقال يخاطب الشباب في صيداء :

انتم جيل جديد خلقوا لعصور مقبلات جدد
كونوا الوحدة لا تفسخها نزعات الرأي والمعتقد
انا بايعت على ان لا ارى فرقة هاكم على هذا يدي

ثم يصفر بخضوضر الرجاء فيقول في ساعة سوداء ، وللشعر ساعات :

شباب طائش نزق وشيب ما بهم رمق
وشعب طالب ثقة فدلوه بمن يثق
ففي آرائنا شيع وفي أحزابنا فرق
قد استشرى خلافكم الا يا قوم فاتفقوا

وسئم عنعناتنا وتفاخرنا بالقديم كأننا البطاطس خير ما عندنا تحت الارض ، فقال :

زلت حديثاً امة أبداً تفاخر بالقدم

أما المرأة فمامنحها الشيبي طرف عينه الا ليقول لها: إلزمي البيت :

بتدبير المنازل هن أولى وهم اولى بتدبير النزال

وفي قصيدته « روح الرسول » نفحة من اخوة كرامازوف اذ يقول :

واكبر ظني لو اتانا محمـــد للاقى الذي لاقاه من اهل مكة
اذن لقضى : لامنهج القوم منهجي ولا مـــلة القوم الاواخر ملتي

ومن عين شمس اليقين ضياء ينتقل الى ظل شك عابر فيقول :

فيا عالم الليل هـل رجعة الى عـالم منك اوفى سنى
ويا ايها الازلي القـــدير اساراك نحن فرفقاً بنـــا

وتتوالى المحنة فيقول :

يظنون هذا العصر عصر هداية واجدر لو ندعوه عصر ضلالات
فان خرافات مضت قد تبدلت حقائق الا انهـــا كالخرافات

ثم تظلم الفكرة وتضيء في وقت معاً :

خبرونا عن السماء وقالوا فلك دائر وشكل كريّ
وبما صح ما رأوه ، ولكن خـير رأيك ما يراه النبي

وينزع نزعة صوفية في قصيدة بـين العقل والقلب ، ولا يحجم عن لزوم ما لا يلزم ، ثم يصرخ من وجد اللحم والدم :

يا واردي مـاء الحياة تذكروا أنّـا عطاشى

ويشتد به الوجد فيخرج من جلد رصانته ، والحب خداع يصفر العظائم فيقول :

لولا انفراد أحبتي بخصالهـــم ما سار لي في الدهر بيت مفرد
يتجسد الطـــائيّ بي وقريضه والبحتريّ من الفحول واحمد

وتتراءى له الدنيا كعفطة عنز فيلقي — كالامام — حبلها عـلى غاربها ويقول قبل ان يختم باب الوجدانيات :

انا من سيّر الكواكب شعراً تتوالى بكم فيملأن كتبي
ربما جاء في القريض نبي همه نسخ آية المتنبي

بيد ان تلك الآية لم تنسخ ، ودليلنا على انه كان يمزح هو قوله لسيد الشعراء في ذكراه الالفية :

يا شاعراً قاد القلوب لغاية لم يدن منها شاعر او قائد

اما رأي السيد الشيبي في الشعر فكرأي بشار :

متى خيروني في الكلام ونسجه رضيت بسيط القول لم اتأنق

واحزنه تقصير المتأخرين فقال :

أهيم بسر الابتكار لانني وقد طال عهدي لا أرى غير ناقل

فما حبسه يا ترى في حصون القدماء حتى لم يجد عن دربهم قيد شعرة ؟ لعله رعيه الحقوق كما قال :

ولولا حقوق رعيها لي عادة لكان لمهري أينما جال ميدان

ورياضة النفس على الاخلاق الفاضلة تحل المحل الأول عند السيد حتى قال فيها :

أصحّ عباد الله ديناً ونحلة مجاهد نفس لا المصلي المسبح

ولا بد من القول أن براغيث الحب اكلت الشاعر الشيبي حتى قال :

تفاهمتا بعيني وعينك لحظة وأدركنا ان القلوب شواهد

وكأن الحبيبة اعجبها منه ذلك فقالت له : ثنّ ، فلم يجعلها بيضة الديك فقال :

واسهرننا الشهب الحاكيات عيوناً بشار كننا في السهر

هذا البيت من قصيدة عنوانها « حديث القمر » ويا له حديثاً

طلياً لذيذاً فاقرأوه في الديوان .

وخير ما نختم هذه الكلمة عن الشاعر هو قوله :

فتنة الناس ، وقينا الفتنا باطل الحمد ومكذوب الثنا
كلنا يطلب مـــا ليس له كلنا يطلب ذا حتى أنا !
أيها المصلح من أخلاقنـــا أيها المصلح ، الداء هنـــا

صدق الشاعر ، وعجز النـاقد عند هذا الطمع الاشعبي فصيّر خلانه اعداءه . أما السيد الشبيبي فحسبنا وحسبه ان حمدنا له حق وثناءنا عليه غير مكذوب فيه .

عرائس العريض

•

قرأت منذ أشهر ، ان الاستاذ نبيه فارس – الدكتور في الفلسفة – يشكو قلة النقد – النقد الادبي لا المصرفي – وانه ملّ سماع التقريظ والثناء ! وهذا عجيب... ومنذ اسابيع اذاع ايضاً الاستاذ سهيل ادريس انه كاشف الاستاذ عبدالله المشنوق برغبته في ان يكتب ، هو نفسه – اي سهيل ادريس – نقداً لكتابه « اشواق » ، بعد ان يئس من النقاد ، وما وقع على من يشفي غليله ، وهذا أعجب وأغرب ... ومنذ أعوام تحدث احد المحترمين في دنيا الادب عن الصلة الدقيقة بين النقاد والمؤلفين فقال : « واي مؤلف لا يكره ان يتناول النقاد جهده ونتيجة جهده بالنقد فيبينوا ما فيها من ضعف ويدلوا على ما فيها من قصور .. كلنا يحب الثناء ويعتقد انه مستحق له ، وكلنا يكره الذم ويعتقد انه خليق الا يتعرض له . ولكن شيئاً ينقصنا مع هذا وهو ان نقدر العلم قدره . ونؤمن انه لا قوام للعلم بغير النقد . ولا أكاد افهم ان رجلاً يستحق ان يوصف بانه عالم او أديب او من طلاب العلم والادب اذا لم يكن يقدر النقد وحاجة العلم والادب اليه .

يقدر النقد لا على انه ثناء خالص ، ولا على انه هجاء خالص.. انما ينبغي ان يقدر النقد على انه تمحيص للعلم ، ودلالة على ما فيه من حق يجب ان يبقى ، وباطل يجب ان يزول ، او قل على ما تعتقد انه حق او باطل . ولست ادري لم يؤذيك ان يدلك ناقد على أنك اخطأت وانت لم تأخذ على الايام عهداً بالاصابة المطلقة . ولست أدري لم تحرص على ان يصفك الناس بانك موفق للحق ابداً ، ولم يقدر هذا التوفيق لانسان ما ... »

ومن حسن الحظ او سوئه ، لست ادري ، نقدت هذا الاديب الخطير ، نقداً استمر اكثر من سني فرعون العجاف ، فكان امري معه كقصة « بسينة » الحداد . ان هرة الحداد تنام ملء عينيهـــا بجانب الكير ، ولا يوقظها النفخ ولا تصادم العلاة والقدوم - المهدة والسدان - حتى ولا الشرر المتطاير عند تطريق الحديد وان حرق صوفها . كل هذا الطرق العنيف لا يزعج الهرة ولا يوقظها . ثم لا يكاد الحداد الضعيف يده الى الزاد حتى يرى هرته قعدت حده تتحسس به وتتمسح تنبيهاً له إلى واجبه نحوها ، وإن تغافل حدثته بلسان القطط ...

وصاحبنا الاديب العظيم نام على النقد الصارم ، عشراً من قرن ، لا يحس ولا يطس ، ولما أثنينا عليه تثاءب وقطى ، وشكرنا شكراً حاراً لا نستحقه ، ودعانا إلى مـــأدبته ، بهشاشة وبشاشة . ولكن ظهور « الرؤوس » اطاح بتلك المودة الادبية .

والان وقد نزلنا إلى ميدان النقد فسنفي اصحابنا جميعاً حقهم منه . ليس نقدنا أكلة طيبة لنعدهم به ، ولكنه سفرة فيهـــا المر

والحامض ، وفيها الحلو والمز ، وفيها الحريف من البهارات وكل ما تحتاج اليه السفرة من مقبلات . سمها سفرة مقتضى الحال ، واذا شئت ، عملاً بقول المثل : ما تضعه في القدر تشيله في المغرفة . هو مرآة ينعكس عليها صورتا المؤلف والناقد .

اقول هذا وانا واثق من انني سوف لا ارضي احداً . وسوف ازيد على جدول اصحابي في « الرؤوس » و « على المحك » ، و « زوبعة الدهور » وغيرها اسماء جديدة . ولكنني رجل لا أبالي ، فاما ان اسكت – كما سكت – واما ان انطق ولا اقول إلا ما اعتقد . وحسبي في خطأي اني معتقد الاصابة .

*

والان فلنبدأ .

امامي ديوان شعر عنوانه « العرائس » . لو اطلت علينا هذه العرائس ، في غير هذا العهد من العمر ، لكان لنا معها شأن غير الشأن الذي ترى . الديوان للشاعر ابرهيم العريض من البحرين ، حيث تكثر اللالىء ، فعسى ان تكون عرائس شاعرنا البحراني حالية غير عاطلة ، لترتاع في « وادينا » وتلمس جانب العقد النظيم ... اصدرت هذا الديوان دار العلم للملايين . وهذه الدار ، على حداثة عهدها ، كالجرادة خصباً ، تفقص عن الف وميه ، وتقول يا قلة الذرية ! ان دار العلم للملايين كحرب ابن أبي سلمى تلقح كشافاً ثم تنتج وتنتج ، فلها منا جزيل الشكر وعاطر الثناء . اما شاعرها العريض فقد عرفنا به الاستاذ الحوماني فقال انه رأى شاباً وسيما حدثا حين دخل عليه ، اما نحن فنقول :

وما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

قلت هذا لان الشاعر « الحدث الوسيم » جعل فاتحة ديوانه بيتين اولهما :

انا والله مولع بحميد الذكر حتى كأنه بعض ديني

ثم نقلب الورقة فيطل علينا موكب الشبان فنقرأ بعد الولع بحميد الذكر ولعاً عاماً :

افهل تذكرين - حواء - لما قلت لي والهوى يرف علينا
اي حسن رأيته فيّ حتى حال نورا يشع من ناظرينا
حبذا لو جلوت لي في اطار اثر الحب في نفوس كلينا
فخذيها مني احاسيس شتى نبضت بالحياة لونا فلونا

سنأخذ نحن هذه الاحاسيس عن جدتنا حواء - بعد استئذان صديقنا الحوماني صاحب هذه الماركة المسجلة - فاسمع يا شاعري ابراهيم :

ابياتك لا تبلغ اصابع اليد عدا ، وهي أم كتابك ، فما عذرك يا صاحبي ، حتى تقول «لونا فلونا» ، ويأتي «القرار» بغيضا الى الاذن؟ ثم لماذا لم تكلف نفسك قليلا من الجهد الفني لتقول «نفسينا» بدلا من « نفوس كلينا » . ان اضافة نفوس الى كلينا الشنيعة يحتج عليها الفن احتجاجاً صارخاً يا صديقي ، فكم نفساً لكما ، انت وهذه الحوّاء الجديدة ؟ الا تحس مثلي ان « كلينا » أكلة تسمم دم الفن !

لو لم تكن « شابا حدثا وسيما » لما كلفت نفسي نصحك ، فانا ارجو من الشباب خيراً كثيراً . اما من بلغوا من العمر عتياً فنقدم ضرب من العبث .

وقبل – بدلا من بعد – فأني سأبدأ نقدي حيث انتهيت انت، لانني رأيت آخر ديوانك خيراً من اوله .

ان « قصصك » ابلغ واروع من « غنائك » فاسمح لي ان أبدأ بها لئلا أنفرك ، وانفر القارىء مني . فانا متهم بالتفتيش عن السيئات .

لقصص العريض توطئة لا هي طويلة ولا عريضة ، مآلها ان حواء النابغة الجزيلة الاحترام هي منبع الفن الذي عبده ابراهيم صغيراً . ما شك أبداً ، كسميه ابرهيم الاول ابي الاباء بل قال :

دنت بالفن صغيرا منذ شبّ الطفل فيّه

ثم يمضي في قصصه الشعرية فيواجهنا بنظم قصة من اساطير اليونان عنوانها: «التمثال الحي» . القصيدة حكاية فتاة فقيرة – حلوة – مات ابواها واخوها . خرجت الى جار فنان أشيب مثلي ، تطلب منه خبزاً ، فنشد عندها فناً ، فجردها وأكب مفتشاً عن الطرف الفنية في ذلك الجسم الجوعان ... وقف المصور يرسم ، والفتاة تنطوي امامه انطواء الشنفرى على الجوع ، فترى عينه الفنية ، في كل انطواءة فلتة تمجد الخالق ، فما تنفس الصبح حتى تمّ التمثال ، وماتت الفتاة بعدما خلّدها ازميل النحات .

ان حكاية « التمثال الحي » ، هذه من شعر العريض الرائع ، بل من الشعر الرائع ، فيها من القصص المؤثر ما يبكي ، وللشاعر فيها وثبات منها قوله :

فاطال الساق حتى شارفت في الكعب ضدا
وبراها قدماً يحلو لها ان تستبدا

يذكرني قوله هذا كلمة قالها شاعر لا اذكر اسمه ، في وصف ساق حسناء : وقامت الحرب على ساقها .

والشاعر موفق ايضاً في « قلب راقصة » التي اهداها إلى روح الرافعي . كلاهمـــا مأساتان ، وأكاد أقول : ان أغلب عرائس العريض عرائس بلى ...

وفي هذه العروس – قلب راقصة – معان من الجمال كادت تكون رائعة لو تأنّى مبدعهـا . ليت مخيّلة العريض لم تطرح هذا الجنين في الشهر السابع ... فهذه الصورة مثلا :

فيحنّ شوقاً إذ يرى فيها الانوثة في احتفال

فكرة طيّبة ، ليت شاعرنا صبر عليها لتخرج أروع ، وتحتفل كلمة « احتفال » احتفالا تاماً بما فيها من معنى ...

وهناك صورة اخرى فازت بقسمة غـــير ضئزى من التعبير الرمزي وهي قوله :

وعلى سماط الصدر فا كهتان ملء يد الخليع

والذي الاحظه ان العريض كثير التغني بالرمان ، فكأنه ممن يحبون هذه القمم البركانية حتى أكثر من وصف هـــذه الصورة في ديوانه .

اما « انسانة الحي » التي عرفنا بانها « من صميم الصحراء » ففيها قلة خيال وتصوير ، وفيهـــا كما في الديوان كله ، عبارات لا تليق بالنثر الانيق فكيف بالشعر ؟ قد تكون هذه العبارات التي اتعثر بها في طريقي اثنـــاء جولتي في ديوان ابرهيم مسببة عن القص ، ولكن كان في الامكان اكثر مما كان كقوله مثلا : « أفيلقى لغيرها

باله »... وكقوله: «فارتمت في ذراعه»... وقوله: «وكل سلك الدرّ».
وقوله: «أوما في فؤادها هي أيضاً» — واعوذ شيطان الشعر من أيضاً — وهو لا يتجنب غير المأنوس والخطأ كقوله: «وتوالت على لقائها عشرون يوماً» وكقوله: «فتسقط بين احضان ابنها الثاني». فكم لهذا حضن يا ترى؟.. وكقوله بلسان بنته ليلى:

عشت للشعر ولي يا ابتي انت للشعر ولي ما اتمنى

هذا حق وقد قالوا قديماً: كل فتاة بابيها معجبة. وانا اشاركها قسماً من هذا الاعجاب لا كله، واتمنى على الصديقين البعلبكي وعثمان حذف الياء من «ابت» في الطبعة القادمة.

ومثل «من صميم الصحراء» قصيدة «بين عشية وضحاها» التي عدها العريض «من اصداء البحر». توقعت إذ قرأت عنوانها ما توقعه الصاحب ابن عباد من عقد ابن عبد ربه، ولكنني لا اقول مثل الصاحب: «هذه بضاعتنا ردت الينا». بيد انني لا اكتم العريض انني توقعت ان أرى فيها لوناً محلياً صحراوياً لا عهد لي به، فاذا بي اقرأ شعراً لم يختلف عن الدواوين الاخرى، الا بغلبة القصص، وهذا ما نحمد الشاعر عليه. ليته لم يأخذ مواضيعه من الاساطير، ليته أرانا من قصص بلده ما يروي غليلنا. فهو في هذا اشبه بشعراء لبنان المبدعين الذين جعلوا وكدهم بنت يفتاح وعشتروت وعرائس شعرية اخرى.

اما قصيدة «الشاعر المجهول» وهي معنونة «بين الروح والمادة» فحكاية طيبة نظماً وفكراً، تشينها بعض تعابير ساقطة عن مستوى الديوان، وهي تدل على قلة صبر، كما قلت سابقاً، كقوله:

« شاعر نجهل اسمه بالسوية » .

قد لفتت نظري في هذه القصيدة فكرة هي السائدة في ديوان العريض ، وهي فكرة تمجيد الفن وتقديسه وتعمد الخلق والابداع حتى يقول لنا :

وكأن الحياة ديوان شعر لم نكن فيه غير معنى معاد
ان في العين ومضة لبروق تتحدى بالصمت رعد الفؤاد
والذي غادر العقول حيارى سر هذا الجمال في الاضداد
كل شيء اراه أتقن صنعاً كأخيه ... بدافع من وداد
فلأعزاز من ؟ تباركت يا رب تغالي بداك في الايجاد

ان في هذه الابيات فكرة « الشوق » التي جعلتها الاسطورة الفينيقية أساس الخلق وسببه ، ولكن تعبير الشاعر عنها بقوله : « بدافع من وداد » ، قلّل من قيمة هذه الفكرة ، كما قلل قوله من :

فيحن شوقاً اذ يرى فيها الانوثة في احتفال

ففأفأ من حيث لا يدري ، ثم لم يحسن التعبير عن الانوثة الصاخبة في جسد احدى عرائس فنه . العريض يحلم بالفن الاسمى ويسعى لادراكه ، ويخبرنا ان يد الله « تغالي في الايجاد » وهو لا يدري لإعزاز من ... مع انه سبحانه وتعالى ، أمدنا برأس المال ، ونحن اي البشر نغالي في الايجاد . فلا نكن معنى معاداً كما يتخيل الشاعر بل كل الشعراء . علينا نحن ان نغالي في الايجاد ، لاعزاز جنسنا الخلاق العجيب . الرب استراح من جميع اعماله في اليوم السابع . أما اليوم الثامن ، وهو يوم الانسان الطويل

العريض ، فلا ينفد إلا بنفود المادة الازلية التي يتدبرها العقل الانساني فيخلق منها في كل يوم جديداً ...

٢

وقد أعجبني جداً ماقوّله بطلة «بين عشية وضحاها» تبكيتالاختها:

فاستمرت تقول ما الشعر ديرا لبتول ... بل جلوة وصداق

لقد ادرك هذا جبران ، وجهله نعيمه ، فاجهد نفسه في كتابه « جبران خليل جبران » ليكشف عن سوأة اخيه ... ان العورة التي اماط عنها ميخائيل اللثام هي خميرة الادب الجبراني ، فجبران فينيقي المعتقد ، « الشوق » فالحب عنده قوام الحيـــاة ، لا يرى ما يراه نعيمه خطيئة ممتة . لا يعشق جبران الحياة عشقاً صوفياً ، بل يحب الجسد النابض ، ولا يفهم الآية الانجيلية: « سراج جسدك عينك فان كانت عينك شريرة كان جسدك كلـه مظلماً » كما يفهمها غيره، ولذلك بنى كتابه على « المحبة » ، ولا يعني غـــير المحبة التي تربط الذكورة بالانوثة .

ثم يصف لنا العريض البحر ومافيه من نشوة للعذارى فيجيد. ويصف تراشقهن بالماء خاتماً تلك الصورة بقوله :

فاذا ما ارتشقن بالماء قالت موجة « هاك » ثم تعقب « هات »

الفكرة جميلة لو اخرجت اخراجـــاً غير منقوص ، ولكنها كخمرة عُملت من عنب قطف ولما ينضج ، فقضت فجاجتها عـلى نكهتها وطعمها .

وهناك قصة «التوأمان» وهي كأخواتها جودة وحسنا، فنشكر

للشاعر حبه للفن واخلاصه له ، ونتصح له ان يحسن انتقاد شعره ليسلم من الطفيليات الشائنة . إن الشاعر كالرسام ، فكما يعني المصور انسجام الوانه كذلك يجب على الشاعر ان يراعي حسن الجوار بين الفاظه ، واذا اضطر فليلجأ الى « تبادل السكان » فتأتي قصصه مخلوقة في احسن تقويم ...

اما « اسطورة الخيام » فقصيدة جيدة النظم لا غبار عليها . انها خالية من تلك الزلات : كلينا ، وكل ، وايضاً ، وربما الخ . القصيدة منسجمة متساوقة رخيمة الجرس . هي (موديل ١٣٥٩) أي آخر ما ارانا الشاعر من اخراجه ، فيصح فيه قول الشاعر : لا تقل بشرى ولكن بشريان .

فالى العريض تقديري ، فلو لم ارج منه خيراً لما نقدت ديوانه بهذه العناية ، فارجو الا يغضب كسواه ...

يا أخي ابراهيم .

حسبي اني جزت ديوانك من بابه إلى محرابه ، ولم أدع مغرز إبرة إلا أولجت فيه مسبري ، لأغنم رضاك ، فلا تجعلني « مركوباً » في طريقك إلى المجد كصاحبنا النجفي ، ولا تكن راغباً عن « نقدي » يا ابرهيم ، فأنا لا اقتضيك ابناً ولا كبشاً لأرضى ... لا اسألك إلا ان تصبر طويلاً لتبلغ ما تروم من الفن ، فقصيدة سمينة خير من الف هزيلات لا تصلح لا للمسلخ ولا للمرعى .

اما « لؤلؤة الحب » التي اخذها « ولز » الكاتب الانكليزي عن اساطير الهند ، ثم اخذها العريض عنه بتصرف ، فانني احيلها على زعيم المدرسة الرمزية الشاعر سعيد عقل فهي كما قدم لها ولز :

« رمزية كثرت في مغزاها الاقاويل وذهب رجال اللاهوت فيها مذاهب شتى » والرمزية قديماً ، واللاهوت حديثاً ، من اختصاص شاعرنا السعيد . أما انا فانني من اصحاب الرأي الاخير الذي ترجمه لنا العريض عن ولز : « وهناك غيرهم من لا يرى فيها إلا الحقيقة عارية من كل لبوس ».

وقبل أن نعود القهقرى، إلى «غناء» العريض الذي أرجأنا التحدث عنه، نتمنى للعريض توفيقاً طويلاً عريضاً في ملحمته « قبلتان » التي نشرتها دار العلم للملايين . وإني الفت نظر الشاعر إلى «الحوار» ، فليقرّبه ما استطاع من لغة الحياة ، اللغة التي تجري على السنتنا ، فالتعابير القديمة أصبحت فقيرة الدم لا تنبض لتنبض لها القلوب . اقرأ كتاب الله يا أخي ، ففيه ، وحده ، الكلام الحي الباقي .

أما غناء «العريض» فكغناء كل شاعر عربي : اشراق، وتحيات ولوعات ، وحسرات ، ونار في الحشا تلتهم الاخضر واليابس ،وغيرة مثل غيرة ايلياء حين خاطب ربه قائلاً : غيرة بيتك أكلتني . كما نقرأ في اولى اغنياته وعنوانها «حواء» ، ففي مطلعها :

تمثل الحب للفنان بين يدي ذكراه ، كالنار تغشى طورسيناء

وحواء عند الفنان العريض غاية الغايات ، ولب الوجود وزبدته :

هذا الوجود اطار لا كفاء له وغاية الفن فيه رسم « حواء »

ثم يقول لها ولها... حتى يبلغ :

لها الوداد الذي تبقى أشعته تنير خطوك في طوفان اهواء

ان الطوفان في نظري محتاج إلى مثل التي استوت على الجودي أو الى قارب نجاة على الاقل اكثر من حاجته الى منارة ...

القصيدة موسيقية، ولكن نايها أصبح «نائي» مراعاة للقافية، وهذا يغيظ لا بل يبج صدر الفن الذي نذر العريض نفسه له . أما قصيدة « الى... » فمطلعها جميل :

تعالي فان الليل يبسط ظله لكي يتملى ناشيء الزهر حله

وأظن ان الشاعر اراد «طله» ليشرب الزهر الناشيء الطري مثل صاحبنا «الحدث الوسيم» . وفي القصيدة زنة كان البتر بها اولى، فاللام المبنية القصيدة عليها مشدّدة كلها ، إلا قوله «هوى له» والذوق الفني يقضي باقصاء هذه القافية وان كانت جائزة إذ ليس كل جائز بفن . اما قصيدة «مي» التي صنعها المعمل في اول نشأته، عام ١٣٥٣ ، فهي من نوع الحكي لا الشعر ، و اليك نموذجاً :

لقد كان اولى ان نمتع بعضنا بانظار بعضٍ في جنون صبانا

لقد اكثر فيها من« كلانا وكليهما وبعض»، ثم مهرها بـ «عندئذ» التي هي اشنع من «ايضاً» الملك الذي ختم به الشعر ، وابشع من «لا سيما» الملك الذي بدىء به . ناهيك ان شاعرنا لحن « في كلانا » اذ قال : ايقنت انا شيقان كلانا . ظنها توكيد شيقان ، وهي توكيد الضمير المنصوب فيجب ان تكون كلينا . وكلانا كيفما دارت بها الحال ، سواء ألحن فيها ام لم يلحن ، بشعة في النظم . اما ختام هذه القصيدة فختام فيه « زخم » . بمثل هذا الزخم اتمنى ان ينتهي كل فصل من الكلام شعراً كان ام نثراً ، فاسمعه لعلك تشايعني في هذا الرأي :

وقالت اذن هذا هو الحب ؟ قلت : لا

بل الراح . قالت : فلنبل صـــدانا

وعندي لو يقول: «هو الراح» بدلا من «بل الراح» لأراح نفسه ولم يعارض سياق الكلام بهذه « البل » التي تكثر في شعر العريض.

وفي « نشوة الحب » يرجع بنـــا الشاعر الى « لونا فلونا » و « كلينا » ، ويختم المقطع الاول منها بـ « زينـــا » ، وهي بلدية عراقية يشينها قعودها حيث اجلسها الشاعر.

وقلة جلد الشاعر حملته على قوله: «حبي اليك» بدلا من «حبي لك». اما قصيدة « بيني وبينها » فتسير الهوينا لا ريث ولا عجل ، وقـد اعجبني منها بيت لعله قام لي حجة دامغة على ما زعمت للشاعر قال:

يعج بالمعنى فؤادي فان حاولته فمثل خرط القتاد

صدقت يا صاحبي ، ولا ينقذ موقفك الا درهم صبر وبضع قمحات عناية. ولو باليت حقاً بالفن الذي تقول انك تتعشقه لتركت « خرط القتاد » التي قالوها عندما كانوا حفاة . اما اليوم فلا يهمنا « القتاد » وغيره من الاشواك وعندنا هذه البوطات الانكليزية الاميركية...

اما في « القبلة الاخيرة » ، وقد كان يجب ان تكون غاية في الرقة ، فرأيت فيها تعابير لا ارضاها للنثر فكيف بالشعر ، كقوله: «وكانت هي الاخرى كثيراً وجومها» . وكقوله: «تزكيه احدان الدموع وتومها» فما اكره من احدان الا تومها التي تنبعث منها رائحة الثوم والكراث ... ان الفن لا يطلب من تاج العروس ولا من محيط الفيروزابادي . ان الفن يمحص ، ولا يقبل غير الالفاظ الملائمة من الصحيح ، فمـــا كل كلمة صحيحة تصلح حجراً في مدماك

« البنيان الفني » . أجل ان اخراج المعنى يعيي شاعرنا ، احياناً ، فيتضاءل – كقول ابي تمام – كتضاؤل الحسناء في الاطمار . فهذا الشاعر العاشق – كما عشقنا وعشق ويعشق غيرنا – يرى الحنين والشوق في كل شيء من الطبيعة ، يراه حتى في الموج ، ثم يتخيله ، ولكنه لا يجلو خياله فتتعاظل الفاظه – مراعاة للنظير – كتعاظل الامواج فيركب بعضها بعضاً . قال :

وللموج تصبو للتعانق بعضه الى بعضه من غير ايد يقيمها

رحم الله الكاتبة مي ، فانها عندما عنست « هسترت » كانت لا تطيق التفريق بين فردتي حذائها ... ولا فصل قشتي كبريت جمع بينهما الفسفور الاحمر ... ان المحب الملهوف يرى كل شيء في عناق حتى فردتي الحذاء ...

وفي « صورتان » صورتان جميلتان هما من الشعر الطيب فكرة وتعبيراً ، ومثلهما وصف « القبرة » . قد اعجبني التغزل بهذا الطير الذي سبّب حرب البسوس فأفنت تغلب وائل ... يحس الشاعر حسّاً قوياً مع هذا الطائر القليل الحظ من رخامة الصوت ، فيصف لنا الشاعر نفسه فيقول: وهذا هو الشعر الرومنطيقي الخالص:

أقبرّة، هل أنتِ في الجو قطعة من الحسّ سالت باللحون مسيلا
تغالين في الالحان حتى إذا انتشت بها روحك الولهى خفتّ قليلا
كما تخفت الاوتار بعد رنينها ويبقى صداها في النفوس طويلا
فقد برأ الله الطبيعة وهي لا تحسّ به ... حتى بعثت رسولا

اما معنى البيت الاخير فهو غلو شعري متطرف بالنسبة إلى القبرة ، فما ترك صاحبنا للطيور الراقية المثقفة ؟ فاذا صلحت القبرة

رسولا فما يكون الكناري والحسّون ؟ ولكنني اقدّر هذا الجمال الفني ، وما الصوَر الفنيّة إلا تمويه وغلو وإيغال . ولا أدري أين قرأت في الآداب الاجنبية شعراً في هذا الطائر .

أما اوزان الجموع غير المألوفة مثل « اللحون » و « تومها » وما شاجهها فلا تعجبني موسيقاها ، وانصح للشاعر ان يتبع المألوف منها فليس كل ما يجوز بصالح للفن الشعري كما قلنا .

اما « عروس الماء » فصورة سبق اليهـــا من ضيع ملكه ، كما يروون . ذاك الشاعر الجاهلي لم يشبعه الواقع بل ألحّ على صاحبته وما انفكّ عنها حين صاحت به : عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل . اما العريض فتكفيه لذة النظر . يصف لنا ذلك المشهد الطريف الذي رآه ولو كان من اصحاب مدنية البحر المتوسط لاشترك في معركة السباحة وعلى الحياء السلام ... ولكن العريض من عشاق الفن للفن ليس الا . فما قدّر لعروس الماء ان ترى شاعرها الهائم حتى تستفز فيقول فيها :

فاستفزت ... كأنها صورة في اطارهـا

لقد أحسن شاعرنا الختام ، أحسن الله ختام حياته الفنية .

وفي عيد الميلاد ينظم صاحبنا « قلادة » هي قلادة حقاً ، وخير ما في هذه القلادة هاتان الحبتان :

فألهب من خدها جمرتين وفتق من ثغرها برعما

على الارض لا يخـــلد الحسن حتى يقيم على نفسه مأتما

لقد صدق السيد حين قال : ان حبة الحنطة ان لم تمت لا تعش .

وفق الله شاعر البحرين ، وبلغه من الفن أقصى امانيه .

الصافي

في دواوينه الثلاثة

•

يقول العرب : كل يغني على ليلاه ، أما صديقنا الصافي النجفي فيغني على الف ليلى . فاذا رأيته على الرصيف إما متأملا وإما شائح النظر فلا يتبادر الى ذهنك انه من السحرة او العرافين الذين يرجمون بالغيب بل ثق وتأكد انه شاعر هائم ، شاعر بوهيمي حقاً ، يعمل بقول المثل القائل : من اهتم من غداه لعشاه كان من القوم الكفار ...

الصافي شاعر ، ولكنه شاعر على طريقته هو . لست أشك في انه لايستطيع اخراج شعره بغير مظهره هذا ، وان رأيناه في « أشعته » و « أغواره » و « تياره » أصح وأبهى ديباجة منه في « أمواجه » ، فللامواج زبدها وعفشها ونفشها . أما الأشعة ففيها ضياء ولمعان بمقدار . ان حظ الشاعر من الألوان قليل لانه غير بعيد مرامي الخيال . الصافي شاعر واقع ، وواقع كالماء الزلال ، وان اسمى ديوانه الصغير « أشعة ملونة » انه نظم عفواً ، وهو شعر قاله صاحبه في مواضيع شتى ، حتى كاد لا يكون مجموعة خواطر

التقطتها مخيلة الشاعر حين سنحت . يختلف الصافي ويتفق فيها مع زميله الزهاوي في رباعياته، وهما عندي طائران تفقصت عنهما بيضة واحدة . يتفقان شكلا وان اختلفا في بعض المواضيع . كلاهما شاعر غير محكك . وكأني بالصافي قد أدرك هذا فقال :

قالوا قريضك لفظه صدف حيناً ، وحيناً لفظه در
فاجبتهم أصدافه درر لو كان يدرك كنهها الفكر

ألا يذكرك هذا قول ابن الرومي :

شعري شعر اذا تأمله الانسان ذو العقل والحجى عبده
لكنه ليس منطقاً بعث الله به آية لمن جحده
ولا انا المفهم البهائم والطير سليمان قاهر المرده
مابلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده

فاذا صنفنا الشعراء ، وهذا ممكن ، لان الشعراء كالطيور اشكال ، على بعد الشقة والاجيال ، رأينا الصافي في ديباجته كابن الرومي ، وان كان دونه خلقاً وخيالا . وفي صاحبنا النجفي شيء آخر من ابن الرومي هو قلة ثقته بفهمنا نحن البشر ، فيقول :

حين أنحط بالقريض الى الارض تزيد الرفاق من جانبيا
واذا ما ارتفعت بالشعر أبقى مفرداً يضحك الانام عليا

وهو ايضاً كابن الرومي في شنّه الاغارة على الذين يطعنون في شعره فيقول فيهم :

قال خلي وقد تعالى ضجيج حول شعري الراقي ونظمي الرقيق
فيم هذا الضجيج حولك اضحى يتعالى من حاسد وعقوق
قلت هذا الأنين من حشرات عارضات سحقتها في طريقي

أما النقاد ، ويا ويلتي عليهم ، فهذا حظهم في كل زمـــان ، ولكن صاحبنا حملهم ما لا يطيقون . التقى بهم في غـــور من « أغواره » – دونه غور بيسان ، فهو أحط من البحر كيلومتراً – فقال كلاماً معقولا . اما في التيار فقد تجاوز الحـدود والتخوم ، وهذا ما يفعـله التيار الجارف ... فاسمع الان ما قاله شاعرنا في « الاغوار » :

بنقاد القريض برمت لمـا رأيتهم وقوفـاً في طريقي
فتعثر فكرتي بهم اذا ما اردت السير في نظم دقيق
وكل قـــد دعاني نحو نهج فحرت كأنما انا في مضيق
فلم أر حيـــلة لي غير اني اســـير ولا أبالي بالنقيق

اني أقره على هذا الرأي فليسر. ان الناقد لا يستطيع ان يصير الذهب عيار ٢٤ ولكن هذا عمل الصائغ . فليصوب الصافي انبوبه (شالوبه) على شعره ليولد اللهب الآكلة ، فهو مستطيع – الى حد ما – اذا أراد . هذا ما أصابنا من اهوال « الاغوار » ، اما ما لقيناه من التيار فهو الداهية العمياء والمصيبة الهوجاء ، مصيبة في العنوان ومصيبة في ما تحت العنوان ووراءه ، وخلفه ، وقدامه ، ولولا يهجونا الصافي هجواً غير لئيم لهان علينا الأمر فاسمع سبابه :

سأشكر نقـــادي اللئام لأنني
ركبت عليهم في طريقي الى المجد
فان قصروا في السير يوماً وخزتهم
فساروا وساروا مسرعين من الحقد

يضجون من حقد واضحك هازئاً

بهم وهم يجرون بي دون ما قصد

ولو عقلوا يوماً رموني الى الثرى

ومن اين تأتي للسوائم بالرشد

وهيهات يسطيعون رمي الذي علا

عليهم ويعلو الحر دوماً على العبد

ومن يعل شخصاً قاده كمطية

وخير المطايا مازج اللوم بالحقد

ولا يهمل النجفي الفخر بشعره، وهذا الفخر الطائش داء الشعر العربي الخبيث، داء باض وفرخ في صدور كل من قالوا منا شعراً. والغريب العجيب ان كل واحد منا يظن انه الشاعر المفرد، وليس من ينتقد شعره الا حاسد لئيم ... اما صاحبنا هذا، وليس قولي هذا بضائره، فقد فاق كل فوق في هذا المعرض حين قال —

سموت بشعري فوق جبلي ولم يزل

يشك بشعري معشر البلهاء

فان لم اكن في امة الشعر واحداً

اكن امة أعلى من الشعراء

اقول آمنا وصدقنا بهذا العلو، ولكن ايمان البلهاء لا يدخلهم ملكوت رضا صديقنا النجفي. فالملكوت مختص بذوي العقول.. ان اللاهوتيين لم يجددوا بعد الزاوية المعدة للمجاذيب والبهاليل في دنيانا الثانية ...

اما سخط النجفي فكسخط ابن الرومي، كلاهما متبرم ضيق

الصدر بالناس غاضب عليهم ، والفرق بين الشاعرين ان ابن الرومي يرمي عن قوس سخطه شخصاً بعينه ، اما النجفي فضرّاب قنابل رشاشة لا رامي سهام مراشة ، فالناس كلهم عنده انجاس . ان هذه فكرة شعرية طاغية على الشعر العربي ، ومولدها الثأر للشعر من الناقدين ، وهي التي طغت على شعر المتنبي . شك المتنبي بصديقه لعلمه انه بعض الأنام ، وقال الصافي يذم المخلوقين على صورة الله ومثاله، بصورة لم اوفق الى نعت صارم الصقه بها ، فيقول في كلب حكم عليه صاحبه بالاقامة الاجبارية في الشارع مؤبداً ، فانتصر الصافي لذاك الكلب حين رآه حزيناً مكسور الخاطر :

يشحذ الخبز حول بائع خبز من يد المشترين دون طلاب
يسأل المشترين في نظرات قد حوت للطوى معاني كتاب

رق قلب الصافي لهذا الكلب المسكين فقصد بيت صاحبه، واذا به يرى عنده جرو كلب جميل ، فوبخه « على تركه قديم الصحاب » أي الكلب العتيق المظلوم فكان من الرجل ان :

قال هـذا جرو جميل وذاك الكلب شيخ فاعجب لهذا الجواب

وبعد ان عاد الصافي يتعثر بذيل عباءته ، قعد يقرع البشر ويلوم حتى ختم قصيدته بهذا البيت الطريف :

صرت آبي من نسبتي لأناس فضحونا حتى امام الكلاب

هذا نموذج — ذو قيمة — نقدمه للقراء من سخر صديقنا النجفي. ان سخره يبكي ولا يضحك ، فلا هو سخر بشاري ولا سخر نواسي ولا رومي .

اما مواضيع الصافي فلا تحلل ، لانها كنعم الله التي لا تحصى ولا

تعد ، الا اذا خصصنا شاعرنا بكتاب اضخم من دواوينه جملة ، وهذا مستحيل ، ولذلك لم نتركه بالمرة ، ولم نقف عند كل قصيدة وقوف قدماء شعرائنا على الاطلال . ان للصافي فلسفة ولكنها كلاهوتية الشاعر سعيد عقل ، لا تفهم انها فلسفة ما لم تنبه . فسعيد يحسب « المحبة » علم لاهوت ، والصافي يرى البغض فلسفة .. ومن ير الدنيا وناسها بعيني بؤسه وشقائه فلا يمكن ان تكون مواضيعه غير ما كانت . وها هو إذ يقول قصيدته الرائعة ، في ذكرى المتنبي الالفية ، لا يحرم الناس من الطعن والضرب ، فيقول في نقاد المتنبي بيتاً جميلاً . وللصافي مثله كثير في دواوينه :

قد أقاموا ملوحة البحر عيباً حين خافوا من ان يخوضوا خضمه

ثم يرى ما قيل في ذكراه شعراً نازلا عن الشعر فيقول :

وأتى الشعر مهرجانك يشكو بعد الف الى قوافيك يتمه

قلت : فما عساه يقول لنا الصافي في ما قيل اخيراً في مهرجان شاعرنا مطران ؟ ان شعر ذاك المهرجان المطراني لا يليق بشماس شيخ في خدمة مذبح الرب ، فكيف يليق بمطران يؤهله شعر شبابه وكهولته ان يكون بطركاً لولا المحاباة ... كأني بهم قد راعوا النظير فقالوا في ابن الثمانين شعراً كأنه ابن تسعين ... ويختم الصافي رائعته في المتنبي بقوله :

مدح هذا النبي يبغي وصياً آخذ من ابائه الجم شمه
انا اولى بمدحه وعلاه ان يفقني شعراً فلي منه همه

وبعد ، فان اسلوب الصافي هو هو ، وتفكيره في « الاغوار » و « اشعة ماونة » و « التيار » لا يختلف عن تفكيره في الامواج .

اما تعبيره فهو في هذه الدواوين الثلاثة خير منه في الامواج ،وان كان ما رأيته بعدقراءة هذه الدواوين يحملني على القول مع شوقي:

وترٌ في اللهـــاة ما للمغني من يد في صفائه أو لبانه

اما في الابتكار والخلق والابداع فالصافي شاعر يخوض وسط المعمعة ليس اكثر . قد يبخت بصورة او حكاية ولكنه لا يوفق كل التوفيق إلى « الزخم » الذي يترك دوياً في اودية الآذان . ينسيك ختامه ، غالباً ، روعة تلك الفكرة التي حبل بها دماغه ، ثم تمخض ولم يلد الا جنيناً لا يوعوع حين يبصر النور .

فالى الصافي ثنائي الخالص ، وحسبه انه يقول لنا شعراً ، ان يكن غير براق ، فهو فيه غير متعمل ولا سراق . وأحسن ما في الأحسن من هذا الرجل هو انه يعرف نفسه كما عرفه النقاد ، وان ركب علينا جميعاً في طريقه إلى المجد ، كما قال . يعترف الصافي بذلك ، ولكنه كما يتضح مما ستسمع ، يدرك من امره ما ندرك ، ولهذا ختم « التيار » ، وهو آخر ما صدر من دواوينه ، بقوله :

نظر الناس لي فحاروا بأمري وانا مثلهـــم بأمري حـــائر
انا اما ان لا اكون كغيري شاعراً او اكون وحدي شاعر

وآخر مؤاخذة لصديقي النجفي هي تضرعي اليه ان لا يرفع الكلفة بينه وبين اللغة – وان كان قد قال ذلك – فقوله : « نظر الناس لي» لايليق بشاعر كبير كأحمد الصافي،وخصوصاً لانه نجفي، والنجف الاشرف كهف اللغة ومعقلها المنيع .

فالى الامام يا صديقي، انك ستجد مرعاك، كل ساعة ، ما دمت تعبّ من ينبوع الحياة والواقع . اصغ الناس جميعاً ، وخصوصاً

النقاد المناحيس ، انهم يستحقون.. اما ركوبك عليهم في طريقك إلى المجد، كما تقول ،فأرى ان تستغني عنه بحمارة... ان هموم مجدك المتواضع لاتقتضيك اكثر من جحشة ، فلا تطلب غيرها مركوباً.. ثم من يدرينا انها لا تنطق كحمارة بلعام ... وتخلق لك موضوعاً جديداً تضمه الى روائعك...

ان بشاره الخوري كان أرحب منك صدراً ، وأنعم هجـــاء للطاعنين في شعره . وعلى كل فموعدنا واياكم الأبد .

عمر ابو ريشة

ديوان « شعر »

•

كان ذلك في حلب ، ومنذ بضعة عشر عاماً ، يوم سمعت بشاعر اسمه عمر أبو ريشة . دلني عليه تلميذي ، يومئذ ، وصديقي فيما بعد ، الاستاذ اورخان ميسر ، اثنى على صاحبه وسماه في ذلك الوقت شاعر الشباب ، وقدّم لي تمثيلية نظمها الشاعر الشاب عنوانها « وقعة ذي قار » ، فاستبشرت بما فيها من وثبات تدل على الشاعرية العتيدة ، وصرت كلما وقعت على قصيدة له اقرأها وارجو . فماشيت الشاعر في تطوره إلى ان ظهر منذ اعوام ديوان له عنوانه « شعر » فما مددت اليه يدي لانه لم يقدم الى المشرحة طبقاً للمراسيم ، اما ديوانه الجديد ، الناسخ ما قبله ، وهو يحمل شيئاً من هذاك .. فها هو الآن بين يدي .

عنوان هذا الديوان « من عمر أبو ريشة . شعر » وقد سميته الناسخ ما قبله لأن جريدة « كل شيء » أذاعت ان الاستاذ ابو ريشة « لا يعترف بالكتب او الدواوين التي ظهرت قبل الآن ، والتي تحمل اسمه ... وانه يتبرأ منها » .

لا يا أخي عمر ، انها محسوبة عليك ، فما يدخل المطبعة من عبيدنا ينعتق ويخرج منها مولى لنا . لماذا تتبرأ من بنيك ، فما هم بالسفهاء اخوان الشياطين . ما رأيتك استعجلت الأمر قبل اوانه لتعاقب بحرمانه ... والبرهان هذا الديوان البديع الذي اخرجته للناس ، جامعاً فيه خير زاد للبلاد مذكراً الاحفاد بامجاد الاجداد .

جلت « دار الاديب » عرائس ابو ريشة عـلى عشاق الادب الرفيع ، محلاّة مزينة برسوم رائعة تستميل العين والقلب ... فبينا يكون الفكر سارحاً مارحاً على موسيقى بحترية حقاً ، اذا برائدته العين تطل على واحات تلك الرسوم الرمزية فتصيح بالفكر المجدّ : وقّف ... خفّف السير واتئد يا حادي .

الحق اقول ان في ديوان أبو ريشة شعراً طالما تمنينا ان نقرأه ونسمعه ، فشاعرنا يحدو الكلام ويزجيه على هواه . قلت موسيقى بحترية وهاك التفصيل : في شعر عمر مـا في شعر الوليد من سياق مطرد ، ورنة ايقاع وتقسيم عبارات ، فتمشي القصيدة متزنة الخطى كأنها قطعة من عسكر . ألفاظ مختارة منتقاة لا تنافر بينها وبين جاراتها ، ولعلّ هذا من عمل الاقليم اذا صدقنا زعم تين وبرينتير . .

والشاعر على طوله المفرط ، وامتداد نفسه ، يؤثر الاوزان القصيرة المرقصة حتى لكأن ابا نواس شاعره المختار ، فقلما تمخر في ديوانه بحور الشعر العابة الصاخبة كبحر الاطلنتيك ، بل تجدها كلها على طراز بحرنا المتوسط ، ضاحكة ، مطمئنة ، صاخبـة ، بمقدار ما في هذا البحر من عتوّ وصخب .

يخرج عمر من حصن القصيدة القـديم ليبني « دارة » ذات

« خرجات » وشرفات ، فتخترقها الاشعة والنسيم المطهر ولكن هذه الاشعة لا تؤذي الوانها ، ولا تذهب بروعة ظلالها . لا تشم رائحة العفونة ، ولا ترى وجوه صور تعودت ان تراها كلما قرأت وسمعت شعراً . ان الفرار من قافية الى اخرى في القصيدة الواحدة يطرد الملل . وقديماً قالوا : العز في النقل . فاذا رأيت اسفاف شاعرنا نادراً جداً فاعلم ، حفظك الله ، ان هذا الانطلاق قد نجى الشاعر فظل محلقاً في جوّه الفني تشد قوائمه خوافيه فلا تصدق انه ابو ريشة ... واحدة فقط .

في ديوان عمر أنين حب جريح ، وفيه اهازيج حب مظفر ربح معارك شتى ، وخرج من غبارها غير معوه ولا مهشم ، بجيش كجنح ليل بشار . ان صاحبنا محظوظ غير منكود ، يتأمر كثيراً ويدل ولكن ليس بمخلب ومجد ناب كأسد ابن عوانة .. بل بشباب له القدح المعلى والأسهم المرتفعة في بورصة الحب ... ولعل له في اسم عمر بعض العون ورأس المال في البندر ، وان كان لم يقتصر في شعره على الحب كسميه ابن ابي ربيعة . فهذا « العمر » الجديد يقسم ذاته المتمردة بين قلبه ووطنه . يضحي بقلبه اذا كان الحب يستأهل هذا الكبش ، ويصيح بالشباب صيحة القائد المغوار في المعركة الفائرة التنور :

أشباب يا زهو الحياة ويا نشيد العنفوان
لا كنت ان ارخيت معطفك النضير على جبان

أجل يا اخي عمر ، الشجاعة أس الفضائل . هكذا علمنا السلف وهي لا تنقص شبابنا العربي ان شاء الله .

في ديوان عمر قصائد قيلت في مناسبات . ولكن عمر بلج موضوعه من غير ابواب شعراء الفرح والترح . فيدلنا هذا على ان هناك ارادة عاملة لا عادة تسوق الشاعر بعصاها . فهو لا يكسف الشمس ولا يشق القمر ، ولا يطفىء النجوم ولا يدك الجبال ، ولا يسألها ان تتماسك لئلا يزعزعها الدهر ... ان قلب الفن ليطمئن حين يسمع مثل هذه الاناشيد . فالفن يصبح برجاله دائماً وابداً : هاتوا الجديد ، الجديد ، الجديد .

وفي ديوان عمر نخوة ولكنها غير مبتذلة ، نخوة على آثارها بياض حسان فهي مضمخة بطيوب عذارى الفن ، وفيه ثورة جياشة ولكنها تلبس مآزر البيان الوضاءة وغلالات فنية فتانة يختفي تحتها صدأ الدروع ، وزنجار السنان ، وأثر السيوف . الشاعر ثائر ولكنه غير هوّاش وغير سباب ، يخلص لأمته يريدها بريئة من كل عيب ، وان رأى قعوداً عن الجلى استفزه ربعان الشباب وأرن كما يأرن المهر ... يشن الغارة الكلامية ، واول الحرب الكلام . اسمع ما يعاهد عليه خالد ابن الوليد في قصيدة تكاد تكون ملحمة :

يا مسجى في قبة الخلد يا خالد هل من تلفت لبياني
لا رعاني الصبا اذا عصف البغي وألفى فمي ضريح لساني

ان عمر يعلم ان للسان معارك ليست اقل خطراً من معارك السيوف ، وان قال ابو تمام : « السيف اصدق انباء من الكتب . » فمن يوقظ السيف النائم في قرابه نوم الهناء؟ القلم كما قلت يا عمر ، يا حسان المقام ، فليهنأ لسوريا شاعرها الفخم ، فهي مستعيدة به اليوم مجداً أولانا اياه صاحب يتيمة الدهر . اما استعارة الضريح

للفم فما اعجبتني .

في عمر ابو ريشة شاعران : شاعر غنائي يمرح برصانة ، ويتألم بجد ووقار ، يتجمل في حديث حبه ما قدر خوف الشماتة ... وشاعر قصصي ظهرت لي ملامح عبقريته الشعرية في وثبات وطواعية قصّ رأيتها في مسرحيته « وقعة ذي قار » كما قلت سابقاً. وهب اننا وجدنا لعمر نداً في الغناء فاننا لا نجد له ضريباً في القص على حقه . وفي « عذاب » ، وهي مسرحية منشورة في آخر الديوان ، ما يؤيد زعمي، فاقرأها يا قارئي العزيز، واكشف لي عن رأيك فيها ، ولعلي أعود اليها والى عمر القصصي ، اما الآن فعليّ ان انصرف إلى غيرها من الديوان .

لقد عثر عمر في فنه على الحل الوسط لمشكلة التجديد العويصة . فهو لا يسير وراء القدماء كما تسير جياد العربات على الطريق المعبدة: الدرب الدرب . ولا يكثر من الصور المائعة المبنية على المجاز العقلي ، وهي التي تعرف اليوم بالطريقة الرمزية . لقد أمست هذه العبارات عند بعض أصحابنا كل الشعر ، حتى أشبه بعضهم بعضاً في فترة قصيرة جداً. ان عمر يأخذ من هذه البضاعة ، ولكن بقصد وحذر. يقول مثل أصحابنا : لحن شقي، رماد المني، غفوة خرساء، تلفت عريان ، مجروح التمني ، وأطياف يتامى ، وصيحات حمر ، وخطاي الحمر .. وكلها جميلة في مواضعها ما عدا « الصيحات الحمر » حين يخاطب عمر ابا العلاء (ص ٨١) :

فتعالت صيحاتك الحمر تهدي لو اصابت اصداؤها آذانا

ان هذه الصيحات الحمر لا تلائم شاعر الفلاسفة ، من كان اكله

العدس ، وحلاوته التين ... فما الذي ذكرك هذا النعت يا اخي ، أتراها الحافظة قد عادت بك الى قول ابي العلاء : ما عرفت من الالوان إلا الاحمر ... اما في قولك انت :

حثثت خطاي الحمر عن هيكل القدس

وفي حمأة الارجاس كفرت عن رجسي

فهذا النعت يليق بخطاك ، ولكل مقام مقال .

وعمر ينادي كأصحابنا الرمزيين وزن افتعال فيقول :

يا اعتداد الايتام باليتم كفكف بعده كل دمعة خرساء

ولكنه لا يغرب مثل اولئك فيزعج ... تأمل كيف يعبر بلغة الذي أراد ان يشعر فغنى ، فيقول في قصيدة عنوانها « حنين » :

عرفت شذاك فالتفتت تسائل عنك أشواقي

فلحت على خطى مني فغابت فيك أحداقي

تشخيص بديع ، ولعمر في هذا جولات موفقة ، فاذا شئت ان تتفكه بها فعليك بديوانه .

ولكن شاعرنا المبدع ، على كبر حظه من الحب والفن ، يفتتح ديوانه باليأس ، باليأس منا نحن البشر العاديين ، فيسائل نفسه في فاتحة ديوانه لمن ينظم هذا الشعر :

لمن تعصر الروح يا شاعر امالضلال المنى آخر

ثم يعدّد : أللحب ؟ أللهو ؟ أللمجد ؟ أللخلد ؟ الى أن يجيب بنفسه :

رويدك لا تسفحن الخيال ببيداء ليس بها سامر

هذا كثير يا صاحبي ، واني لأخشى ان تصاب بداء الشعراء .

قد رأيت هذا الميكروب عالقاً بأذيال قصيدتك « عرس المجد » . اما اليأس ، وستشفى منه في الغد القريب ، فهو يقتل الشباب ، وان حلا التغني به في الشعر . الا تذكر قول عبد الشعر : ولا ترى طارداً للحر كاليأس . انشد ، انشد ، فكلنا آذان . اننا نسمع ونطرب ونهتز ، فما نحن بالحجارة ولا الحديد . اننا نجد من يستحق التمجيد ، ولا اجرؤ على القول : ونخلد من يستحق التخليد . ته دلالاً فانت اهل لذا كا ، ولكن لا تتمدح فسوف تسمع مني ومن غيري مدحاً يكفيك ويغنيك .

واذا اثنينا عليك بما انت اهل له ، فلا يعني هذا اننا كمنا افواهنا أو سددنا طاقات النقد عنك مخافة ان تطير مع النسيم ... لا يا عزيزي عمر ، فأعظم اثر ادبي ليس في حرز حريز ، فارجو ان توسع صدرك . ان في ديوانك الرائع هنات هينات كان في الاستطاعة تهذيبها او ابدالها لو لم تتعجل ، وهب انك كبيت كنانتك ولم تجد عوداً اصلب فالاستغناء عنها كان اولى . فهذا « المسمار والتسمير » الذي يرافقني في ديوانك قد يستحلى في النثر ، اما في شعر كشعرك فهو بشع ، ألم تحسّ مثلي بسماجة هذا المسمار في قولك :

(١) ولكل كف غضة سكينة ولكل عرق نابض مسمار

لقد طعنت هذا البيت بسكينة واجهز عليه مسمارك فلا حول ولا ... ان « منجوراً » يصنع من الخشب الثمين كطرف ديوانك لا تدق فيه المسامير ...

(٢) والسناد وهو من عيوب القافية كما تعلم ، أراك لم تكلف نفسك

الابتعاد عنه. فعلت ذلك اكثر من مرة ومرتين (راجع صفحة ٢٣، ٥٠، ٥٢، ١٠٥.)

٢ ثم ماذا نعمل لنصلح ما بينك وبين « ان »، فهذه العداوة بينكما ارجو ان تعفّي عليها معاهدة صلح – ولا تكتمنّ الفن مـا في صدوركم – لقد قال القدماء كما قلت انت اليوم، ولكن شعراً كشعرك مارحاً سارحاً يجب ان ينزه عن مثل قولك: اخشى تموت رؤاي (ص ١٩) وقولك: فما استطيع اجلو سراً (ص ٥٠) وقولك هيهات تروى (ص ٩٩) واخـيراً قولك مرتين في (ص ٢٨٣): « واخشى انوء بعبء الألم » و « اريد اقبل ».

٤ وفي « مصرع الفنان » لم يعجبني قولك: تشرب الدمع من مقر انفجاره.

٥ وقولك في الصفحة عينها « بعيد العهود عن قيثاره ». ان هذه « العهود » تدل على قلة صبر، ومثلها قولك « تمتميه إليّ ».

٦ وكذلك قولك « النسيم الرخو ». ومن ينعت النسيم بالرخو؟ أندع القدماء أدق منا بانتقاء النعوت.

٧ واكثارك من استعمال ما الزائـدة لا يعجبني. نحن في زمن يقصون الزائدة فيه فور شعورهم بها، فكيف نضعها في الهيكل الفني لنعوهه وتشوهه؟ أفلا تراها شنيعة كما رأيتها انا؟

مضت الليالي ... مثلما الاحلام في اجفان نائم
كما النحلة الغضبى لدى وخز خصمها

تموت ولكن وهي مرتاحة النفس

ان « كما النحلة » هذه ذكرتني ما حفظته، منذ نصف قرن،

من شواهد ابن عقيل :

وان الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم

٨ والذي ساءني ان تقع عليه عيني في شعر ابو ريشه هو مثل هذا العبث الذي نراه عند البحتري :

أمن المودّة ان تعيث باضـــلعي أمن المودّه

جاوزت حد الشوق يا واهي القوى جاوزت حده

٩ اما الذي حرت فيه فهو هذا البيت من قصيدة في رثاء الملك غازي:

اتمدون في بلادكم لأبي الكاس وتروون بالنجيع بلادي

فالزيادة فيه فاضلة عن المعتاد في تخطي موازين الشعر .

١٠ ولي ملاحظة ، وهي الاخيرة ، على قولك :

ان من سامك المنون لقوم لم يحيّوا على الحجى والفلاح

فاذا وسعنا لك لتشق فعلًا مضارعاً من « حي » وهي اسم فعل فلا نسكت عن خروجك عن سياق الكلام فلا يصح القول : ان من سامك المنون لقوم ، وانما الوجه ساموك ، ناهيك انه لا يقال سامه الموت ، فليس موت الشهيد خسفاً يسامه . وفي الصفحة المقابلة

١١ عديت صمّ فقلت:

خفروا ذمة العهـــود وصموا الأذن عن صرخة المضيم اللاحي

وهي فعل لازم . فأين أنت من سدوا ؟ وكيف لم تخطر على بالك ... هذه هي المئات. أما الجمال فملء هذا الديوان الضخم. وفيه فوق الجمال الفنيّ تحليلٌ نفسانيّ رائع في قصائد عديدة وأخص منها تلك التي يسوقها عمر مساق القصص ، وهذه خاصة يحالفه التوفيق فيها . خذ مثلًا قصيدة « جان دارك » فالشعر جرى فيها على خطط

علماء النفس . حلل عمر نفسية هذه البطلة كما شاء فقال شعراً يبقى. واذا رجعت القهقرى الى حكاية ديك الجن الحمصي ، وعنوانهـا « كأس » ، رأيت ان شاعرنا خلاق لا يعدم اسباباً يرتقي بها الى الذرى ، اسمع بعض ما قوّله ديك الجن وقد « شخّص » في هـذا أروع التشخيص :

نادى هواها ، فالتفت وما رددت له جواباً
وشبابها الظمآن بـين يدي يستجديّ السرابا
فوجمت مجروح الرجولة اخفض الطرف اكتئابا

وشاعرنا الملهم يتلاقى وشوقي حول المسيح وصليبه ، وكلاهما يلوم الدول التي خرجت بتعاليم السيد عن التخوم التي رسمتها. وقد رأيته يقول مثل شوقي في وحدة الاقطار العربية :

قال شوقي :

كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

وقال عمر :

أيّ جرح ضجّ العراق عليه مـا تلقى الأساة من لبنانه

لقد نفر شوقي إلى عمان ومعان لان لبنان لم يكن في الحساب في زمن شوقي ... وربما قصر ابو ريشه اذا عارض شوقي ، اما حين ينفلت من قيود المعارضة فيخوض مع شوقي وسط المعمعة . إقرأ قصيدته في رثاء سعيد العاص ، ذلك البطل الذي عرفنـاه بائساً طريداً ، وترحمنا عليه شهيداً مات قبل ساعته :

نام في غيهب الزمان الماحي جبل المجد والندى والسماح

اما نفسية شاعرنا وديباجته معاً فتدلك عليها قصيدته « نسر »:

أصبح السفح ملعباً للنسور فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري
إن للجرح صيحة فابعثيها في سماع الدنى فحيح سعير
واطرحي الكبرياء شلواً مدمى تحت اقدام دهرك السكير
لملمي يا ذرى الجبال بقايا النسر وارمي بها صدور العصور
انه لم يعد يكحل جفن النجم تيهاً بريشة المنشور
هجر الوكر ذاهلاً وعلى عينيه شيء من الوداع الاخير
هبط السفح ... طاوياً من جناحيه على كل مطمح مقبور
فتبارت عصائب الطير ما بين شرود من الاذى ونفور
لا تطيري جوّابة السفح فالنسر اذا ما خبرته لم تطيري
نسل الوهن مخلبيه وأدمت منكبيه عواصف المقدور
والوقار الذي يشيع عليه فضلة الارث من سحيق الدهور

ثم يصف الشاعر جوعة النسر ووقوعه على شلو دفعته عنه عجاف البغاث فاهتز ، وارتعش وطار، حتى اذا اجتاز مدى الظن :

جلجلت منه زعقة نشت الآفاق حرى من وهجها المستطير
وهوى جثة على الذروة الشماء في جفن وكره المهجور
ايها النسر هل أعود كما عدت ام السفح قد أمات شعوري

لا تيأس يا عمر ، فأنت من الفن في ذراه، اما « السفح » الذي تعنيه فهو لا يميت الشعور ولكنه يوقظ العواطف فيحمي الوطيس.. ارجو ان تظل في « سفحك » هذا لتغني النسور والنمور ، وتدفع الجيل بالمناكب والصدور .. فحيهلا ... عشت يا ابا الريش . . . فأنت يا ابن اخي ، اشعر جيلك في هذا الديوان الذي جمعت فيه بين طريف الادب وتليده .

نازك الملائكة

عاشقة الليل

٩

هذه خنساء جديدة – ولكنها مثقفة – تطلع علينا في القرن العشرين بديوان شعر يدور حول موضوع واحد ، كديوان خنساء الزمن الغابر . تلك ذوبت شعرها دموعاً على اخويها ، وهذه استحالت عواطفها شعراً حزيناً كئيباً يصح فيه ما قاله الفرد دي موسه – اذا لم تحني الذاكرة – : اضرب القلب فهناك الشعر الذي لا يموت .

ولو يصحّ لي ان اتمثّل بالنابغة لقلت لنازك الملائكة : اذهبي فانت اشعر من كل ذات ثديين ، ولولا ذاك البصير عمر ابو ريشة – لفضلتك على شعراء الموسم ، وليغضب عليّ الف حسان ، فلا يخلق النقد غير الاعداء ...

نازك الملائكة من بيت يذكرنا بقول الاخطل : اشعر الناس بيتاً بيت زهير ، فأم نازك – أم نزار الملائكة – شاعرة ، وقد قرأت لها قصيدة في مجلة المعهد حققت لي الكلمة المأثورة : البنت لامها . وابوها شاعر ايضاً ، ولعلّ اخاها نزار ، واختها احسان

التي قدمت لديوانها شاعران .

لقد ضربت نازك الرقم القياسي في الشعر الباكي فبذت ببكائها وآلامها جميع شعرائنا الباكين حتى شيخهم الاكبر ... وما اشبهها الا بمدام دي نواي الشاعرة الفرنسية الشهيرة ، فكلتا الشاعرتين العربية والفرنسية تخافان الموت وضغطة القبر ، وان تمنتا كلتاهما التفلت من قيود المادة . قالت نازك :

نعم مات قلبي، اين احزان حبه؟ واين امانيه ؟ واين اغانيه ؟

أرأيت كيف تفهم الحب هذه الشاعرة ؟ الحب عندها احزان وآلام ، وتذكر الموت في ريعان الصبا فتقول ، والضمير عائد الى عنوان القصيدة ، « قلب ميت » :

ويرعبه ذكر الممات وليله فيدفن نيران الاسى في قوافيه

فكيفما اتجهنا في ديوان عاشقة الليل فلا نقع الا على مأتم ، ولا نسمع الا أنيناً وبكاء ، واحياناً تفجعاً وعويلاً .

تبكي نازك الملائكة جزءاً ضاع منها ولكننا عوضناه شعراً لا يملّ على وفرته وتشابه .

ان نقد النساء صعب كرثائهن ، وخصوصاً اذا كن مسلمات ، وقد كبر في عيني المتنبي حين جربت فأدركت ما قاساه من عناء حين كان يرثيهنّ ، ولكن ابا الطيب ، اجزل الله ثوابه ، كان يفر الى الحكمة ، اما انا فالى اين افرّ ؟

ان في ديوان « عاشقة الليل » ما يحيرني ، فعند « شجرة الذكرى » اقف وقفة متأمل مستلهم لعلّ الله يفتح عليّ ، فاقول ما ارضى عنه فاتذكر قصيدة « الاناء المشعوث » لسيلي بريدوم .

فهذه شاعرتنا تقول :

مررت بها في المساء الدجيّ فالقيت رحلي في ظلهـــا

وان كان هذا التعبير « القيت رحلي » لا يليق بعاشقة الليل ، خفسائنا المثقفة ... وهناك في ظل « شجرة الذكرى » تشرئب ذكريات الشاعرة وتطوف شجونها من حولها فتقول :

اقص على ظلهـــا قصتي وقصة شاعري ... الغادر

وكان في يد الشاعرة شوكة قاطعة تمر بها عـــلى ساق سدرتها فجرحته بلا شعور . ثم عادت اليها بعد سنين فقصت علينا ما يلي :

فقلت لقلبي هيـــا نطف بها وليثر حزنك الهامـد

سنسألها اليوم عن جرحها ألم يشفه الزمن الآبـــد

*

ودرت اسائل عن جرحها اما دملته اكف القدر

فلم ار الا اخضرار الحياة فليس عليـــها لجرح اثر

واما جراح فؤادي الحزين فما زلن يشكون طول الصدر

فيا عجبا للزمـان المسيء متى عن اساءته يعتـــذر

الله اعلم يا آنسة ، الزمان عنيد رأسه كبير يصعب عليـــه الاعتذار ، ثم من يدري فلعله يعتذر الى النساء. وكما حيرتني « شجرة الذكرى » احترت ايضاً في رموز اخرى كثيرة اهمها « التمثال » الذي لم تنكشف لي حقيقته بجلاء ، فهي تقول في « قلب ميت » :

وها انا ذي عمري اجتقار وادمع وفي نفسي الولهـــى لظى وتمرد

أحن الى حبي الجميل وان يكن أشاح عن التمثال جفني المسهد

ومـاذا تبقى الان؟ شلو حجارة تضيق بها نفسي وصخر ممـدد

تعلق قلبي بالنجوم وقلبـــه تمرغ في الاوحال..والطين يشهد

*

هنالك في الامس البعيد وليله سأدفن تمثالي وحبي وادمعي
اشيد قبراً من تمرد خـــافقي واسقيه من بغضي له وترفعي
اغنيه الحان احتقاري وثورتي وتهـزأ اضواء النجوم به معي
وازرع فيه الشوك والسم واللظى واتركه شلواً كقلبي المروع

لقد قسوت جدا ، ولكنه يستحق ...

وفي قصيدة « بعد عام » تصور لنا حالة نفسانية لم يتوفق شاعر ذكر الى قول احسن منها تحليلا عاطفياً عميقاً فتقول :

مرّ عام.. ياشاعري..منذ ابصر تك في ذلك الصباح الكئيب
الليـــالي تمر .. تتبعها الايام في بطئهـــا الممل الرتيب
وانا لهفـــة .. وشوقي يزداد وروحي في عـاصف من لهيب
ظمأ للحياة يمـــلأ احساسي .. ونار في دمعـــي المسكوب
وشظايا كآبـــة رسمت فوق جبيني غـلالة مـــن شحوب

ثم تتعجب الشاعرة كيف نهضت باعباء همومها وكيف لم تمت حتى تقول لشاعرها :

الشهيق الحزين في هدأة الليل الم يُلقِـــه اليـك النسيم ؟
والشرود الذي امات أحاسيسي أما حدثتـــك عنه النجوم ؟

ثم تصف ببراعة فائقة كيف واين التقت بشاعرها :

منذ عام .. في الشارع الصاخب الممتد..والشمس في صفاء الاثير
جمعتنا هنالك الصدفة الحلوة .. في غفـــلة من المقـــدور ..
والتقينا..لم نبتسم..لم احدثك بما في فؤادي المعصـــور ،

لحظة ثم اجهز الزمن القـــاسي على قلب حـــلمي المسحور
سرت يمنى .. وسرت يسرى.. ولم يبق سوى ثورتي ونار شعوري.

*

كل يوم اقول يا قلبي الظمآن للصحـــو .. لا تضق بالغمام
لن يضر الاقدار في ليلها ان تتلقـــاك .. مرة .. بابتسام

*

مر عام .. لم يبق مـــنه سوى لحن حزين .. مغرورق الالحان
ليس الا ابتسامتي المرة الظمأى ودقـــات قلبي الحـــيران
ليس الا ظل من الصمت واللهفة يبـــدو في جفني الظمآن

وهذه القصيدة ، في نظري ، هي خير قصائد الديوان بل هي من الشعر الغنائي الرفيع . كانت العبـارة والصور فيها طيعة سهلة الانقياد للشاعرة لانها صادرة من الاعماق .. ولعل الزمان أخذ بثأر قيس من نازك الملائكة ...

وفي القصيدة التي تليها تدعو قلبهـــا الى اليأس المريح وهي تخاطبه بهذه الوداعة الهادئة :

ثم ماذا أي حلم ترتجي يا ابن الســـماء
انت في الأرض فلا تحلم بلقيا الاوفياء

رحم الله المتنبي القـــائل : لعلمي انه بعض الانام . ان كلمة الآنسة الشاعرة لا تقل روعة عن كلمة شاعر العرب . وقبل هذه القصائد التي مر ذكرها تصف لنا الشاعرة موقفاً لا يحتمله الجنس الخشن فكيف بالجنس اللطيف، عنوان القصيدة « نغمات مرتعشة » وأولها : عد .. لم يزل قلبي نشيداً حالماً . وقد ختمتها بهذه الصورة

الرائعـــة :

ما زلت .. منذ ذهبت .. حيرى في الدجى ..
شهـــد الاسى اني لزمت مكانيـــا ،
وهمي يصور لي خطاك .. ووقعها ..
فاذا اصخت .. صحوت من اوهاميـا
لا شيء .. غير الريح .. تعصف في الدجى
لا شيء .. غير تنهدي .. وبكائيا ..

فالذي عندي ان ديوان عاشقة الليـــل حديث قلب منكوب أثارت نكباته سخط الشاعرة على الناس اجمعين ، وما شكر السوق إلا من ربح . انها تقول كالمتنبي وبصورة بسيطة جميلة :

لم يعد في جسمي الذاوي وروحي
موضع .. يحتمل الجرح الجديدا ...

*

لم يعد في نفسي الولهى .. مكان لأسى .. او فرحة او ذكريات
أشهد وضميري مرتاح ، أنني لم أر الفرح عندها إلا في ختـــام قصيدتها « جزيرة الوحي » حين تختمها بقولها :

وانقلب اليأس بشريات وأمنيات فأي عيـد

ولكنها لم تعيّد . بل عادت الى غيبوبات يأسهـا ، وقالت في « الخطوة الاخيرة » وهي خاتمة ديوانها :

آه يا اشجار .. .. لا تـذكريني فانا تمثـــال يأس بشري
ليس عندي غير .. آثار حنيني .. وبقايا من شقائي الأبدي ...

قد قلنا انها غاضبة على بني آدم ، واليك ما تقول لنا :

لا أريد العيش في وادي العبيد بين أموات .. وان لم يُدفنوا
آدميون ولكن كالقرود وضباع .. شرسة .. لا تؤمن

فهي في هذا جبرانية نعيمية تذكرنا « حفار القبور » لجبران التي استمد منها مخائيل نعيمه الشاعر «اخي ان ضج». وتذكرنا ايضاً ذاك الذي ارسله « أبسن » في روايته وجعل في زنده سلة يجمع فيها الناس ليعاد خلقهم من جديد .. ومشكلة السخط على البشرية تحلها نازك الشاعرة الجبرانية بقولها :

نحن الخياليين في أرواحنا سر الالوهة والخلود الضائع
صدق الفن العظيم .

أظننا أشبعنا افكار الشاعرة اليائسة تحليلاً . عفواً ، ما هذا يأساً ، ان هذه إلا ثورة جامحة ، ومن حق نابغة كنازك الملائكة ان تثور ، واذا لم تثر هي فمن يثور ؟ الملائكة علموا الناس الثورات ...

ولقد قلقت واضطربت وشكت ككل مفكر وحيد فسألت الامطار كما سأل نعيمه نفسه وحلها حلا يرضي خياله ورجاءه . اما الآنسة نازك فجاء حلها منبثقاً من شعورها ، فقالت تخاطب الامطار:

ما أنا ؟ ما أنت ؟ يا أمطار ما ذاك الخضم ؟

واخيراً أجابت :

— لست إلا ذرّة في لجة الدهر المغير
وغدا يجرفني التيار والصمت مصيري
— ما أنا إلا بقـــايا مطر ملّ السماء
ترجع الريح الى الارض به ذات مساء

وهي في هذا الحل القاتم جبرانية ايضاً ، ولكنها من نوع آخر. وتنتهي الى دفن شكاياتها ولكن بتفجع يفتت القلب في ختام قصيدة « على الجسر » فتقول :

يا نهر فلتدفن شكاياتي ومرشجونها
الآدمية ان بكت فلضعفها وجنونها

فآه والف آه ، كم تحت كلمة « الآدمية » من لوعة وشرف واباء .

ولا استغرب أيتها الشاعرة المحترمة حبك الليل ووقفك شعرك عليه ففي كل الامم شعراء مختصون . قالوا في اوروبا : فلان شاعر القمر ، وفلان شاعر البحر ، كما نقول نحن مثلاً الاستاذ المقدسي شاعر النهر ، وشاعر البحر ، وان كان ميتاً .. لقد قلت لك شيئاً ايتها الشاعرة المحترمة ، وما زال عندي اشياء . أما الان فلنعد الى فنك لنرى عناصره الاولية .

ان هذه النقط الكثيرة في ديوانك المطبوع قد لا تدل غيري على شيء ، أما أنا فقد رأيت فيها تفسيراً لقول الضفدع : في فمي ماء ... ولكني أشهد انك ما قصرت. كنت جريئة فقلت ما يقال أما ما لا يقال فنفهمه نحن ، ولأجله نقدر عبقريتك .

في ديوان عاشقة الليل شعر وحكي ، وهـــذا ناشيء عن شدة حساسيتها فهي تريد ان تقول كل شيء ، تريد ان لا تخبيء شيئاً ، ولهذا تجد العبارة الرفيعة الى جانب اخت لها غير نجيبة . ربما قلت لي : وكذلك تكون المواليد وهذه سنة الطبيعة ، وقد نبه إلى هذا ابو تمام ، وكذلك زعم ابن الرومي . أمـا أنا فأخالفهما وأرى أن شرائع الفن تسوغ وأد البنات، بل خنق كل مولود غير نبيه..

واليك نموذجاً واحداً من نوع الحكي :

لم استطع يا نهر كتمان العواطف والشعور
من يمنع السيل القوي من التوقف والمسير

أما حين يثور بركانها وتنظر في قرارة نفسها وتقع عينها على الجرح ، فينهض الشعر من مجثمه فتقول :

في عمق اعماقي اعا صير يجن جنونها
وعلى جفوني رسم احلا م يضج حنينها

فلولانها وضعت « يضج» موضع « يجن » و« يجن» موضع «يضج» لتغيرت الصورة . ولكن شاعرة الليل قلما تحمل عباراتها اكثر مما تطيق ، ككل من يستمد الشعر من نفسه لا من مظاهر الوجود . ان اكثر الشعراء يستمدون غذاءهم مما حولهم ثم تتمثله ذواتهم فيستحيل دماً نراه في البشرة ، بينما نرى الانسة نازك تستمد غذاءها الشعري كله من قلبها وروحها ، حتى حين تصف لنا مشهد الحصان الساقط « على ارض الشارع المبللة والسياط ترتفع ثم تهوي فلا تسقط الا على جرح » . فهي لم تصور من هذا المشهد الا ناحية تلامس عاطفتها وتتصل بها هي . ما رأت في هذا المشهد غير الصورة المنعكسة عن ذاتها . كان في امكانها ان تخلق رائعة بل لوحة فنية ، ثم لا تنسى نفسها ، ولكنها نسيت كل شيء من الصورة الا نفسها وآلامها هي .

أما في « العروض» فقد أحسنت الشاعرة في التفلت من قيود القافية فكانت قصائدها ثنائيات ورباعيات الخ .حتى لا تجد في ديوانها كله غير قصيدتين على قافية واحدة . وكذلك فعلت في

الاوزان فكان أكثرها من العيار الخفيف الملائم للتفجع ، إلا انك لا تحس ذلك التشابه حين تقرأ ، لأن الشاعرة المرهفة الاحساس تشغلك بما تصوره لك من محن تقاسي برحاءها ، فتتألم لألمها .

الصور قليلة في شعرها ولكنها عوضت عنها بما سلحت به من شعور أضرم نار ثورتها العاطفية التي لا نظير لها عند الشاعرات العربيات . وهذه الثورة الفكرية القلبية شغلتها عن العالم الخارجي ، فهي من ذاتها كشخص مائل في قاعة كسيت جدرانها مرايا ، فعينه تقع على ذاته كيفما التفت . وعندي أن كرهها الحياة ناشىء عن حبها لها . وإذا قرأت ديوانها من أوله إلى آخره ، حتى المترجم منه . رأيته يدور حول عاطفة واحدة بل تخال انك أمام « فكرة ثابتة » مكنت صاحبتها من اشباع موضوعها .

لا تبالي الشاعرة باللون المحلي لأنها تدبج ألواناً عاطفية كما قلنا ، فلا النهر ولا النخيل ، ولا الزورق تسترعي انتباهها ، فهي لا تذكر النخيل الا لتكون في ظلها كما تقرأ :

ما الذي ساقك طيفاً حالماً تحت النخيل
مسند الرأس الى الكفين في الظل الظليل
مغرقاً في الفكر والاحزان والصمت الطويل
ذاهلاً عن فتنة الظلمة في الحقل الجميل

ان الرسام الماهر يستطيع ان يخرج لوحة رائعة من هذه الابيات ، وهي اصدق صورة لشاعرتنا ، صورة فتاة ذاهلة مطرقة في ظل النخيل ، مشغولة بذاتها عن روعة ما حولها . لقد تخيلت هذه الصورة الرائعة وان لم ترسمها لي الشاعرة كما كنت أتمنى .

والآن قد حان أن نرى ما في هذا الوجه الفني الطريف من غش . تهمل نازك عبارتها أحياناً ، لانها كما بشعورها الجامح . ولكن هناك وثبات رائعة أكاد أراها في كل قصيدة فتدلني على موهبة وفن الشاعرة .

أما صحة التركيب فجيدة ، وإن كان لي في ذلك ما يقال فهو أن نازك قد أكثرت من استخدام «السنين» قافية . واتبعت فيها أضعف الاقوال – اي اعرابها اعراب «حين» – وهذا، وان ورد ، فهو مقصور على السماع، كما علّمنا ابن عقيل . فهذه اللفظة تجري مجرى جمع المذكر السالم،وعلى هذا جرى القلم في العصور الادبية .

لقد شغلتني «سنين» نازك حتى حرت أخيراً في تعليلها وهي قافية هذا البيت :

عله سائل غداً ، عن اغانيك وما قد جرت عليك السنينا

فاذا شاءت ان تجريها مجرى « حين » كان الاقواء . والا فهي مضطرة ان تقول السنون، فما هذه العداوة بينها وبين الواو والنون حتى تؤثر اللحن على استعمالها ؟ ثم تجيز لنفسها ما لا يجوز في هذا البيت :

اترى تذكرين مثلي ايام صباتا ، وحلمنا المفقود

فالعطف على صباتا هنا لا يجوز ، واذا افترضنا «تكرار العامل» ثار العقل وابى علينا ذلك .

ثم هذا الاستعمال الضعيف في قولها :

طالما من امواجك الباردات اترعت في الأماسي كأسي

فالكلمات المكفوفة – مثل طالما – لا يفصل بينها وبين اللفظة

التي كانت معمولا لها لو لم تكفها (ما) عن العمل . وكذلك تظل الحال معها لو جعلنا ما مصدرية كما أرى ، وان خالفت اراء شيوخنا النحاة .

وفي هذا البيت لم ادرِ لأي حكمة قالت :

تتشكى الذين مروا بدنيا ها فلم تدر ما عسى سيكون

كان يسهل القول : ما عساه يكون . فاستعمال حرف التنفيس – السين – مع عسى مثل استعمال الهمزة مع هل حين يقول بعضهم أهل ؟ ؟ وقد استعملت كثيراً كلمة « لوحده » و « لوحدي » و « وحد » هذه لا تدخلها اللام .وقالت: حدقت في.وحدق تعدى بإلى وليس بفي . اما قولها في هذا البيت :

وليسدل الستر المقدس حسبنا غما وياسا

فالرفع على الابتداء واجب هنا . ثم قولها :

واما جراح فؤادي الحزين فما زلن (يشكون) طول الصدر

اما هذا البيت فقد رأيته غير مستقيم الوزن :

آه وليمح لفظ الامس من سفر الوجود

اظنها : وليمسح ، وقد قستها على اخت لها وردت في ديوان الشاعرة .

اما في هذا البيت :

ها انا بين فكي الموت قلبا لم يزل راعشاً بحب الحياة

فأشهد انني اتعبت فكيّ حتى استقام الوزن .. فليتها تدار كته ولم تتعب قارئها بمداورته ، فالقراء اليوم مستعجلون .

ثم لا ادري ماذا ينقص هذا البيت :

في دمي لحن من الشوق جديد والمجـــالي(ون) حوالي نشيد

فهو في حاجة الى «شدة» على ياء «المجالي» او الى «من».. والله اعلم . وبعد ، فانا ممن يعجبهم هذا اللحن الجـــديد من الشوق ، ولست اكلف الشعراء المنطق الذي اعده حجر عثرة في درب الفن.

ثم هذا بيت آخر ينقصه شيء :

وغـداً تنضب الدموع وتفنى ضجة الموت في عميق السكون

اظنها : عميق ، وقد رجعت الى تصحيح الخطأ فوجدت لفظة مصححة في هذه الصفحة في حين انه لم يشر الى هذه الكلمة ..

اما لون الشاعرة الادبي فجبراني قـلّ فيه التلوين الذي تتعمده السلالة الجبرانية في مدرستنا الرمزية .

اما خلاصـة الفقرة الحكمية فهي ان الشاعرة نازك الملائكة ، عاشقة الليل ، في طليعة بنات جنسها الشاعرات – ذوات الدواوين – في هذا الوقت ، ان لم تكن أولاهن .

مَاوَرَاءَ البِحَار

مدرسة رومنطيقية

•

ان للمهجرة يداً بيضاء على لسان العرب دينياً وأدبيـــاً ، ولا يعنينا الآن إلا المهجزة الأدبيـــة . كانت المهجرة الأندلسية الأولى فأبدعت الموشحات ، فمرّت في جوّ الشعر العربي مجاري هـــواء جديدة أنعشت من كانوا قد ملّوا الشعر المقال على نمط واحـد ، فأقبلوا على ذلك الشعر الطريف يروونه وينشدونه ، ويخرجونه انغاماً والحاناً ، ثم انطوى بساط الحياة الاندلسية فسكتت قيثارة الشعر السارح ، وقبعت القرائح في كسر بيتها المربع الزوايا بعد تلك الدارات ذات الخرجات والشرفات ، المتنوعـــة الهندسة ، المختلفة التصاميم .

اما ادب المهجر الحديث فليس ابن المهجرة الحاضرة وحـدها ، فقد كان قبل هذه المهجرة هجرات . هاجر الكثيرون قبل هؤلاء وعمـلوا المستطاع . وان ننس الذين هاجروا في القرون الوسطى وما بعدها فلا ننس مهاجري القرن التاسع عشر ، الذين انشأوا المطابع العربية في العواصم العالميـــة ، ونشروا الكثير من آثارنا القديمة التي كنا نسمع بها ولا نراها ، ثم احدثوا الصحف والمجلات

العربية في تلك الغربة فكانت مدارس متنقلة في جميع الاقطار. ليس هنا مجال التدليل على جـــذور تلك المدارس الاولى المتأصلة في ادب المهجر، ولكن كلمة جاءت في دستور «الرابطة القلمية» وهي ان غاية هذه الرابطة: «بث روح جديدة نشيطة في جسم الادب وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد.»

اننا نقف عند هذه الكلمة لنعطي الحق صاحبه، فاذا قال ذلك مؤسسو الرابطة – جبران ونعيمه وغيرهما – فلا يعني هذا ان «رابطتهم» هي خمرة ابن الفارض التي سكر بها من قبل ان يخلق الكرم: فلا قبلها قبل ولا بعد بعدها ... فمنذ مئة سنة تقريبـــاً سمعنا احمد فارس يقول في فارياقه: «السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي، فينبغي لي ان لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبـــه. ومن احب ان يسمع الكلام مرشحاً بالاستعارات، محسناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري او بالنوابغ للزمخشري.» ثم شق طريق الجديد ومشى خلفه الناس. ومن قرأ نقده في «الفارياق»، و«كشف المخبأ» ادرك شأن هذا المفكر العظيم، فهو ابو «المقالة» وعلى آثاره مشى اديب اسحق ونجيب الحداد الى آخر السلسلة. وقد سمعنا الامام محمـــد عبده، في فجر القرن العشرين، يرد على بديع الزمان الهمذاني في شرحه مقامته الجاحظية. قال الهمذاني: وهل للجاحظ غير عريان الكلام؟ فصاح به الامام محمد عبده: حنانيك يا أبا الفضل، اننا نؤثر هذا الكلام ونفضله. ويجيء بعد هؤلاء كتاب وشعراء أخص منهم بالذكر فرح انطون وخليل مطران فكتبوا باسلوب حي، وتعبير لا خمول فيـــه

ولا تقليد .

لم يكن الشدياق واسحق والحداد وانطون والمطران والريحاني جماعة منظمة ، ولكنهم كانوا افراداً عملوا ما استطاعوا لانعاش ادبنا العربي . وفي عهد الشدياق انفتحت جبهتان ادبيتان يأتيك خبرهما المفصل في كتابي « صقر لبنان » . ولم نتطرق الى هذا الان إلا لننصف من سبقونا الى ما نسعى اليه ، فبدون الاشارة الى هذه الحلقة المحترمة من العاملين لا تستقيم سلسلتنا الادبية ، ولذلك نوهنا بهم اعترافاً بفضلهم وتنشيطاً للقافلة السائرة في الطريق بعدهم .

اما ان « الرابطة القلمية » هي اول مدرسة أدبية منظمة تنزع الى تكوين جماعة ذات طابع خاص في التفكير والتعبير فهذا حق لا جدال فيه . كان قطب هذه الدائرة جبران ، وهو الطائر المحكي فيها . وقد مثل فيها ميخائيل نعيمة دور الناقد ، اولا ، فكان لها كما كان سنت بيف ، Sainte — Beuve من المدرسة الرومنطيقية . الا ان بين الاثنين فرقاً كبيراً فسنت بيف ، على تعصبه للرومنطيقيين، أراد الحاق نسبهم بقدماء شعراء و كتاب الفرنسيين. اما الاستاذ نعيمة فحاول قطع الصرة ...

وكان في المدرسة الرومنطيقية الفرنسية عدة مصورين ، اما الرابطة القلمية فلم يكن فيها غير مصور واحد هو جبران ، زعيم تلك المدرسة . واذا عدنا الى التاريخ رأينا ان الاسباب التي خلقت الرومنطيقية الفرنسية هي التي خلقت الرابطة القلمية . فهناك الثورة الفرنسية ، وهنا الحرب العظمى الاولى ، اما قبل هذا فما

كذا نسمع غير صوت رومنطيقيين اثنين : الريحاني وجبران.

واتجه الادب الاوربي ، بعد الحرب الكبرى الاولى ، اتجاهاً جديداً . اما أدب المهجر الممثل في الرابطة فظل ينحو نحو ذلك الادب الاوربي الذي هجره اصحابه. وكما ظهر جفاف الكلاسيكيين تجاه الرومنطيقيين كذلك حصل عندنا ، فصادفت طريقة الريحاني وجبران مريدين ومشايعين ، ولا يزال لهما في كل قطر عربي من يقلدهما وينحو نحوهما ... وكما فرقت الثورة الفرنسية وحروب نابليون الشعب الفرنسي في أقطار الدنيا فتأثر بآدابها ، كذلك عملت الهجرة عندنا فاختلط أبناء الضاد بجميع شعوب الارض، وتأثر ادبنا بآداب الامم كلها. وقد ترجمنا واخذنا من هنا وهناك كما ترجم الفرنسيون واخذوا من آداب الامم الاخرى. وكان التطور عندنا في المعاني اكثر منه في التعبير والطريقة لأن شعراء الاندلس سبقوا الجيل الحاضر الى فك قيود الشعر ، وعلموا اوربا ذلك منذ نيف والف سنة ، ولهذا كان أثر الرابطة القلمية بيناً في الاغراض والمعاني ، اكثر منه في الخطة والاسلوب اذا استثنينا الريحاني وجبران . اما الذين حاولوا نظم الشعر كل بيت على قافية ، فأخفقوا كما اخفق احمد فارس من قبلهم ، ولم ينظم الا اربعة ابيات على ذاك الطراز – اقرأ الفارياق – بيد انهم افلحوا فلاحاً كبيراً في الشعر المنثور الذي بدأ به الريحاني ثم بلغ به جبران اعلى ذراه .

يعدّ الفرنسيون بيرون الشاعر الانكليزي مؤثراً في شعرهم الرومنطيقي بحياته وآثاره ، اما العربية ففيها كثيرون من هذا

الطراز . وان وجد الغربيون في روسو مبغضاً للهيئة الاجتماعية فعندنا المعري الحاقد عليها ...

لقد انسى بيرون أدباء الفرنسيين كل شيء ، حتى قال ميشليه Michelet : لقد التهمت بيرون فكنت كمن شرب شرابا قويا ، وقال لامرتين : انه سكر بهذا الشعر . وقال الفرد دي موسه : كأنه بعد مطالعة Manfred قد أنكر كل شيء في السماء والارض . اما شاعرنا العربي الجديد فيرى هذه البضاعة مكدسة في مستودعات القدماء ، وان لم تكن كبضاعة بيرون تماماً فهي تشبهها . ويعد الرومنطيقيون الغربيون شاعر الطليان دانتي مؤثراً بمدرستهم ، أما نحن فنعد دانتي متأثراً بالمعري .

والفرنسيون يعدون الاسبان مؤثرين بادبهم بينما نرى المحققين الغربيين يعدون أدبنا مؤثراً بالادب الاسباني . والفرنسيون انفسهم يقرون بان ادبنا الشرقي أثر في أدبهم الرومنطيقي ، ليس من حيث بنيانه فقط ، بل انه قدم له أزهى صور الوصف . وضربوا مثلاً على هذا كاتبهم الأشهر شاتوبريان في رحلته من باريس الى القدس ، وشاعرهم العظيم هيغو في مشرقياته ، وكاتبهم وشاعرهم لامرتين برحلته الى الشرق .

وكما كان هدف الرومنطيقيين في الغرب ان يعارضوا الكلاسيكيين وخصوصاً فولتير ، كذلك كانت الثورة عندنا على اغراض الجاهليين وغيرهم من القدماء . وعلى تعابيرهم واساليبهم البيانية وصورهم . وكما جعل الرومنطيقيون الخيال والشعور دعامة نثرهم وشعرهم ، كذلك عمل ادباء المهجر فأحبوا الطبيعة كما أحبها اولئك ، وحنوا

مثلهم الى الاوطان ذاك الحنين الذي سماه الناقـــد « تين » مرض العصر ، الا ان اصحابنا - ادباء المهجر - مالوا ككل شرقي الى الاستنتاج أو استخراج الحكمة - كالاستاذ نعيمه في قصيدة « النهر المتجمد » ، وأبو ماضي في «طلاسمه» وكثير من قصائده ، والريحاني في وصفه وادي الفريكة ، وشعره المنثور ، وجبران في معظم مقالاته .

ان طلائع نهضتنا وخصوصاً جبران والريحـــاني ميالون الى التصوّف والتـــأله . وقد سار خلفهم نعيمه وأبو ماضي ونسيب عريضة . فبدلا من ان يحببوا الناس بالحياة فانهم يزدرونها ، يصفونها بتعابير تختفي تحت حلاوتهـا وطلاوتها مرارة وخيبة . وكما أحب لامرتين وشاتو بريان الانشاء الزاهي الأنيق كذلك فعلت مدرسة المهجر ، واكثرهم يعتمد على قول موسه : اضرب القلب فهنـــا النبوغ ، وأشد الاغاني يأساً هي الاجمل . وكان أول من أسمعنـــا هذه الاناشيد الصوفية شعراً منثوراً ، الريحاني فجبران .

أما الاغراض الرئيسية عند مدرسة المهجر فاكـــثرها يتصل بالمشاكل الدينية ، ويجنح إلى احياء مذاهب هرمة شائخة ، قوامهـا وحدة الوجود ، فقعدوا يجترون ما عند القائلين بهـــا من آراء ، وينظفون الاكفان الصوفية ويكوونها . فالدودة أخت لنـــا ، والغراب ابن عمنا ، والطيور والحيوانات شريكة لنـا في الرزق . أما عملياً فنصلي الورور ناراً حامية اذا حام على خليـــة نحلنا ... ونقتل البقرة والعنزة والحمارة اذا اغتالت ورقة من اغصان جنينتنا ! ان الفلسفة التي لا يعمل بها صاحبها ، قبل غيره ، لا تعيش . وهكذا شدوا اواصر القربى بينهم وبين مخلوقات كثيرة . وقد كان للحياة

والموت ، وما وراء القبر والزواج الحظ الوافر من اقلامهم . اما الحصة الكبرى فكانت لرجال الدين . كانت الثورة عليهم في كل مكان ، وعلى اسلوب واحد ، يكيلون لهم القدح بالمدح حتى جعلوهم مصدر شقاء البشر . ثم ثاروا على كل سلطة تقريباً كما فعل قبلهم الرومنطيقيون الفرنسيون . وتكونت عندهم كذلك آراء غريبة في الكاتب والشاعر فعدوا الكتابة وحياً يوحى ، وخال بعضهم انه لا يفنى . ثم قامت في مخيلاتهم اوهام الصوفية العتيقة حتى سمعنا احدهم — نسيب عريضه — يقول : قد بدأنا نشاهد ... ماذا بدأ يشاهد ؟ لست ادري !. اذا قال ابو ماضي : « لست ادري » فهذا كلام مقبول . اما ان نسيب عريضه قد بدأ يشاهد فهذا لا يخرط عقلي .. كان أمر الشؤون الدينية مفروغاً منه في اوروبا فتحول الاصلاح الذي ينشده كتابهم الى بعض الأنظمة المدنية التي لم تكن مستقرة ، اما عندنا فكان الشأن غير ذلك ، ولهذا اتجه كتّابنا الى الاصلاح الديني ومحاربة التقاليد الشائخة ، كما ترى عند فرح انطون والريحاني وجبران ونعيمه وابو ماضي ومطران في قصيدة الزواج .

وقد شارك في هذا الكتّاب المسلمون بعض المشاركة لان الحال عندهم غيرها في المسيحية ، فكل ما ناهضه هؤلاء كان لا شأن له كطلب المنفلوطي أن يتأنى الناس في الطلاق . اما ولي الدين فثار ثورة الكتّاب المسيحيين الشاملة حتى على الصلاة والصوم .

إن في اقاصيص وقصص جبران ثورة على كل شيء حتى على الحياة نفسها ، ولولا القليل بنى العالم من جديد ... واعتقد جبران كما اعتقد هيغو شاعر الرومنطيقية الفرنسية : ان الكتّاب قادة

الانسانية فالكاتب اكبر من المرزبان ، وعليه ان يحمل مشعله في يده حتى الموت، واخيراً تضخمت هذه الفكرة في رأس جبران فخال انه فرخ نبي... اما اقاصيص نعيمه – في المهجر – وخيرها «العاقر» فليس فيها ما في قصص جبران من ثورة اجتماعية جامحة . وكانت نهضة الرواية والقصة مسرح نهضة الثورة الاجتماعية الاوربية، اما عندنا فظلنا نعتمد على المقالة والقصيدة حتى كتب فرح انطون وجبران القصة ، وتطاول نعيمه على المسرح فاقتبس رواية «الاباء والبنون» عن احد كتاب الروسية . وفي هذه الاقاصيص الجبرانية وما نسج فيما بعد على منوالها لا تمثل اللفظة القصد كله ، فادباؤنا اليوم فريقان: فريق قليل الحظ من الآداب الاجنبية، متمكن من الآداب العربية ولغة الضاد، والعكس بالعكس .

وكما انفرط عقد الرومنطيقيين في فرنسا فراحوا في سبل مختلفة ، كذلك أصاب مدرسة جبران – الرابطة القلمية – فانها أعطت فرصة ... فنعيمه اشتغل للمومسات – أي الدولارات – كما سمّاها هو . والريحاني ، وهو لم ينخرط في سلك الرهبانية ، تحوّل إلى كاتب نضال ، يدعو العرب إلى الاتحاد ، ويحث الشرق على النهوض والاقبال على الوسائل الحديثة في ميدان الفلاح والكفاح . كما انصرف جبران إلى اللسان الانكليزي يكتب به دون غيره . ولم يعد يتصاعد في ذلك الافق الجميل غير بعض اغان لأفراد تلك المدرسة . أما الرفّ الذي كان يغنّي مجتمعاً فتبعثر ، ولكن سرباً آخر تجمّع في اميركا الاخرى ...

جبران

جبران خليل جبران زعيم ادب المهجر بلا منازع ، وقد نحا نحوه مخائيل نعيمه ولكنه لم يبلغ الامد الذي استولى عليه جبران . تخيل نعيمه ولكنه لم يشتط ولم يغرب وظل قريباً من الواقع .

مر جبران في أطوار ثلاثة . كان في طوره الاول ، في « دمعة وابتسامة » ، اديب مقالات ، ومن يمعن النظر يرَ في اسلوبها عناصر خفية مكتسبة من الشدياق واسحق وحداد ، ولكنها انيقة ناعمة غير مشددة كاساليب اولئك . فيها نسمة بليلة ، وروح شرقية صوفية كأنها من شعراء التوراة ، بيد انها تختلف عن اولئك جميعاً بخيال صاحبها العجيب. فجبران مصور في تعبيره اكثر منه كاتباً ، فكأنما يكتب بريشة المصور لا بقلم الكاتب .

زركشة ، وتدبيج وتنسيق تذكرك قوس قزح . يبدع تعبيره صورة لاينقصها الا الالوان ، وصوره كلها مستمدة من الفجر والظلام والنور . فيها الاشعة والظلال كمحيط شمالي لبنان الذي ربي جبران بين اوديته وجباله وتلاله . اما التعبير الجبراني ففيه شيء كثير من ثرثرة ينابيع تلك المنطقة الممتلئة جمالا ورهبة . فلا ترتاح الى صورة

من صوره الانشائية وتكاد تهيم بها، حتى تقشعر اذ تتمثل لك صورة تليها . تلك هي طبيعة المكان التي عملت عملها في جبران صبياً وفتى، انه عمل المحيط والمربى . اقرأ جبران في كل ما كتب ، من دمعة وابتسامة الى الاجنحة المتكسرة ، الى النبي فيسوع ابن الانسان ، وآلهة الارض تر ان الشاعر او الكاتب جبران – سمه ما شئت – لا يستعير صورة ولا موضوعاً من مهجره ، فكأنه يكتب في محيط شرقي ، وكأن أذنيه مسدودتان لا تسمعان ضجيج الدواليب وزئير صواريخ المعامل والبواخر . وهو في أروع ما كتب باللغة الانكليزية لا يتعدى هذه الحدود ، فالليل والناي ، والوادي والنهر ، والبحر والثلج والضباب مواد منتوجاته الاولى . يذكر البيدر والكروم ونواح المعصرة فكأن جرن المعصرة كان سريره ، والضباب اقمطته والبيدر ملعب صبوته . وهنا يعمل فيه شيئان : لبنان والتوراة .

انشاء لدن مرن ناعم ، تعابير مملوءة الواناً وموسيقى ، تنعشها نفس صوفية كانت المثال الاعلى لاخوان الرابطة القلمية . فعولوا جميعاً على هذا الاسلوب الناعم الطري الممزوج بالروح الصوفية وتفلسفوا كلهم في شعرهم ونثرهم .

ان جبران كاتب مقل مجود متعمل، ولكن صقله الدائم لعبارته اخفى تعمله فكاد ان يكون انشاؤه طبيعياً لا تحس أثر الصنعة فيه.

اما الطور الجبراني الثاني ، وهو طور الاقصوصة والقصة ، فلا ينحرف فيه جبران عن اسلوب « دمعة وابتسامة » الا قليلا . يتجه اتجاهاً ملموساً صوب الواقع لان القص والحوار يحولان دون

التحليق الكلي في سماء الخيال . وقصص جبران جميعها بل أدب جبران كله قوامه الحب . فحب اللحم والعظم هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة ... وما اغراقه في الصوفية الا رجاء الخلود في حضن المادة ، والتنقل من حال الى حال ليظل يتمتع بمباهج الحياة وملذاتها . الحب الانساني المادي هو أنشودة جبران وهو غرضه في جميع اقاصيصه . ففي قصته الاجنحة المنكسرة غنى الحب المقهور أعذب ألحان سمعها الادب العربي .

كان حب جبران حباً خاصاً ضيقاً في «سلمى كرامه»، و«وردة الهاني»، و«مرتا البانية»، و«صراخ القبور»، ثم صار حباً عاماً مطلقاً في «النبي»، و«يسوع ابن الانسان»، ولكنه ظلّ حباً لحياً عظمياً، فالشوق عند جبران غذاء روحي تحيا به الحياة نفسها ، ولولاه لم يكن شيء مما كان . فكأنه قد استمدّ هذا الشوق من اساطير الفينيقيين الاولين . فهو يتصوّر الضباب كما تصوروه ، ويعتقد بتكتله العتيد وصيرورته في الغد القريب كياناً سوياً .. كما يعتقد الفلكيون بتطور النجوم السديمية . وهذا المعتقد الفينيقي الاصل جرّ جبران إلى الاعتقاد بالتقمّص فبدأه في فجر حياته الادبية حين ظهرت اولى مجموعات اقاصيصه «عرائس المروج» . ففي إحدى قصص هذه المجموعة وعنوانها – رماد الاجيال – يختار لها بعلبك محيطاً يظهر بطلها «علي» قرب القلعة المشهورة ويلتقي بحبيبته التي عرفها وعشقها منذ الآف السنين . ان هذه الفكرة التي هام بها جبران طول حياته لم تفارقه قط، وبها ختم كتابه «النبي» إذ قال: «وقريباً ترونني لأن امرأة اخرى ستلدني.»

اما الطور الجبراني الثالث فهو طور الفلسفة ، عـــبرّ فيه عن افكاره باللسان الانكليزي ، واراد ان ينقل إلى اميركا العمليـــة صوفيـة الشرق ، فكتب لهم بلسانهم « المجنون » و « السابق » و « النبي » و« يسوع ابن الانسان » ، و« آلهة الارض »، وفي هذا الكتاب الاخير غرق جبران في الرمزية إلى ما فوق اذنيه . وكأني به ، إذ عنون كتابه « السابق » ، ذو غرض بعيد ، اظنه يعني به أحد الأنبياء وهو الذي يسمونه في النصرانية يوحنا السابق ، لانه سبق السيد المسيح مبشّراً به ، وهكذا يجعل جبران كتابه هذا « سابقاً » لكتابه « النبي » . أما كتابه « النبي » الذي زعموا انه يشبه كتاب نيتشه فهو بخلاف ذاك. ففيلسوف المانيا أنشأ النازية، اما جبران فلم ينشىء شيئاً ، بنى كتابه على المحبة ، والمحبة اساس اديانا . ان لولب كتاب فيلسوف الالمـــان يدور حول البغض فكان من نتائجه ما كان ...

اما نزعة جبران إلى « التأميم » فغلبت عليه في طوره الاخير ، فهو مثل نيتشه يريد ان يتشح في برد النبي مهما كلفه الامر . ولكن فكرته هذه لم تؤدِ به الى مستشفى المجاذيب كما ادت بنيتشه . كان جبران يتحدّث عن الروح وتعاليمها وهو غارق في جسده، يتحدث عن الحب الأسمى ، ولا يعني إلا الحب الانساني ، وهذا ما يحملني على التأكيد ان الرجل وثني المعتقد ، وان كتب عن يسوع مـــا كتب ؛ فنيقي عتيق يرى في مسيحه شخصية ادونيس ، بعد اجيال ، كما نقرأ في « يسوع ابن الانسان » . ومع هذا اخالني متأكداً ان « الحب » لم يسمع صوتاً ألذّ واعمق من صوت جبران ، ليس في

الادب العربي فقط بل في الادب العالمي ، والغريب العجيب هو ان ما يكتبه جبران في هذا الموضوع آية في النعومة على ما فيه من ثورة هدامة .

اما اثر جبران في الرابطة القلمية وما بعدها فلا يزال ملموساً ، فكل اعضائها اقتربوا من طريقته في التفكير والتعبير . فمقالة جبران « حفار القبور » ، وقصيدة الاستاذ نعيمه « اخي إن ضج ... » كانهما من مقلع واحد ، وان اختلفتا شكلاً . أما معتقد الخلود فواحد عندهم جميعاً . هذا ابوماضي الذي أعده صلة بين القديم والجديد يفلسف كاصحابنا جميعاً . يحدثنا عن جهله كيف جاء الى هذا الكون ، فذكرني بقول الريحاني ، حين شبه وجوده في هذه الدنيا وجهله له بجرذ وجد في قبر عتيق ... فهو يعيش فيه ولا يعرف من بناه ، ولا متى شيد ، ولا يوم تهدمه !!

تخيل جبران في كتابه « النبي » مدينة أبحر اليها وقد جعل أسمها « اورفليس » على وزن اورشليم ، فالتقاه ناسها واخذوا يطرحون عليه اسئلتهم طالبين منه حل مشاكلهم الاجتماعية . فحلها لهم حلاً شرقياً ، مفتاحه المحبة والسلام . ومثل جبران فعل الاستاذ نعيمه ، حين عاد الينا ، فكرز هنا وعلم هناك متصلا بالناس مباشرة يراهم ويرونه ، يكلمهم ويسمعونه ... ثم جمعت تلك الخطب في كتاب « زاد المعاد » . الخبز والادام واحد في « النبي » و« زاد المعاد » . أما اختلافهما ، في بعد مدى التأثير والسيرورة ، فذلك ناشيء عن ان الاستاذ ميخائيل يحدث اناساً غير غرباء عن أورشليم فما نفقت بضاعته عندهم كما نفقت بضاعة جبران عند

الاميركيين ، الذين ينفق عندهم كل شيء .

أما الاسلوب الذي اعتمدته هذه المدرسة فيلخصه جبران بقوله : «يكتب بعضنا لمن ماتوا ولا يدري ان قراءه في المقابر. ويكتب بعضنا لارضاء معاصريه حاسباً ان في ذلك العظمة والخلود فيخطيء المرمى . ويكتب بعضنا لانه ان لم يكتب يمت وهذا من الخالدين»

أما رأيه في شعراء المهجر فقد قال : «لو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ، ان ما كتباه سيصبح مورداً لافكار عقيمة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير بومنا لأهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الاقلام بايدي الاهمال .

ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلا ضخماً كالقطارات ، ومزعجاً كصفير البخار . »

وهنا يخطر ببالنا جبران الشاعر « نظماً » فهل وفق يا ترى إلى الشعر الذي يريد ؟

لا . ان جبران شاعر في منثوره لا في منظومه . أراد ان يفلسف نظماً فقال أشياء هي أفكار أكثر منها موسيقى .

كانوا في الاندلس يتخطون من الطب إلى الفلسفة ، وفي « اندلسنا الجديدة » ، كما سماها بعضهم ، يتخطون من الادب إلى الفلسفة ، وهذا ما وقع لجبران ونعيمه .

وبعد ، فقد يمسي أسلوب جبران كأسلوب ابن العميد ، ولكنه كيفما دارت بـــه الحال يظل أسلوباً مبعثاً ، ويظل صاحبه زعيم مدرسة يبقى الكثير مـــن عناصرها في الذرية ، تتمشى فيها تمشي الوراثة في الناس . وما هـــذه الالوان والمجازات والاسنادات

والاغراق في تعبئة الجملة إلا مظهر من مظاهر الادب الجبراني تحوّل وتطور كما تراه في شعر الشباب الحديث ونثرهم .

واذا ماتت «دمعة وابتسامة» واخواتها فلا تموت كلمات جبران. وانني لأراها تنبعث يوماً بعد يوم من مراقدها لاننا نجد في تآليفه ما يعزينا في محنتنا، وما يدفعنا الى العمل بنصائحه لنصيب الاهداف التي تنصبها الاحوال الراهنة أمام أعيننا .

فزعيم أدب المهجر شخصية لها مميزاتها القوية ، وعناصرها المتمردة . فهو شرقي عربي ، لم يكتب ليمغرب الشرق بل كتب ليمشرق الغرب ويكون له رسولا ... والشخص الفذ هو الذي يحتفظ بلونه لانه في غنى عن الالوان التي يكتسبها من محيط غريب.

ان النوابغ يفرضون أنفسهم على الناس . والمجنون هو من يحاول طمسهم ... انه كمن يبصق في وجه الهواء القالع .

المدرسة الجنوبية

•

اقفلت مدرسة اميركا الشمالية ابوابها ، وتفرق السرب ، فهذا الريحاني يغني على ليلى جديدة ، ينفخ في بوق القومية العربية داعياً أحفاد يعرب الى الاتحاد ، بعد أن اضطجع على صفة ربة الوادي في الفريكة صارخاً مستطيبا : داويني ربة الوادي ، داويني . وهذا جبران قد امسى يكتب بلسان الدولار والشلن . وهذا ميخائيل نعيمة يعود الى لبنان ، بعد موت جبران ، ويختلي في بسكنتا والشخروب ليكتب « المراحل » ثم كتاب «جبران خليل جبران» النفيس ، كتبه ليبدد غيوماً تكاثفت حول جبران ... خاف ان يختنق صديقه الحميم وراء غيوم النبوءة الكثيفة فشق ثوبه عن صدره ليمكنه من تنشق الهواء النقي ... ثم خال ان ذلك غير واف بالمرام فبدأ منذ حبل به في البطن ، وأخيراً ، كشف عن عورته .. فتم الكتاب ... وفي كتابه هذا « جبران » يؤرخ لنا ميخائيل انشاء « الرابطة القلمية » واضعاً النقاط على الحروف . اما ايليا ابو ماضي شاعر المهجر الكبير فاحترف الصحافة واقل من قول الشعر . اما الآخرون وهم « العمال » كما يسميهم قانون الرابطة

فكادوا أن يصمتوا .

عاد الينا الاستاذ نعيمه خارجاً من معترك عملية نيويرك مثل الشعرة من العجين ، فاسمع كيف يخاطب ابناء بلدته :

يا ابناء بسكنتا ، يا لحمي ودمي . ما انا بالنبي يصنع العجائب ، غير اني مذ عدت اليكم والعجائب تكتنفني ، فكأني في عالم مسحور. انظر الى الجبال التي كنت اتسلقها فاذا بها تتسلقني .!! أكاد لا اسمع زقزقة عصفور الا سمعت فيها اجواقاً من الملائكة ، ترنم بصوت واحد : قدوس ، قدوس ، قدوس . ما ابعد السلام المقيم في جبالكم عن الجلبة المعسكرة في مدينة كمدينة نيويرك ، وتلك الجلبة هي تطاحن المطامع والاهواء البشرية في سبيل الريال . وليس اضل ممن يعتقد ان بامكانه التوفيق بين ريال نيويرك وسلام صنين . فريال نيويرك نقاب كثيف يحجب وجه الله ، وصنين عرش من طهارة يبدو عليه وجه الله سافراً . من اختار منكم ريال المهجر وكل ما في قلبه من جلبة لا تسكتن ، فليطلق سلام صنين !

تقولون لي : وهل نأكل سلام صنين اذا عضنا الجوع ، او نلتحف به اذا قرصنا البرد ؟

وانا اقول لكم : بلى والف بلى . فالجمال الذي تنثره يد الله حواليكم بسخاء هو الطعام والكساء والمأوى لكل ما هو ازلي وأبدي فيكم . ولكن أأكل نعيمه من التفاح والدراقن والخوخ ، أم أكل من سلام صنين ؟

ثم يعلن في مقام آخر : انه حطم جميع ابواق الناس التي تعلم النفخ ليستعيض عنها ببوق واحد ، هو البوق الذي يمجد به الحياة

الكاملة ، والحياة الكاملة التي يعنيها نجد عناصرها في خطبه « زاد المعاد »، وهي تصلح دستوراً للحياة المثلى ، ولكن هل استطاع صاحبها ان يحب ويجود ويضحي كما قال ؟ هل يعمل بما علّم ويعلم ؟ قال فيه صاحبه امين الريحاني ، في كتابه « قلب لبنان » :

« وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب ، بقي طوال الدهر نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا يأوون اليه . بقي نكرة الى ان شع فيه نور الفكر والأدب ، اتخذه مخائيل نعيمه « مقاماً » يطبخ فيه طبخات صوفية ، ويعمل التوابل والحوامض الادبية ، ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس لوجه الله تعالى ...

هنيئاً للنساك الاقدمين اجدادنا المتعبدين ، المتصوفين ، هنيئاً لميخائيل ، فقد عاد اليهم في القرن العشرين عن طريق اميركا الى صنين ، واندمج في سلكهم الطاهر » .

وهكذا تقلص ظل « الرابطة القلمية » تلك المدرسة الادبية التي ارتقى على يدها النثر العربي الى ذروة فنية مرموقة . كانت كما تدلنا اقوال زعمائها وعمالها ، مدرسة عامة لا نزعة خاصة لها ، تكاد تكون أممية ، بل قل شرقية شاملة . كان فيها شعراء ولكنهم ليسوا من الشعراء الكبار – اذا استثنينا أبا ماضي – كلهم قالوا شعراً منظوماً : من جبران الى نعيمه ، الى كل عضو من اعضاء الرابطة ولكن منثورهم فوق منظومهم .

أما المدرسة التي فتحت ابوابها في البرازيل – العصبة الاندلسية – فقد لا تكون كالرابطة القلمية تنظيما وجهاداً ، وقد لا يكون لها

دستور كتلك ، وان كان لها مجلتان راقيتان لم يكن للرابطة القلمية مثلهما . وهاتان المجلتان ما زالتا تصدران الى الان ، وهما «العصبة الاندلسية» ، و«الاندلس الجديدة» . من عنوان هاتين المجلتين تعلم ان الشعر غالب على هذه المدرسة . فالمهجر البرازيلي لم يتحفنا بغير دواوين شعر مختلفة الالوان والنزعات ، ينحو اكثر شعرائها نحو شعراء « الرابطة القلمية » في الاغراض الوجدانية ، وينفردون دونهم بالشعر الوطني القومي . وهذا الضرب لم يعالجه شعراء اميركا الشمالية .

كان المهاجرون البرازيليون قليلي العناية بالادب . لا يعني صحفهم الاولى الا السياسة والاخبار ، وظلوا على ذلك حتى وصلت هذه القافلة المتأدبة الى البرازيل ، فوجدت فيها مرتعاً خصباً لعبقريتها ، وجدت جالية متعصبة لجنسها وقوميتها ، وشعباً برازيلياً يحترم العروبة ويجلها ، ويذكر ما لها على أمته في سالف الزمن من يد . فاتقدت جذوة الادب في صدورهم ، والادب كالتجارة ينمو بالاخذ والعطاء .

ان شعراء اميركا الجنوبية او اللاتينية كثيرون ، من مشاهيرهم رشيد سليم الخوري — الشاعر القروي — والياس فرحات ، وشكرالله الجر واخوه عقل ، ونعمه قازان ، وفوزي المعلوف ، واخوه شفيق .

قال فوزي في بساط الريح شعراً أندلسياً حقاً لولا ما فيه من غلو واغراق ، تتجاوب الاصداء النفسية في منعرجاته ومنحنياته ، ولكنها تلهث تعباً . وهذه النشيدة الانيقة — بساط الريح —

أحلت شاعرها فوزي المعلوف منزلة عالية . أما قصائده التي قالها في مواضيع متشعبة فليست من وزنها وبابتها . جرب فوزي اولا في قصيدة عنوانها «الفردوس المستعاد» فلم يقل غير الدون من الشعر، واليك منه هذا النموذج الصغير :

فانحنى آدم لرب الانـــام ثم خـرّا
ساجداً قائلاً بكل احترام ربّ شكرا
قال ايضا لزوجه حـواء بابتســام
كفكفي الدمع ابشري بالصفاء والســلام
لم يعد موجب لماضي البكاء والمــلام
استعدنا الفردوس بالابناء بالهيــام

ارأيت « خرا » و « بكل احترام » و « قال ايضاً » و « لم يعد موجب » ما أبعدها عن الشعر ؟ فهذا شعر لا شعر فيه ، ولا يحسن صاحبه غير التفعيل ، ويخفى عليك حتى تظن انه ليس لصاحب «بساط الريح» . حقاً ان الشاعرية قريحة وطبع ، اما اجادة السبك فمران .

واذا قابلنا بين فردوس فوزي المستعاد وبين «أوتار» اخيه رياض المنقطعة نكاد نجزم ان رياضاً سيكون بدراً كامــلا ، لان الفرق بين «الفردوس المستعاد» و« الاوتار المنقطعة » بعيد جداً .

اما شفيق ، وهو من شعراء هــذه العصبة ، فقد ركب متن طائرة ، مثل شقيقه فوزي فحملته الى عبقر ، فخاف وخوّف ، وعاد من ذلك الوادي المسحور لا يحمل شيئاً لان الحال في عبقر كما هي في ممالك ودول اليوم : ممنوع التصدير الا عن طريق المقايضة .

وشفيق لم يكن معه شيء ليقايض ويعود غانماً ...

وهؤلاء الاخوة ثلاثتهم فوزي وشفيق ورياض محشو شعرهم تشاؤماً، ونصيحتي لرياض ان يعدّي عن تشاؤمه اوفليكن صاحب الكوخ الاسود لا الأخضر، فالاخضرار والتشاؤم كالصيف والشتاء على سطح واحد.

اما شعراء اميركا اللاتينية الباقون ففي شعرهم طلاوة الشعر الاندلسي، بل يفوقه جرساً وشدة اسر. فاذا قرأت روائع شكر الله الجر وفرحات والشاعر القروي رأيت ان هؤلاء أخذوا من شعر الاندلس طلاوته دون ميوعته فقالوا شعراً طيباً.

اما نعمة فازان صاحب معلقة الارز فقد جمع فيها خواص الشعر الاندلسي، بل قل أطواره كلها، من الموشحات الرصينة حتى القوما والدوبيت، يبتدئها بالمليجانا والعتابا، ويختتمها بالزجل، وهذا البدء والختام من الشعر الرائع. اما شعر المعلقة فمغامرة جريئة لا أدري ما يكون شأنها في الادب. ولست أدرسها الآن فموعدها، مع شعراء المهجر جميعاً، في الكتاب الذي يلي هذا. ان في هذه القصيدة مرامي بعيدة تستدعي التفكير، والآن لا نقول فيها الا كلمة عارضة جرنا اليها موضوعنا. فالظاهرة الغريبة، في هذه القصيدة، منبثقة مما قلنا سابقاً، أي ان اندلسيينا الجدد يتخطون من الشعر الى الفلسفة: فنعمة فازان خلق لنا ثالوثا جديداً، وكاد ان يوجب علينا تقديسه، وهذا الثالوث يتألف من ثلاثة: جبران وهو فجر، وميخائيل نعيمة فجر في فجر، والشعاع نعمة فازان، رحم الله عظام مار توما فكم تعب حتى يحل عقدة المسيحية

التي لم تفك، وها هو الشاعر نعمة قازان يفكها على الهينة! فجبران الآب، ونعيمة الابن، ونعمة الروح القدس، ومن لا يؤمن يُدان، وطوبى للنقية قلوبهم فانهم يعاينون الله ... اما من هم مثلنا فما ابعدهم عن مشاهدة « صندوق الفرجة » ...

ففي نظر قازان أن جبران لم يقل كلمته، ونعيمة الذي سماه قازان « فجر في فجر » – على طراز ما جاء في « قانون الايمان »: نور من نور، اله حق من اله حق – قد قال بعضها. عثر نعمة قازان على هذا الفجر في فجر، او النور من نور، في الهيكل العجيب حين دخله هو. ويؤكد لنا انه لم يجد فيه أحداً غيره ... ولذلك يخاطب نعمة قازان الناس جميعاً في بدء كل مقطع من معلقة الارز بهذا البيت:

وقفتم ببابي ولم تدخلوا فماذا تريدون يا اخوتي

سلامتك يا أخي ... الا انه، على نبله وكرمه، اشاح بنظره عنا، وطار كأبليناء، وبرفّة عين بلغ السدرة ...

لم يقاس شيئاً مما قاساه شقيق معلوف في رحلته تلك، بل قفز قفزة عريضة فاذا به حد الله جلّ جلاله:

وحلقت حتى دنوت اليه فقلت « السلام على العزّة »

وقطع الكلام خاتماً معلقته بهذا البيت، ثم لم يقل لنا شيئاً عن الرد على هذه التحية، أمثلها كان أم أحسن منها. وهذا الشاعر الذي بلغ ما لم يبلغه احد من بني آدم حتى الرسل والانبياء، يتواضع ويقول:

وليس كبير سوى نعيمة وليس صغير سوى نعمة

فيكم الخير والبركة ، كلاكما كبير يا أخي نعمة ... نجّانا الله وإياكم من هذه الوساوس !

*

وها نحن نبحر أو نطير من الاميركيتين عائدين الى لبنان ، ونستريح قليلاً للاستجمام ، مرجئين نقد وتحليل المدرسة الشعرية الحديثة مبتدئين بزعيمها سعيد عقل والجائلين معه في المعمعة ، وسوف لا نهمل احداً حتى المقلدين الخاسرين .

ثم نمرّ عجالى على المدرسة النثرية الجديدة لانها مشتقة من تلك . ان هذه الطريقة في النثر قد شغلت عقول الناشئين واذهانهم حتى كادوا ان يفسدوا صورها وتعابيرها . والاغرب من هذا ان ينزع اليها بعض المشايخ ويوغلوا في غاباتها غير خائفين على عمائمهم واردانهم واذيالهم .

ان هذا كله ستراه ايها القارىء ، في كتابنا الجديد :

دمقس وارجوان

فهرست الاعلام

ابراهيم (النبي) ١٥٥
ابراهيم ، حافظ ٦٨
ابسن ١٩١
ابن الاثير ٨ ، ٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩
ابن بطوطة ٥٩ ، ٧٢
ابن الخطيب ، لسان الدين ٢٤
ابن الرومي ٨ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٥ ، ١١٠ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٢
ابن سينا ١٠
ابن سيرين ٨٥
ابن عقيل ١٨٢ ، ١٩٥
ابن العميد ٢١٣
ابن الفارض ٢٩ ، ٤٠ ، ٨٠ ، ٢٠١ ، ٢١٣
ابن المعتز ٦٥
ابو تمام ٨ ، ٦٤ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٩٢
ابو راشد ، عبود ١٢٩
ابو ريشة ١٧٤ — ١٨٤ ، ١٨٥
ابو شبكة ، الياس ٩٦ — ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٢٦
ابو العتاهية ٣٥ ، ١٤٤
ابو ماضي ، ايليا ٤٥ ، ٤٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦
ابو نواس ٢٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٧٥
الاخطل ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٨٤
الاخفش ٢٤
ادريس ، سهيل ١٥١
ادونيس ١٤٣ ، ٢١١
اديسون ٩
ارميا (النبي) ٧٣
اسرائيل ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦
اسحق ، اديب ٢٠٢ ، ٢٠٨
اشعيا (النبي) ٧٣
الاصمعي ٩
الاعشى ٤٢ ، ٦١
اغوسطينوس (القديس) ١١٤

افرام السرياني (مار) ١٦٦ ، ١٤١
افلاطون ١٣٢
امرؤ القيس ٧ ، ٩ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٨٦ ، ١٠٦ ، ١٠٨
امية بن ابي الصلت ٧٩
انطون ، فرح ٤٦ ، ١٢٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
انطونيوس (القديس) ٤٥ ، ٨١ ، ٩٢
الياس ٥٦
انور (التركي) ١٣١ ، ١٣٩
ايوب (النبي) ٣٣
البارودي ، محمود سامي ٣٩ ، ٦٨
باغي ٣٧
البيغاء ، ابو الفرج ٤٣
البحتري ٨ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٧٥ ، ١٨٢
برغسون ٧٨
برونيتيير ١٧٥
بريدوم ، سيلي ٨٩ ، ٩٠ ، ١٨٦
برعمون (الاب) ٩
البستاني ، المعلم بطرس ٧
بسمرك ٢٩
بشار بن برد ٩ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٤٩ ، ١٧٦
بطرس (الرسول) ٩٠ ، ١٢٣
البعلبكي ، منير ١٥٧
البهاء زهير ٢٧
بودلير ٢٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤
بوفون ٩٤
بولا (القديس) ٩٢
بولس (مار) ٥٤
بولس (الرسول) ١٣٧
بيرون ٢٧ ، ٢٠٤
بيف ، سنت ٢٠٢
تأبط شراً ٣٨ ، ٨٦
تقي الدين ، امين ١١٦ ، ١٢٠
تقي الدين ، رشيد ٧١
تولستوي ٧٣
تين ٩٣ ، ١٧٥ ، ٢٠٥
الجاحظ ٤١ ، ٤٩ ، ١١٠ ، ٢٠٢
جبران ، جبران خليل ٤٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٢ ، ٨٨ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، ٢٠١ ـ ٢١٦ ، ٢٢١
الجر ، شكرالله ٢١٨ ، ٢٢٠
الجر ، عقل ٢١٨
جرير ٩٨
جودت ، صالح ٤٤ ، ٤٥
الحجاج ١٣٥
الحداد ، نجيب ٣٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨
الحريري ١٠٥ ، ٢٠١
حسين (طه) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨
الحطيئة ٨٠
الحوماني ١٥٤ ، ١٥٥
الخازن ، شاهين ١٣٦ ، ١٤٠

خالد بن الوليد ١٧٧
الخنساء ١٨٥
خوري ، أميل ١٣٤
الخوري ، بشاره ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ — ٧٠ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٧٣
الخوري ، الشيخ بشاره ١٠ — ١٧
الخوري ، رشيد سليم ٢١٨ ، ٢٢٠
دارم (جد الفرزدق) ٦٠
دانتي ٢٠٤
دانيال (النبي) ٧٣
داود (النبي) ١١١
درك ، جان ٧٣ ، ١٨٢
دليلة (صاحبة شمشون) ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦
دموس ، حليم ٦٨
ديك الجن الحمصي ٤١ ، ٤٤ ، ١٨٣
ديوجين ١١٣
رافائيل (الرسام) ٣٥
الرافعي (مصطفى صادق) ٤٩ ، ١٥٦
ربابة (جارية بشار) ٤٨
الرصافي ١٤٤
الرضي ، الشريف ١٤٤
رنان ، ارنست ٧٥
رودين ٣٣
روستان ٣٧
روكفلر ٢٢
الرياشي ، لبيب ٦٢
الريحاني ، امين ٣٢ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٠١ — ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٧
الريس ، نصيف ١٣٩
زارا توسترا ٧٩ ، ٨١ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧
الزمخشري ٣٩
الزهاوي ٣٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٤٤ ، ١٦٧
زهير بن ابي سلمى ١١٧ ، ١٢١ ، ١٥٣
ستال ، مدام دي ٧٧
السري الرفاء ٤٣
السودا ، يوسف ٧٧
سورل ، جورج ٣٧
سليمان (النبي) ٢٨
سيبويه ٢٤ ، ٧٩
شاتوبريان ٢٠٤ ، ٢٠٥
الشبيبي ، محمد رضا ١٤٤ ، ١٥٠
الشدياق ، احمد فارس ٦ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨
الشرتوني ، سعيد الخوري ٦ ، ١٨
شفاليه مانون لاسكو ١٤٠
شيلي ٣٢
شمشون ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦
الشنفرى ٣٨ ، ١٥٥
شوقي ، احمد ٨ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ — ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٨٣

الصافي النجفي ، احمد ١٦٠ ، ١٦٦ — ١٧٣
صبري ، اسماعيل ٦٨
صدقي ، عبد الرحمن ٤٤
طرفة بن العبد ٢٧ ، ٤١
الطفرائي ١٤٤
العاص ، سعيد ١٨٣
عبد الحميد (السلطان) ١٤٠
عبده ، الامام محمد ٢٠٢
عبود ، مارون ٧ ، ٥٣ ، ١٥٣
العتابي ٣٣
عثمان ، بهيج ١٥٧
العريض ، ابراهيم ١٥١ — ١٦٥
عريضة ، نسيب ٢٠٥ ، ٢٠٦
العقاد ، عباس محمود ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٤
عقل ، سعيد ٤٨ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ٢٢٢
عقل ، وديع ٣٥
علي بن ابي طالب ١٤٦
عمر بن ابي ربيعة ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٤١ ، ١٧٦
عنترة ٦ ، ٣٢
عوض ، فريد ١٢٤
غازي (الملك) ١٨٢
غرمانيوس (المستشرق) ٣٦ ، ٣٨
غصوب ، يوسف ٧١ — ٩٥ ، ٩٨
غوت ٢٧
غوتييه ، تيوفيل ٣٥ ، ٦٩
الفارابي ٩٨
فارس ، انطون ١٢٣
فارس ، حبيب ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٤٠
فارس ، فليكس ١٢١ — ١٤٣
فارس ، نبيه ١٥١
فاليري ٣٣ ، ٤٤
فرحات ، الياس ٢١٨ ، ٢٢٠
فرحات ، جرمانوس ٩١
الفردوسي ٣٥
الفرزدق ٢٧ ، ٤٠ ، ٦٠
فرويد ٨٥ ، ١١٤
فلوبير ٤٥
فولتير ١١١ ، ٢٠٤
فياض ، نقولا ٧١ ، ٧٢
الفيروزابادي ١٦٣
فيني ، الفرد دي ٩٢ ، ١٠٢ ، ١٠٦
قازان ، نعمة ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
قايين ١١٣
القلشقندي ١٨
كامل ، مصطفى باشا ٦٠
كلوديل ، بول ٣١ ، ٤٠
كنعان ، رشيد ١٢٠
لامرتين ٢٠٤ ، ٢٠٥
لامنيه ١٠٤
ليمتر ، جول ٩٥

المازني ، ابراهيم ٤٣
مالرمه ٢٧
مبارك ، زكي ٤٩، ٩٩
المتنبي ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٨٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٣
مجاعص ، داود ١٣٩ ، ١٤٠ ـ ١٤٢
محمد (الرسول) ١٤٨
مراش ، فرنسيس ٧١
مروان بن ابي حفصة ٩
مريم (العذراء) ٧٠
المسيح ٤٨، ٥٤ ، ٥٨ ، ٩٠ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٨٣ ، ٢١١
المشنوق ، عبدالله ١٥١
مطران ، خليل ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٧١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦
المعري ٤٢، ٧٥، ٨٠، ١٧٨، ٢٠٤
المعلوف ، رياض ٢١٩ ، ٢٢٠
المعلوف ، شفيق ٢١٨ ، ١١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
المعلوف ، فوزي ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠
الملائكة ، إحسان ١٨٥
الملائكة ، نازك ١٨٥ ـ ١٩٧
الملائكة ، نزار ١٨٥
ملاط ، شبلي ٧١ ، ٧٢ ، ١١٨
منش الحلبي ، الخوري جرجس ١٣٥
المنفلوطي ، مصطفى ٤٦ ، ٢٠٦
موسيه ٢٧ ، ٩٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٤
موسى (النبي) ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٤٦
مي (الآنسة) ١٦٤
ميسر ، أورخان ١٧٤
ميشليه ٢٠٤
ميكالنج ٣٥
النابغة الذبياني ٤٢ ، ١٠٨
ناصر الدين ، أمين ١٤٤
نجا ، الشيخ مصطفى ١٣٥
نخله ، امين ٥٠ ـ ٧٠
نعيمة ، ميخائيل ٩٣ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، ٢٠١ ـ ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢١
النقاش ، داود ١٢٦ ، ١٣٥
نواي ، مدام دي ٨٤ ، ١٨٦
نيازي (التركي) ١٣١ ، ١٣٩
نيتشه ١٢٢ ، ١٣٧ ، ٢١١
الهمذاني ، بديع الزمان ١٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٢٠٢
هوميروس ٤٥ ، ٥٥ ، ٨١
هيار ، كليان ٣٢
هيغو ٣١، ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦
الواساني ٨٦
ولز ٣٣، ١٦٠، ١٦١
اليازجي ١٨
يكن ، ولي الدين ٣٩ ، ٢٠٦
يوحنا ٢٨، ٤٢، ٥٥، ١١١، ٢١١

فهرست

	صفحة
كمقدّمة	٥
خطب الرئيس	١٠
المجترون	١٨
بشارة الخوري وامين نخلة في رثاء احمد شوقي	٥٠
يوسف غصوب في قفصه وعوسجته	٧١
الياس ابو شبكة	٩٦
امين تقي الدين	١١٦
فليكس فارس	١٢١
ديوان الشبيبي	١٤٤
عرائس العريض	١٥١
الصافي في دواوينه الثلاثة	١٦٦
عمر ابو ريشة – ديوانه « شعر »	١٧٤
نازك الملائكة ، عاشقة الليل	١٨٥
ما وراء البحار	١٩٩
مدرسة رومنطيقية	٢٠٠
جبران	٢٠٨
المدرسة الجنوبية	٢١٥

٩٥ — ٥ — ٤٨

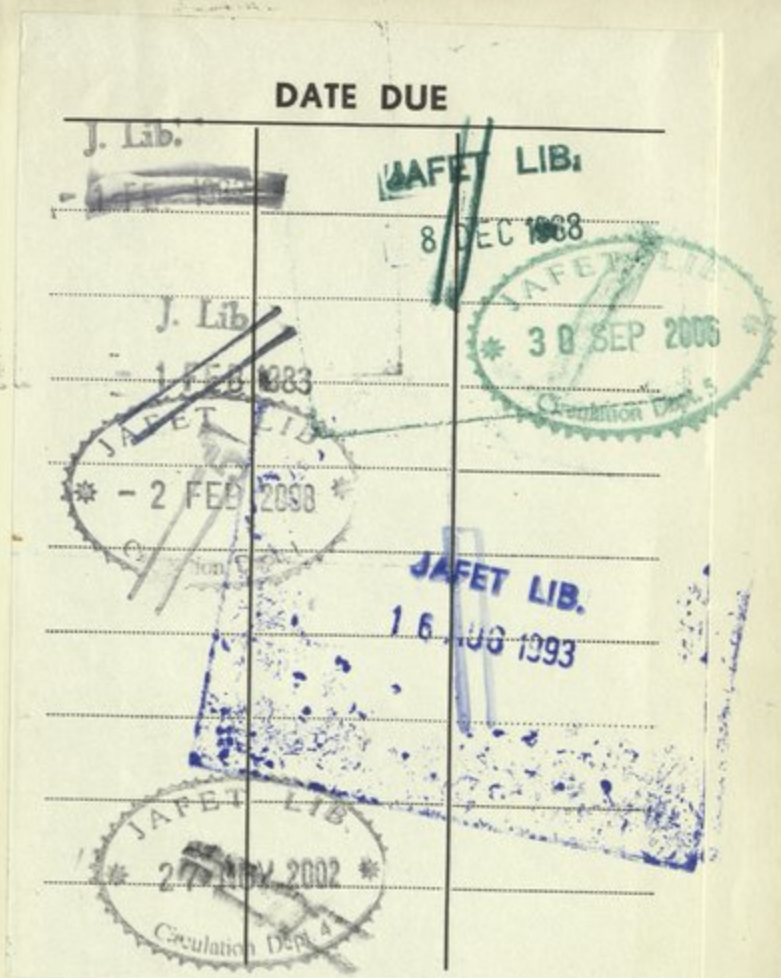
DATE DUE
J. Lib.
JAFET LIB.
8 DEC 1968
J. Lib
JAFET LIB.
30 SEP 2005
Circulation Dept.
JAFET LIB.
- 2 FEB 2098
JAFET LIB.
16 AUG 1993
JAFET LIB.
Circulation Dept.

892.709:A13mA:c.1
عبود، مارون
مجددون ومجترون
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01033175

892.709:A13mA
عبود
مجددون ومجترون .

892.709
A13mA